مذكرة

حزب الاستقلال العربي

المقدمة

الى الوفد الاميركي من

اللجنة الدولية





مخطرة

حزب الاستقلال العربي

المقدمة

الى الوفد الاميركي من

اللجنة الدولية



٢٠٥٢٤
(١)

مخطوطة

مقدمة من قبل (كاتب حزب الاستقلال العربي)

في دمشق الى الوفد الاميركي من اللجنة الدولية

بتاريخ ٢٨ حزيران سنة ٩١٩

تشكل حزب الاستقلال العربي بتاريخ ٢٠ كانون الثاني سنة ٩١٩ بناء على الشعور العام المنتشر بين طبقات الامة على مختلف نزعاتها. ينتسب اليه ما يربو على الف عضو حسب الوثائق الممضاة المحفوظة في السكرتارية العامة للحزب والمعدة لأن تعرض عليكم اذا اردتم . لهذا السبب يتكلم وفدنا الوفد اليكم الان بلسان ما يربو على الفا من الاهلين فيهم الكاتب والصحافي والوجيه والطبيب والمحامي والمزارع والصانع والتاجر والملاك وغير اولئك من الطبقات المنتسبين اليه وهم منتشرون في جميع انحاء البلاد العربية ..

وللحزب فروع كثيرة الموجود منها في المنطقة الشرقية علني دون ان تكون لها صفة رسمية لان حكومة الاحتلال فيها غير مخولة باعطاء الاذن الرسمي لمثل هذه التشكيلات . واما في بقية المناطق العربية كفلسطين والمنطقة الساحلية والمنطقة العراقية فللحزب فروع فيها ايضا الا انها غير علنية ودون تشكيلات فعلية لان حكومات تلك المناطق لا تساعد على ذلك . لهذا رأينا من الحكمة عدم التجاوز على رغبات حكومات المناطق

المتأخرة في مثل هذه الظروف الحرجة ، واكتفينا من تشكيلاتنا بوجود الفكرة الاساسية عند القسم العظيم من الاهلين

بعد هذه المقدمة التي يتضح لكم منها اهمية الحزب الاستقلالي يجدر بنا ان نبين لكم حقائق رغائبه المستندة كلها الى ارادة الشعب وجميع طبقات الاهلين

يطلب الحزب في المادة الاولى من قواعده الاساسية :

ان تكون البلاد العربية المحررة ذات وحدة سياسية مستقلة استقلالاً تاما . ونريد بالبلاد العربية المحررة القطعة العراقية والقطعة السورية بمعناهما الجغرافي والتاريخي والقطعتان موجودتان اليوم تحت الاحتلال العسكري الاجنبي واما بقية البلاد العربية كالحجاز واليمن وغيرهما فهي بلاد محررة الان لاتدخل في برنامجنا السياسي الحاضر

اما حدود كل من هاتين القطعتين فهي :

١ — حدود سورية : يحد سوريا من الشمال جبال طوروس وجنوباً الخط المار من جنوب الجوف الى جنوب العقبة الشامية والعقبة الحجازية وشرقا نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرقي البوكمال الى شرقي الجوف وغرباً البحر المتوسط

٢ — حدود العراق : يحد العراق شرقا دولة ايران مع قبول التصحيح الذي جرى بين تركيا وايران اخيراً ، وغرباً الخط المار من شرقي الجوف وشرقي البوكمال ثم الفرات والخابور وشمالاً الجبال الواقعة جنوب جولامرك

وشمال عماديه وجزره ثم نهر دجله والحدود الشمالية لولاية ديار بكر وجنوبا الخط المار جنوبي حائل وجنوب بلاد القصيم وجنوب الكويت .

ان معاهدة ١٩١٦ المعروفة بمعاهدة سايكس بيكو التي قسمت بها بلادنا العربية ذات الوحدة الجغرافية ، ذات الوحدة النسبية ، ذات الوحدة التاريخية ذات الوحدة الاقتصادية لايمكننا بحال من الاحوال قبولها والرضوخ لاحكامها لانها طعنة نجلاء في صميم البلاد العربية وهل يتأتى لمطعون في قلبه ان يعيش . وهل يمكن المنطقة الداخليه المحصورة من كل جهاتها المسماة بالمنطقة الشرقية ان تعيش وهي مفصولة عن ساحلها وهو بابها ومنفذ حياتها ؟ وهل ارتنا الهندسة البنائية قديمها او حديثها صحيحها او سقيمها بيتا يبنى بلا باب ؟ ولا ندري كيف جوز اصحاب الاتفاقية المذكورة لنفسيهما حق خنقنا تحت سماء بلادنا ؟ وهل يمكن للساحل ان ينفصل عن داخلية البلاد وفيها كل حاجياته وموارد ثروته من غلال ومواد حيوية وغيرها من الوسائل المادية الحياتية ؟

فالوحدة السياسية المستقلة استقلالا تاما التي نريدها للقطرين السوريه والعراقي هي ان نراهما تحت وحدة سياسية واحدة يمثلها سفيرا ومعتمد واحد في علاقاتهما الخارجية دون ان يكون لاحدى الدول حق الوصاية او الحماية عليهما

واذا سئلنا عن سبب هذا الطلب الذي نطلبه لهذين القطرين فلاننا نحن العرب لم نثر على الاتراك ونسعى في الانفصال عنهم منذ عشر

سنوات الا لانا نريد ان نخلص انفسنا من حياة الاستعباد والاستعمار السياسي • نريد ان يكون لنا ما لغيرنا من الامم من حق الحكم الذاتي الخالص • نريد ذلك لاننا نعتقد بقدرتنا على القيام بجميع شؤوننا بانفسنا • ها كم الشعب العربي المنتشر في الزوايا الاربع من العالمين تجدونه شعبا عاملا يستفيد من امم المدنية ويتطور بكيفياتها في كل ارض وجد فيها • ان قابليتنا السياسية وحقنا في الحياة كشعب ذي وحدة تاريخية ولسانية وعنصرية يحملانا على طلب حق الحياة والحكم الذاتي الخالص • ولهذا نحتج بشدة وبكل قوانا على منطوق المادة الثانية والعشرين من دستور عصبة الامم القائلة بوجوب الانتداب السياسي لبلادنا

نحن اليوم ان بزغ فجر استقلالنا نشاهد اننا اعظم رقيا واكثر قوة ان مادة او معنى من كثير غيرنا من الامم يوم نالت استقلالها • على اننا على ثقة من انفسنا بانه لن يمر عشر من السنين الا ونكون في مصاف الامة الراقية من حيث المدارس ودور التعليم والسعي في مضمار الانسانية والمدنية والاقتصاد لا من حيث الانانية المفرطة والثكنات العسكرية والاساطيل الضخمة • نريد ان نجعل بلادنا كهفا للرخاء والهناء • ومن كان مثلكم مطلعا على تواريخ الامم لابد ان يعلم شيئا مما كانت عليه اجدادنا وكانت عليه بلادنا • يخطئ الغربيون على اختلافهم بحكمهم علينا • لا يريدون ان يفرقوا بين العربي وبين سيده بالامس يريدون ان يعتقدوا ان هذا نفس ذاك وذاك نفس هذا لاننا من ديانة واحدة وهذا خطأ يجب ان

لايتم فيه عالم مفكر . هل تظن اوربا اننا سنندمج للامم سبهللاً بغشي جفوننا في الوقت الذي نرى فيه بقية الامم في يقظة دائمة وعمل متواصل ؟

هل تظن اوربا اننا سنجمد على مقاعدنا في الوقت الذي تمشي فيه الامم وتسير الى الامام بخطى جبابرة عظام ؟

هل تظن اوربا اننا نترك السبق لغيرنا من الامم المحررة اليوم كالبولنديين والتشكوسلوفاك واليوكوسلاف وغيرها من الامم الجديدة ؟

طال اصطبار اوربا على تركيا مئات من السنين . او ليس بوسعنا ان نعطينا بعضاً منها لنبرهن لها ان قومنا غير ذلك القوم وان ادمغتنا غير تلك الادمغة . اولا تعلم اننا نعتقد باننا في زمن ان لم نعمل فيه حق العمل اشتد بنا التيار الجارف الى الدرك الاسفل من الحياة المستعبدة ؟

ولئن طلبنا الاستقلال التام لبلادنا فلاننا نستحقه لما بذلناه من دماء الابناء والاخوان في البادية وماقدمناه من الضحايا على سلالم المشانق في سبيل تحقيق رغائبنا وآمالنا الاستقلالية .

نصل الى المادة الثانية من قواعدنا الاساسية وهي (يقوم في الاقطار العربية المحررة حكومات شورويه مستقلة استقلالاً داخلياً)

نريد بذلك تطبيق الحكم اللامركزي في كل من القطرين السوري والعراقي . نريد ان نرى كلا من هذين القطرين عائشاً لنفسه من جميع وجهاته من حيث التشريع والتنظيم فيما يتعلق بشؤونه الداخلية ان ادارة او تنفيذاً

وإذن سألتمونا عن سبب ذلك نقول ان لكل قطر من هذه الاقطار ميزة خاصة يختلف بها عن القطر الآخر . فاحسن في هذا ربما لا يحسن في ذلك وما يتطلبه هذا يرفضه ذاك . لهذا السبب المعقول ، وحباً في اغناء كل قطر وتعويده على الحكم الذاتي نرتأي تطبيق هذا البند

البند الثالث من قواعدنا الاساسية يقول (تجمع هذه الحكومات في مصالحها الكبرى حكومة ملكية شورويّة (پارلمنتير) مدنية

نريد بهذه الحكومات حكومة العراق وحكومة سورية . هاتان الحكومتان مع بقاء كل منهما مستقلة لنفسها دون ان يكون لاحداها حق المداخلة في الشؤون الداخلية في الحكومة الاخرى يجعل على رأسهما حكومة عامة فدرال تمثلهما في الخارج وتجمع بين مصالحهما في الشؤون الكبرى كالجيش الملي ومصلحة الجمارك وغير ذلك مما هو متعارف في الحقوق الاساسية العمومية . كل من هاتين الحكومتين تنتخب شكلها الداخلي فان كانت امارة فهي تنتخب اميرها وان كانت جمهورية فهي تنتخب رئيسها غير ان الحزب يرجح وجود امارات على الجمهوريات لان الجمهورية هي منتهى تطبيق الحكم الذاتي ولم نصل اليه بعد .

من جهة سورية فاننا نطبق فيها قاعدة اللامركزية ايضاً بحيث تقسم سوريا الى مقاطعات حسب الاقاليم الموجودة كاقليم لبنان واقليم فلسطين وغيرهما . اميرها الامير فيصل وعدا عن ذلك فاننا نطلب ان يكون رئيساً للحكومة العامة والحكومة العامة يجب ان تكون بنظرنا

حكومة دستورية بارلمانتير تفصل فيها السياسة عن الدين ولا ينظر في مسائل التشريع والتقنين الى القيودات الدينية ولا التقاليد المذهبية

المادة الرابعة من قواعدنا تقول : القانون الاساسي المشترك الكافل لحقوق جميع الطوائف على اختلاف مذاهبها ونزعاتها والمعين للروابط العامة مابين الحكومات يسنه مجلس عام ينعقد في دمشق عاصمة الملك مؤلف من جميع مندوبي الاقطار المذكورة لكل منها عدد مساو للاخرى. في هذه المادة كما ترون بيان طريقة وضع القانون الاساسي المشترك بين حكومات الاتحاد ، ولما كان وضع هذا القانون من خصائص مندوبي الحكومات المتحدة الذين باجتماعهم يؤلفون مجلس التأسيس للحكومة العامة ، فلا نرى لانفسنا في الوقت الحاضر حقاً في وضعه ، غير اننا نؤكد بان هذا القانون الاساسي المشترك سيكون كافلاً لحقوق جميع الاقليات ومؤيداً للروابط العامة بين الحكومات ونرى ان تكون دمشق كما هي عاصمة الحكومة السورية مركز الحكومات المتحدة .

البند الخامس والاخير من قواعدنا الاساسية يقول :

تستعين الحكومة العامة لاعمار البلاد واصلاحها باخصائيين من الامم الراقية .

نطلب هذه الاعانة والمساعدة الاقتصادية والفنية المحضة والشخصية لاننا باحتياج الى ثروات الامم الراقية والى رجالها الاخصائيين والفنيين ومهما كان نوع تلك المعونات والمساعدات فلا نريد بوجه من الوجوه ان

يكون لها صبغة سياسية مطلقا تمس باستقلالنا ادنى مساس. وهذه الاعانات والمساعدات نقررها بيننا و بين احدى الامم الراقية على صورة معاهدات ومحالفات ، واننا نرجح اخذ هذه المساعدات واجراء مثل هذه المعاهدات الاقتصادية من دولة الولايات المتحدة لانها دولة بعيدة عن المطامع السياسية ولاننا نعتبر بان دولة الولايات المتحدة هي عبارة عن جمهورية اقتصادية لا يمكن ان يكون لها فكرة استعمارية او مبدأ استملاكي ، ولانها ايضاً دولة غنية برجالها غنية باموالها غنية بتجارتها غنية بمعاملها ولان قسماً كبيراً من اخواننا اقتبسوا من اميركا نور المدنية وتطوروا بالحياة الاميركية الحرة العاملة .

ولان طلبنا دولة الولايات المتحدة لهذه المساعدة والمعونة فاننا نحصر طلب مساعدتنا بها وحدها دون غيرها لاننا لا نريد ان تكون بلادنا في داخل اداراتها ووزاراتها مسرحاً للدسائس والمكائد الدولية فلا نريد ان نرى في بلادنا ايد تلعب بنا و يسعى كل منها ان يجر الخير الى جهته . ربما يعترض معترض و يقول ان دولة الولايات المتحدة لم تقرر حتى الان خروجها عن مذهب مونرو حتى تطلبوا منها هذه المساعدة الاقتصادية والمعاونة الفنية .

فجواباً على ذلك نقول ان الولايات المتحدة التي لم تعلن الحرب ولم تضح اموالها ورجالها الا في سبيل انهاض الامم المظلومة والمحافظة على حقوق الشعوب المستعبدة لا يجوز لها في شرع من الشرائع الارضية والسماوية ان

تتخلى عن مثل هذه المبادئ التي اعلنها رئيسها الدكتور ولسن مئات من المرات في خلال هذه الحرب الطاحنة . وعدا عن ذلك فاننا نعتقد ان الولايات المتحدة بدخولها في هذه الحرب الاوربية قد الفت من سياستها مذهب منرو ومن ثم يحتم عليها ان تؤيد مطالب الشعب العربي مع هذا كله دولة الولايات المتحدة اما ان تجيب رغائبنا واماننا وتمد لنا يد المعونة الاقتصادية والفنية والشخصية و بذلك تؤيد ما نعلق عليها من الامال الشريفة . واما ان يكون لها ثمة مشاغل او موانع تمنعها عن قبول هذه المساعدة فلأن كانت الاولى تكون الولايات المتحدة ايدت باعمالها وسياستها الفعلية المبادئ الشريفة التي اعلنها رجالها ولان كانت الثانية كانت عذرنا ان اردنا الاستعانة بامة شريفة بعيدة عن المطامع السياسية فلم نفلح .

في الحالة الاولى حسن حظنا وفي الثانية ساء حظنا الامر الذي يجعلنا ان نلتفت الى جهة ثانية في مسألة طلب هذه المعونة الشخصية والاقتصادية والفنية

قبل كل شيء نرفض ان تكون فرانسة هي الدولة المساعدة لسببين بسيطين احدهما مادي والاخر معنوي :

السبب المادي :

١ — هذه الحرب طحنت فرنسا في ماليتها ورجالها بحيث لا تظلها قادرة على ان تقوم باصلاح خرابها دون المعونات المالية الدولية ولا يمكن المديون ان يكون واسعة في ماله تخوله ان يدين الاخرين اللهم الا اذا اراد ان يستدين ب ١٠٠ — ٢ و يتدين ب ١٠٠ — ٢٠

هذا سبب معقول يلجأنا ان لا نتطلب من فرنسا هذه الطلبات لانها مضطرة بحكم الطبع والضرورة ان تستنزفنا اقتصادياً

٢ — واما السبب المعنوي فهو ما يأتي: الحالة الحاضرة الموجودة في المنطقة الساحلية اليوم ولا نظنكم تجهلونها من اختلافات وعداوات وحزازات بين ارباب المذاهب المختلفة هي بنت السياسة الافرنسية لاننا رأينا الاهالي على اختلاف دياناتهم كانت قبل احتلال الافرنسيس على اتم وفاق ووئام وذلك من مقتضى مصلحتهم الوطنية . فجاءت فرنسا بما جاءت به من المطامع الاستعمارية مما الجأها الى اتباع سياسة ما كيافالي كما اتبعت تركيا نفس السياسة ابان حكمها فنحن الذين سعينا للخلاص من تلك الدسائس التركية لكي نعيش كما يعيش ابناء الوطن الواحد لا يكون عملنا تاماً ان قبلنا بانتداب فرنسا لبلادنا ولو كان الانتداب عبارة عن مساعدة اقتصادية وفنية محضة لان حالنا تصبح كمن يطرد عدواً ضعيفاً من جهة ليستقبل عدواً اقوى من جهة اخرى

لان رفضنا نحن فرانسا للسببين المذكورين ورفضت الولايات المتحدة مساعدتنا الاقتصادية لغير ما سبب لا يبقى لنا سوى ان نطلب هذه المساعدة من دولة بريطانيا العظمى على شرط ان لا تمس باستقلالنا السياسي ادنى مساس

قبل كل شيء نريد ان يفهم الوفد الاميركي من اللجنة الدولية ان طلبنا هذه المساعدة الشخصية والاقتصادية والفنية نحن بغنى عن التصريح به لان هذه المسألة هي عبارة عن مسالة ادارية عامة لا علاقة لها بالسياسة

الدولية فهي من خصائص حكومتنا الاجرائية بعد ان تنال بلادنا استقلالها السياسي التام ولئن فعلنا والمعنا الى هذه المساعدة في تقريرنا هذا فلكي نبرهن للعالم الغربي اننا لا نريد ان تبقى بلادنا على ما هي عليه من التأخر الاقتصادي والفني وانما نبتغي ان نصعد سلم النمو والرقي بقدم ثابتة ومعونة من سبقنا من الامم الى النهوض والارتقاء

هذه نتفة يسيرة من قواعدنا الاساسية نقدمها للوفد الاميركي لتكون له عونا على تفهم ما يريد ان يقف عليه من رغائب الاهالي القاطنة في مقاطعة سوريا

السكرتير العام
لحزب الاستقلال العربي في سوريا
توفيق الناطور

ملحق

ان التقرير الذي رفعناه لهيئتكم الكريمة باسم حزب الاستقلال العربي يحتوي على شرح مبادئ الحزب الاساسية من نقطة نظر الوضعية العامة للبلاد العربية المحررة غير ان ما لليهود تجاه البلاد السورية عموماً وفلسطين التي هي جزؤ متمم لها خصوصاً من المطالب والتشبثات تدعونا الى تلقي هذا الامر كمسئلة جوهرية حيوية وتحدو بنا الى ابداء مبدأ

الحزب في هذا الموضوع توفية للشروح التي رفعناها على المبادىء الاساسية الاولى فنقول :

ان اليهود الصهيونيين يطالبون بجعل القسم الجنوبي من القطر السوري وطناً قومياً لهم بدعوى التاريخ وعلاقة الدين حالة كونه ليس في دعواهم مستند يدعم لهم هذا الطلب فقد سكنوا البلاد قبل الفي عام مدة قصيرة جداً ثم جلوا عنها ولم يعودوا . اما العرب فقد سكنوها قبل الفتح اولاً ثم تملكوها بالفتح ثانياً ومضى عليهم نحو الف وثلاثة عام وهم يحتفظون بها بدمائهم واموالهم . اما علاقة الدين فان علاقة العرب الدينية من مسلمين ومسيحيين في البلاد اقوى جداً من علاقتهم فيها بشكل لا يقبل المناقشة . على ان تأسيس القوميات الدينية امر يرجع الى عصور التعصبات المظلمة الوسطى وليس له ادنى قيمة في القرن العشرين .

ثم انه ليس لهم في القسم الجنوبي من بلادنا علاقة مادية تذكر فليس في يدهم اكثر من جزء من خمسمائة جزء من الاملاك والاراضي وليس منهم فيها اكثر من ستين الفاً اكثر من نصفهم مستعرب ، وان تقاليدهم واحوالهم وتصرفاتهم وتحرشاتهم تجعلنا على يقين واعتراضاتهم تثبت لنا درجة النية التي ينوونها ضد البلاد فهم ولا شك اذا كثروا حاولوا اطفاء اللغة العربية ونشر القومية العبرانية وتبسطوا في البلاد شيئاً بعد شيء واصبحوا خطراً كبيراً على بلادنا العربية من حيث الاقتصاد ومن حيث القومية ومن حيث الكيان السياسي الامر الذي يجعلنا نرفض رفضاً باتاً

ما يطالبون به من جعل القسم الجنوبي من البلاد السورية وطناً قومياً او محل هجرة لهم ، وكذلك نتلقى ان قبول مبدأهم الذي يرمي الى تجمع امة دينية مبعثرة في جميع انحاء الارض معروفة بتصرفاتها وتقاليدها وتمكينها من بلادنا السورية هو عمل في اشد درجات الاجحاف لبلادنا ولشعبنا لا نرضى به بحال من الاحوال لاننا نعتبرهم خطراً شديداً جداً على البلاد العربية عامة وسورية خاصة .

هذا واننا ننظر الى اليهود الوطنيين الموجودين في بلادنا قبل الحرب نظر الوطني الذي له من الحقوق والاعتبارات ما لنا وعليه ما علينا ، وستكون حقوقه محفوظة محترمة كما شرحنا ذلك في البحث عن حقوق الاقليات في تقريرنا الاول .

الكاتب العام
لحزب الاستقلال العربي في سوريا
توفيق الناطور



صورة رسالة

نشرها اسكندر بك عمون على لبنانى القطر المصرى يستفيد
.من مطالعتها الشعب اللبنانى كل ما يجهله من امر مستقبله





الى اخوانى اللبنانيين فى القطر المصرى :

١ ـ وقع خبر استعفائى من رئاسة الاتحاد اللبنانى موقع الاستغراب عند الذين لم يعرفوا سببه من اللبنانيين فاروا فى تعليله ورأى خصومنا السياسيون الفرصة مناسبة للدسيسة فانتهزوها وارادوا ان استعفائى سببه خلاف وقع بينى وبين اخوانى اعضاء اللجنة على مسألة مصير لبنان يريدون بذلك القاء بذور الشقاق بيننا وتفريق كلمتنا فوجب على أن افضح امرهم بهذه الرسالة ليكون اللبنانيون منهم على حذر فلا يخدعوا باكاذيبهم ولا يؤخذوا بدسائسهم .

٢ ـ مضى على تأسيس جمعية الاتحاد اللبنانى ثمانى سنوات قضيتها فى جهاد دائم وعمل متواصل فخدمت لبنان خدمات جليلة عرف اللبنانيون بعضها وسيعرفون البعض الاخر فى الوقت المناسب ولقد كان عملنا الى ما قبل الحرب منحصراً اذ كانت حالة السلم تسمح به من دفاع عن امتيازات مهددة ومطالبة برد اراضى مسلوبة وحقوق مغصوبة فلما دخلت تركيا الحرب علمنا انها بعملها هذا قضت على نفسها بالزوال فحينئذ وجهت الجمعية اهتمامها الى ما سيكون من امر لبنان بعد ان تزول عنه سيادة تلك الدولة الغاصبة ليفوز بالاستقلال التام المطلق بعد استقلاله الادارى المقيد وينزع عنه ثوب الذل والصغار ام يبقى محروماً من هذا الحق خافضاً جناحه لكل راغب جانياً ظهره لكل راكب أنال الحرية التى يتمتع بها زوجها التى ...

لا يقل كفاءة ولياقة عن ادارة شؤونه بيده الحرة ابى الشعب ان يضعها في يده لامر غيره أيكون له حق الاهلية للتصرف في شؤونه ام يقال شعوباً تابعة كالولد القاصر او الرجل السفيه وضعنا هذه الاسئلة ولم نكن لنختلف في الجواب عليها ساعدنا الله على السعي لتحقيق امنية لبنان الكبرى وبينما نحن نعمل في هذا السبيل والامل ملء قلوبنا والمحالفة الغاية تشدد عزائمنا جاءت تصريحات دول الحلفاء عن اغراضها من الحرب منطبقة على رغائبنا اذ قررت تحرير الشعوب المستعبدة بالحكم التركي كبيرها وصغيرها وترك الخيار لها في تعيين مصيرها فاصبح بذلك امرنا بيدنا ان شئنا كنا احراراً وان شئنا بقينا عبيداً ثم دخلت اميركا ولا غاية لها منها الا تأييد مبادئ الحق ودفع الاعتداء على حرية الشعوب وحدث الانقلاب الروسي فجاء الحكم الجديد تتجلى فيه روح الديموقراطيه بابهى مظاهرها واوسع معانيها فكان لنا من هذين الحادثين ضمانة لمستقبلنا وايه ضمانة بعد التصريحات السابقة .

٣ ــ وبينما تلك الحوادث تجري مسوقة بيد الاقدار كانت حكومة الاستانة تعمل لابادة العناصر غير التركيه الخاضعه لحكمها الجائر مستعينة بالسيف والنار والمشنقه وبالمجاعات تدبرها وتنظمها وبالامراض تهيئ اسبابها فاودت بحياة مئات الالوف من اولئك التعساء وتركت الباقين منهم في حالة هم فيها اقرب الى الموت منهم الى الحياة فاثار عملها هذا

ثائرة الغضب في كل نفس كريمة واضاع كل حبة لها في استبقاء هذه العناصر تحت حكمها حتى ولو حصل الصلح اليوم قبل فتح بلادها وكان من النتائج العاجلة لهذا الجور ان نادى امير مكة بالاستقلال وجرد سيفه في وجه تركيا انتقاما للدماء البريئة ودفعاً للمظالم المستمرة فعرفته دول الحلفاء ملكاً للحجاز وستعرفه قريباً ملكاً للشام والعراق وهو اليوم قد دخلت جيوشه ارض سورية والاهلون يستقبلونه فيها كما يستقبل المنقذ الكريم .

٤ — ولقد اعرب لنا جلالة الملك عن ارتياحه لاستقلال لبنان استقلالاً تاما عملا برغبة اهله التي ابلغناها لجلالته ولانه انما يريد تحرير الشعوب لا استعبادها جارياً في ذلك على المبدأ الذي اعلنته دول الحلفاء .

٥ — لم يبق اذن للبنانيين الا ان يعلنوا رغبتهم ليكون لهم ما يريدون .

٦ — ولكن ان كان اللبنانيون يريدون الاستقلال فالحزب الاستعماري الفرنساوي لا يريده لهم اقول الحزب الاستعماري الفرنساوي ولا اقول الامة الفرنساوية الكريمة هذا الحزب كامثاله في البلاد الاخرى لا يطلب الا مصلحته ولا ينظر الا اليها فيضحي في سبيلها كل مبدأ شريف ويدوس كل حق مقدس فهو اليوم وحده يقاومنا في امنيتنا والعالم كله معنا والشعب الفرنساوي جله في جانبنا .

٧ ـ اما السلاح الذي يقاومنا به وهو سلاحه الوحيد فهو السعي لاستمالتنا اليه بكل وسائل الخداع لانه يعلم علم اليقين ان الدول لا تريد المزاح بتصريحاتها وان مصير لبنان لا يكون الا كما يريده اللبنانيون فهو من جهة يسعى الى تفريق كلمتنا ويحاول اقناعنا بان مصير لبنان مقرر بين الدول على وجه بات لا يقبل النقض يريد بذلك تثبيط همتنا والقاء اليأس في قلوبنا ومن الجهة الاخرى يقول للعالم ان اللبنانيين لا يريدون الا سيادة فرنسا حتى اذا خدع العالم بقوله صحت له الحجة بالتسلط علينا . وقد استمال رجال هذا الحزب باشخاص قلائل من الشرقيين اكثرهم غرباء عن لبنان او مشكوك في اصلهم فهؤلاء يعملون اليوم على القاء بذور الشقاق بيننا والذي اذاعوه عن سبب استعفائي من رئاسة الاتحاد اللبناني انما هو لتلك الغاية على ان الاتحاد اللبناني واقف في وجههم يعمل عمله مطمئنا يؤيده فيه جمهور اللبنانيين في جميع انحاء المعمور .

٨ ـ اما سبب استعفائي فهو ان الحكومة العربية رشحتني لمنصب سام يستدعي انتقالي من مصر وذلك بعد الاتفاق على استقلال لبنان استقلالاً تاما فرأى اخواني اعضاء اللجنة ان وجودي في مثل هذا المنصب يوسع لي مجال العمل لخدمة لبنان في امنيته الكبرى فاتخذ خصومنا هذا الترشيح وذلك الاستعفاء وسيلة للدسيسة وقالوا همساً

ان ذلك المنصب السامي ثمن للبنان بثمنه به . قالوا ذلك بغي وهم الساعون ليلهم ونهارهم لوضع الحبل في رقبة لبنان . وانا المجاهر باستقلاله والعامل ربه ووطنه عليه وهذا كتاب الاستعفاء وجواب لجنة الاتحاد اللبناني عليه اعظم شاهد على كذبهم وافترائهم .

٩ ـ على اننا اذا اهملنا الافتراء من كلام خصومي تبقى امامنا حقيقه اوانقسم عليها واستوثقهم عندها وهي ان العمل لوضع لبنان تحت سيادة ايه دولة كانت خيانة وطنية من اللبنانيين وجناية كبرى من الاجنبي واسأل العالم ان يصدر حكمه على المرتكب هذه الخيانة منا .

١٠ ـ يقول هؤلاء الضلال انهم لا يريدون استعباد لبنان وانما يريدون له الاستقلال الاداري فهل يحسبون ان الاستعباد لا يكون الا مع ضرب العصا وأليس من العبودية ان نكون في ارضنا وبيوتنا تحت سلطة الغريب .

١١ ـ ويقولون ان طلبنا الاستقلال عمل عدواني ضد فرنسا وهم في هذا ايضا غير صادقين لاننا على صداقة فرنسا مقيمون ويحبها مجاهرون ومنها نفسها نطلب الاستقلال كما نطلبه من سائر دول العالم ونحن نعتقد ان الامة الفرنساوية الكريمة التي تعطف علينا بقدر ما نحبها لا تريد لنا الا ما نريده لانفسنا واما الذين يريدون ان يقابلوا محبتنا لفرنسا بحرماننا من اعز امانينا فانما هم رجال حزب الاستعباد

وهؤلاء ليسوا باصدقائنا ولا هم مخلصون في حبنا ولنا من اقوال كتابهم الف شاهد على ما نقول .

١٢ — ويقولون ان لبنان غير قادر على حكم نفسه مستقلاً فنجيبهم ان دولة فرنسا كانت تراه اهلاً للاستقلال منذ ستين سنة يوم كانت تطلبه له في المؤتمر الذي وضع نظامه الحالي بعد حوادث سنة ١٨٦٠ فهل تأخرنا عما كنا عليه في ذلك العصر المشؤوم . وألم تكن ممالك البلقان حين استقلالها دون لبنان في الحضارة والرقي فرفعها الاستقلال الى المنزلة التي نراها فيها فما هي الحجة التي يحتجون بها فاما ان كانت في الاختلافات الطائفية فهذه قد زالت بحمد الله وها هم اخواننا الدروز وسائر المحمديين يبسطون للمسيحيين أيديهم يصافحونهم بقلوب ملؤها الاخلاص والاطمئنان مشتركين معهم في عواطفهم الشريفة وهم وحدهم الذين قد يكون لهم بعض العذر لو وقفوا موقف الحذر . واما ان كانت في الرجال الاكفاء فالذين مثل شقير واديب وصروف وحماده وباخوس وباباز اوغلى ومشاقه يصلحون لان تألف منهم وزارة محترمة في دولة من دول اوروبا الراقية ولست اذكر الشبان الذين يلونهم ولا يقلون عنهم فضلاً وكفاءة هذا غير من في سائر بلاد المهجر وفي الوطن نفسه فليتق الله المعارضون او او يلتمسوا حجة غير هذه على أننا اذا احتجنا الى بعض الاختصاصيين

فى شىء من العلوم او الصنائع فلا اسهل من استخدامه من فرنسا او غير فرنسا فيحل عندنا على الرحب والسعة ولكنه يكون موظفاً مكرماً لا سيداً آمراً ناهياً .

١٣ ــ ثم لو تبصر اولئك النفر قليلاً وكانوا ممن يعقلون لعلموا ان سعيهم لحرمان لبنان من الاستقلال يضر لبنان لو نجحوا فيه ولا يبلغهم امانيهم لانه اذا تقرر وضع لبنان تحت سيادة دولة من الدول فاولى الدول بتلك السيادة هى الدولة العربية نعم ان ملك العرب قد رضى باستقلال لبنان ولكنه لم يرض ولن يرضى بجعله تحت سيادة دولة اوروبية وحجته اقوى من حجة غيره لان لبنان اشبه بقلعة فى وسط ملكه تحيط به ارض سوريا من جهاته الثلاث ومياه سوريا من الجهة الرابعة فلا يجوز فى حكم السياسة ان يكون بيد دولة قويه وقد علمنا ان رجال السياسة ينظرون فى تعيين حدود كل دولة الى سلامة املاكها هذا فضلا عن روابط الاصل واللغة واشتراك المرافق واتصال الارض واختلاط الشعب ولان لبنان منذ الف سنة لم يخرج قط عن سيادة الدول الحاكمة فى سوريا فان قالوا ان للبنان استقلالاً ادارياً قديماً قالت الدولة العربية نعم وانا اقره على هذا الاستقلال الادارى بل ازيده توسعاً وسلطة فبماذا يجيبون ؟ .

١٤ ــ هذا كل ما عند خصومنا الا اذا زعموا ان تصريحات الدول

خداع او مزاح وان دماء الملايين من البشر التي تسفك اليوم تنقل الشعوب من رق غاصب الى رق غاصب آخر .

١٥ — فيا اخواني اللبنانيين لا يوجد اليوم حجة تقوم في وجه استقلالكم التام اذا عرف العالم انكم تريدونه واعلموا ان حزب الاستعمار هو عدوكم الوحيد ولكنه عاجز نحوكم الا اذا داوتموه انتم على انفسكم فاظهروا رغبتكم واجهروا برأيكم واعلموا ان اخوانكم في الاقطار الاميركية وسائر بلاد المهجر كلهم على صوت واحد يطلب الاستقلال فلا تكونوا دونهم في شرف الاخلاق فتخجلوهم بضعف نفوسكم .

١٦ — ان خصومكم ايها اللبنانيون اشخاص قلائل بين مخادع ومخدوع وهم لا شيء في جانب مجموعكم ولكنهم يكثرون من الضجة ليوهموا العالم ان عددهم كبير فلا تغرنكم جلبتهم واعلموا ان عملهم هذا ناشئ عن شعورهم بضعفهم .

الفرصة ايها اللبنانيون عزيزة جاد بها الدهر مرة بعد مئات من السنين وقد لا يعرض مثلها الى مئات كثيرة اليوم تتقرر حالة الشعوب الصغرى نهائياً فالذي منها يختار نوع الخضوع يلبسه الى الابد والذي يختار الحرية والاستقلال يعيش حراً الى الابد .

تصوروا حالة لبنان ايها اللبنانيون يسوده الغريب فيأمر صاحب

البت بامره وينهى بنهيه فتكون داره محوراً للدسائس ومظهراً للمنافسة يتسابق سراة اللبنانيين بعلية الحال الى ابوابها للتزلف الى صاحبها لا يروم الواحد منهم الا التقدم على نده كما كانت الحال تحت سيادة الترك وانظروا ما يكون من وراء ذلك من ضياع المصلحة العمومية وانتم فوق ذلك محقرون لانكم انكرتم وطنكم وسلختم انفسكم من قوميتكم وسلمتم الغريب قيادكم .

١٨ — تأملوا هذه الصورة صورة الذل والصغار واعلموا انكم اليها منتهون اذا ضعفت نفوسكم عن طلب الاستقلال .

١٩ — وتصوروا من الجهة الاخرى لبنان حراً يتولى ابناؤه شؤونه وقد خلصوا من العيوب التي اوجدها فيهم نظامه القديم الفاسد فلا مساعي دنيئة ولا منافرات دينية ولا نعرات طائفية ولا جامعة الا الاخاء اللبناني انظروا كيف يكون لبنان وقد استرد اراضيه المغصوبة وعادت اليه موانيه ومجاركه وبوستته وتلغرافه وزادت ايراداته عشرة اضعافا او اكثر وقامت حكومته الوطنية بما يجب عليها من تعضيد الصناعة المحلية وحمايتها واستخراج كنوز الارض من مناجمها وايجاد اسباب العمل لكل عاطل وتحريش القمم الجرداء وتسهيل سبل المواصلات الى كل قرية فيصبح لبنان من سفحه الى اعلى قمة فيه جنة غناء او زمردة خضراء يؤمه في كل صيف

عشرات الالوف من مشارق الارض ومغاربها يتمتعون بطيب هوائه وبرد مائه . انظروا الى ابنائكم كيف يكونون واي شأو من الرقي يبلغون متى انشأت لهم حكومتكم المدارس العالية من علمية وصناعية واللبنانيون اكثر الشعوب استعداداً للعلم والرقي كما تشهد لهم حالتهم الحاضرة على الرغم من الموانع والحواجز القائمة في وجوههم اذن لا يقابل اللبناني الا بالاجلال والاحترام اينما حل وحيثما رحل .

بيدكم ايها اللبنانيون امر مصيركم فاختاروا من هاتين الصورتين احبهما اليكم اما انا فافضل ان اكون شيخ قرية في لبنان ولبنان حر على ان اكون اميراً فيه تحت سيادة الغريب او وزيراً في بلاد اخرى.

اخوكم

اسكندر عمون

سوريا للسوريين

كتاب سياسي اجتماعي تاريخي

بقلم مسلم



ثمن النسخة الواحدة ١٥ غرشاً سورياً

طبع في بيروت سنة ١٣٣٩ هـ

سوريا للسوريين

تقدمة الكتاب

الى الشبيبة السورية انعاقله المفكرة اقدم كتابي . لا اتطلب من اجله اجراً وليس لي من ورائه غاية .

امالي تقف عند حد واحد وهي ان ارى هذه الشبيبة تتململ من امور جرت في البلاد وجرّت البلاد ربع قرن الى الوراء . فالتململ دليل الحركة والحركة دليل الحياة والحياة في الشبيبة السورية هي كل ما تتطلبه سورية من بنيها

« مسلم »



[illegible]

[illegible] سوريا [illegible]

[illegible]

[illegible] سوريا [illegible]

[illegible]

[illegible] من سوريا [illegible]

[illegible]

[illegible] البناء

[illegible] سوريا [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

اما اسباب المهاجرة فهي وقوف دولاب العمل . ودولاب العمل اوقفته حرب العصابات التي سطت على القرى الآمنة فقتلت الرجال واحرقت البيوت ونهبت الماشية واتلفت المواسم . وكانت هذه الاعمال البربرية وبالاً على سوريا الجريحة ففقد منها الامن والامن روح العمل وبتوقف العمل فرغت الجيوب ولما خاف السكان ان يموتوا جوعاً بدأوا ينزحون بالآحاد ثم بالعشرات ثم بالمئات

ما خلق الله مصيبة اشد وقعاً على الناس من الحروب والحرب نوعان حرب نظامية وحرب غير نظامية ففي الاولى يقف الخصمان وقد اخذا العدة لنفسيهما فيتحاربان وجهاً لوجه . فمن كان اوفر عدة واكثر دربة واعظم جلداً ظافر بخصمه . وفي اثناء هذا العراك يخضع الخصمان لنظام دولي واحد وهذا النظام يحفظ حقوق المدن الآمنة وحقوق الضعفاء من غير المحاربين كالشيوخ والنساء والاطفال .

اما الحرب غير النظامية اي حرب العصابات فلا تتبع نظاماً ولا عهداً .

والخصمان في هذه الحرب لا يقفان وجهاً لوجه بل يغافل احدهما الآخر بان ينزل على القرى المطمئنة الخالية من الجند وينهب ويقتل ثم يرجع من حيث اتى حافظاً لنفسه خط الرجعة وحق اعادة الكرة

هذه هي الصورة المصغرة للحالة التي اصبحت فيها سوريا بعد ان صبرت الاجيال الطويلة منتظرة الخلاص .

فمن أين أتت هذه الحالة و كيف انبعثت هذه البلاد الآمنة حيناً للزوابع العارضة وبركاناً يقذف فيه الرصاص والبارود ؟

منذ وجد التاريخ الى اليوم وسوريا جسر يعبر عليه الفاتحون من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب . وما ذكر التاريخ مرة ان اهل سوريا قاموا يوماً بوجه هؤلاء مثلما كانت هذه الحالة . فمن أين جاء هؤلاء الثوار وهؤلاء المقاومون ؟ من اين جاءت السوريين روح الثورة هذه وهم الذين قضوا سني الحرب جائعين منفيين مهددين بالموت عنهم وما قام فيهم رجل واحد تجاسر ان يهمس كلمة واحدة ضد جمال باشا ؟

يقول الذين يريدون سوريا لهم انهم يرغبون في حياة الحرية والاستقلال . من الذي يهدد استقلال البلاد ؟ . اين هو هذا الذي يهدد استقلال البلاد ؟ واذا كانت غيرتهم تأكلهم الى هذه الدرجة فلماذا لم يظهروها بعد الحرب ؟ لماذا لم يظهروا اصواتهم طيلة مدة الاربع سنوات ؟ لماذا لم يستعملوا نفوذهم الزعيم امام ولية نعمتهم الدولة فلماذا كانت تعصر ايام عذاب السوريين ؟

يقول هؤلاء ايضاً انهم يحنقون على البلاد من سوء الادارة الفرنسية ... لقد بدأوا منذ اول عهد هذه الادارة بالمقاومة وبسياسة العداء . فماذا رأوا من حسنات هذه الادارة وسيئاتها ؟

لقد شهدوا الادارة التركية مئات السنين وما عرفوا أن ينظموا ثورة واحدة فاي ظلم لحق بهم وما هي كيفية وكمية هذا الظلم الذي حملهم ان

يثيروا حرب العصابات ولن ينجحوا بتقرير مصيرهم لأنفسهم

كي ؟ لقد سقط الكيان الفيصلي . فسوريا اليوم بالة قطن تباع وتشرى وليس سوريا الا مستعمرات تقاسم رجال حكومتها سياسة المنافسة والنفوذ وشبيبة سوريا الناهضة الذهبية الخالية تريد هذا لتنقض يوماً واحداً تقض الراحة هذه الشبيبة تريد ان تسير في على الطريق الذي سار عليه الراقون هذه الشبيبة تريد من عملاء وحكومة السياسة الاشعبية ان يضعوا حداً لشرورهم فقد اصبح مستقبل البلاد في يد شبابها المتيمين فيها وليس في أيدي المبعدين عن ابنائها

وفي الفصول التالية كشف النقاب عن حوادث سوريا العجيبة وهي حوادث تنم عنها الحجارة الصامتة . وليس قصدي تقديمها لاهل البلاد بهم يعرفونها . بل قصدي طبعها ونشرها لتظل اثراً خالداً يذكر السوريين بالمسيئين اليهم ما بقيت سوريا وبقي سوريون

فضيحة الفضائح

هكذا سمت احدى امهات الجرائد الانكليزية المسألة السورية ولقد نشرت هذه الجريدة رجاء الى حكومتها بتقرير مصير سوريا وقالت فيما قالته :

« لقد حان ان تنتهي المسألة السورية التي اصبحت فضيحة الفضائح اذا كان البريطانيون انفسهم يسمونها « فضيحة » فماذا عسانا ان نسميها نحن ؟

ماذا عسانا ان نقول وقد سلبت منا قضيتنا واعطيت سوانا ؟

ماذا نقول عن قضيتنا السورية التي نشأت في ادمغة بني بلادنا فذاقوا لاجلها الجوع والنفي والصلب ، ورمى الالوف نفوسهم في بركان الساحة الغربية حباً بتخليص سوريا ولبنان ، فاذا بدولة قوية تستلم قضيتهم فتلبسها ثوباً بدوياً وتسلمها غنيمة باردة لسكان الصحراء ؟

دخلت تركيا في الحرب واصبحت من اعداء دول الائتلاف وحليفة لالمانيا . كان على المانيا ان تكسر الفرنساويين في الساحة الغربية وعلى تركيا ان تسلب مصر من يد سلطانة البحار فتقطع عليها طريق الهند

فحتم على انكلترا ان تدافع عن مستعمراتها وتعرضت لمحاربة سلطان الاتراك . وسلطان الاتراك هو الرئيس الديني لعشرات الملايين من سكان مستعمراتها الحاليين

وخطر في بال الانكليز خاطر هائل بان اوقدوا ثورة وهياجا في الحجاز وأقاموا على رأس هذه الثورة امير الحجاز آ نذاك الحسين بن علي ثم نشروا المنشورات في مشارق الارض ومغاربها يحثون فيها المسلمين بمبايعة الحسين بعد خلع نير الخليفة التركي

ولكي يكمل فصل الرواية البس الحسين ثوب الخلافة ! وما كانت الغيرة تأكل من قلبه على الخلافة بالضبط ولم يرض على اهل الحجاز سير هذا الخليفة جيشه لتحرير سوريا وفلسطين من النير التركي ايضا ! وحدثت اعجوبة كبيرة وهي ان السماء اخذت تمطر المطبوعات والمنشورات وكلها تبشر السوريين بقرب قدوم ابن الخليفة على رأس جيوش ابيه المظفرة .

وهكذا تم لانكلترا ما تريد . ولعبت من وراء الستار لعبة هائلة سيذكرها لها الشرقيون ...

اما الخدمة التي اداها الحسين لانكلترا فكبيرة جدا . اذ ان الاتراك بعد ان كانوا هاجمين على الترعة اصبحوا مدافعين فالفيلق الثامن التركي اشغل بتمامه لاجل المحافظة على خط الحجاز من اعمال العصابات والفيلق

الرابع وما تبعه بعد ذلك من الحوادث الأثانية وقضى بضياع في نواحي ...
وبتر الشيخ عن سوريا وفلسطين وفيت مصر ؟ وقضت المعاهدة بتقسيم
العالم الاسلامي شطرين . شطر ولى وجهه عاصمة السلاطين وشطر تبع
الخلافة الجديدة الذي اقامته انكلترا في مكة . . .

وبقدر ما كانت الخدمة كبيرة وجسيمة . كانت المكافأة ضخمة !!
فارتأت انكلترا ان تكافئ الحسين بان تجعل ابنه ملكا على سوريا ولكي
تنطلي الحيلة الى النهاية افهمت حول فيصل دائرة من الدعاة الكاذبة اوهموا
الناس انه بطل سوريا ، ومخلص سوريا ورافع لواء الاستقلال على
سوريا !!!

. . . . .

من الحقائق المسلم بها ان الشرق بكامله سوف تعرض فيه البضائع
الاوروبية وتؤخذ منه الحاصلات الشرقية الى اوربا على قاعدة تبادل
المنفعة . ومن جملة هذه الحقائق ان اوربا لا تتألف من دولة واحدة بل
من دول عديدة كلها تريد مكانها تحت الشمس . ولكن انكلترا لا تريد
مكانا لاحد تحت الشمس

يقولون ان هذه سنة تنازع البقاء . وان شريعة (الحق للقوة) لاتزال
تسود العالم . نحن نسلم ان للقوي الحق ان يدافع عن كيانه . كذلك
يدافع الضعيف ايضاً ونحن عملا بهذه القاعدة نريد ان ندافع ، ونريد
ان نحيا ونريد ان نعلم الارض قاطبة اننا لن نسمح بعد الان للدسائس

السياسية ان تحكم في ارقابنا وتسلبنا الحياة

• • • • • •

انكلترا تعارض الانتداب الفرنسوي في سوريا، خوفاً على الهند وعلى مصر وعلى نفوذها بين المسلمين . اذا كان ذلك حقاً من حقوق انكلترا فنحن لنا الحق ايضاً بان نرفع اصواتنا ونقول لهذه الدولة الفخمة ان سوريا لا تريد ان تكون حطباً ودخانا . اذا كان بين انكلترا و بين فرنسا منافسة على سوريا فالأولى بالاولى ان تثير حرباً على الثانية ومن ظفر من الاثنين نال الانتداب ولكن فرنسا حليفة والمنطق لا يسلم بمحاربة الحليفة ! اذاً يجب على السوريين ان يحاربوا الفرنسويين ولو بدون سلاح !

وهكذا ارادت السياسة ان تتلاعب بامة ضعيفة جريحة ، مسكينة ، فملئت البلاد باخبار الثورة كالمرجل ، وانتشرت المطبوعات الكاذبة في مصر واوربا ان سوريا في حروب مع الافرنسيين ! ولكن ظهرت الحقيقة اخيراً وظهر ان الفئة الثائرة في سوريا ليست من السوريين بل هي قبائل تأتمر بامر من اغتصب لنفسه الامر !

ودخل الافرنسيون الشام والهدوء شامل كامل . اما الشعب الذي صورته الجرائد والمطبوعات هائجاً ثائراً منادياً « الى الدفاع الى الدفاع » فلم يظهر اثر لثورته . ذلك لان زعماء الثوار كان بعضهم يكتبون المقالات المهيجة ماجورين فحملوا اوراقهم وهربوا يسترزقون في محل اخر والبعض هرباء بجعبتهم السياسة حول عرش الامير فلما ذهب الامير الى اوربا بالدافع

عن قضيته رجعوا الى الصحراء واخذوا يحرضون القبائل على منازلة القرى المتزلة

وها هم بالامس قد هاجموا قطاراً يقل رجالاً من اشرف العائلات الدمشقية فذبحوهم ومثلوا بهم تمثيلاً فظيعاً بعد ان اوقدوا جذوة الثورة في حوران فكان من نتائجها وقوف الحال من جديد وانشغال الخطوط الحديدية بنقل المدافع بدل نقل الحبوب والاقوات

كل هذا يجري اكراماً لسياسة الحجازية وانتصاراً للامير فيصل الذي ينام الآن ملء جفونه بينما دعاته ابناء الصحراء يمارسون المهنة التي عاشوا عليها منذ وجدوا وهي نهب القوافل وقتل ابناء السبيل

ان هذه الامور تتبرأ منها الانسانية والمدنية . يظن دعاة الامير انهم بهذه الحركات يقلقون سوريا فتسلم لهم وتفتح ابوابها لجماعتهم من جديد وقد غاب عنهم ان المذابح التي اجروها في سوريا وصمتهم الى الابد بوصمة عار لا تمحى فافهمت الاوروبيين المبلغ الذي وصلوا اليه من الرقي وارت السوريين اخلاص الامير فيصل لهم وكيف انه يدوس على اجسادهم ويخوض بدمائهم رغبة في ارضاء الذين ولوه وتوجوه

ابطال الدعوة السورية الحقيقيون

قالوا ان الامير فيصلا هو بطل الدعوة السوريه · وايدوا قولهم بان اغتنموا فرصة انشغال الارض كافة بحرب طاحنة والتهاء السوريين المقيمين في بلادهم بمصائبهم المحليه فتناولوا القضية السوريه بيد من حديد وتمكنوا بما لهم من المال والنفوذ ان يجمعوا حولهم طائفة من الشبان آخذاً بعضهم بناصية بعض ورمى البعض هؤلاء الساسة على تمثيل رواية بدأت بالضحك وانتهت بالبكاء ·

ثم جعلوا على رأس هذه الطائفة الامير فيصلا وقالوا للناس هـذا بطل الدعوة السورية · وخلطوا بين هذه الدعوة و بين الدعوة العربيه فربحوا دعاة الدعوتين

اما الدعوة العربيه فليس من غاية هذا الكتاب البحث فيها ؛ فهي قضية متشعبة مبهمة ظهرت في قالب ولبست قالباً آخر · ولقد كانت في الاصل فكرة اصلاحيه نشأت في رؤوس بعض نواب العرب في

المجلس العثماني النافرين من سوء الادارة التركية . وهؤلاء الذين انفسهم لم يأتوا ببدعة من البدع فرددوا صدى النهضة التي قام بها اصحاب فكرة اللامركزية من السوريين كالسيد الكواكبي والعظم والزهراوي وغيرهم .

نشأت فكرة الاصلاح في الولايات العثمانية غير التركية ثم تطورت بحسب الزمان والمكان والغف دعاتها الجمعيات المختلفة فكان منها الجمعيات الاصلاحية المعتدلة ذات القوانين السهلة التنفيذ والتطبيق وكان منها الجمعيات الثورية غير المعقولة

فالجمعيات الثورية ارادت استقلال العرب عن الاتراك وتأليف دولة عربية قوية وتعارف بعضهم فقال بنقل الخلافة من الاستانة الى مكة . على ان عقلاء السوريين رأوا خطأ هذه الفكرة التي لا يمكن ان تتحقق فقالوا بمبدأ الاصلاح ثم بمبدأ اللامركزية ضمن النفوذ التركي الا اذا اصرت الدولة العثمانية على رفض مطاليب الحزب اللامركزي .

واثباتاً لقولنا هذا ننشر حديثاً دار بين محرر جريدة العلان و بين السيد الزهراوي رئيس المؤتمر الذي عقد في باريس عام ١٩١٣ فيرى القراء ان فكرة الانفصال عن الدولة التركية وتأليف سلطنة الحجاز ما خطرت في بال الاحرار السوريين مطلقاً فالسلطنة الحجازية والامبراطورية العربية فكرتان حديثتان اوجدتها السياسة الانكليزية في بدء الحرب العمومية خدمة لمصالحها الشخصية ليس الا

قال السيد الزهراوي [١] :

« كان يحق للحكومة العثمانية ان يتكدر خاطرها لو اننا طالبنا الانفصال عنها مثلاً اما الآن فنريد عكس ذلك ومطالبنا منها مطالب حق تؤول الى تحسين حال الدولة والعنصر العربي معاً

المحرر — وهل انتم تريدون تأييد الوحدة السياسية العثمانية لاجل الرابطة الدينية ؟

فاجاب الزهراوي بعد ان تكلم عن الرابطة الدينية « نحن لا نتمسك بالوحدة السياسية لاجل الرابطة الدينية . بل رغبة منا في ايجاد مجموع عثماني قوي يرتقي فيه مجموعنا العربي بدون حائل يقف في طريقه واملاً بقيام حكومة رشيدة تكون لنا مشاركة في امورها . والدولة العثمانية هي التي تقدر ان تحقق رغباتنا اذا هي عملت بلوازم الاصلاح الذي نحن مصرون على طلبه »

****

وفي اثناء اجتماع المؤتمر في باريس نشر شارل افندي دباس احد كتبة المؤتمر بياناً مفصلاً عن اعمال المجتمعين . والبيان المذكور ظهر في مجلة الكورسبنداس دوريان في ١ تموز سنة ١٩١٣

ومن هذا البيان المواد الآتية :

---

(١) هذا الحديث نشرته جريدة الطان في ٠ احزيران سنة ١٩١٣ وذكره خير الله افندي خير الله في كتابه معضلة الشرق لمربب عارف افندي النكدي صفحة ٥٠

(٢) من اللازم ان يكون مضموناً للعرب ان يتمتعوا بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في الادارة المركزية اشتراكاً فعلياً

(٣) يجب ان تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لامركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها»(١)

****

يرى القارئ مما تقدم ان فكرة الاصلاح واللامركزية نشأت بين السوريين دون سواهم ، وان السوريين ما فكروا بالانفصال عن الخلافة العثمانية وتسليم بلادهم الى الحجاز بين ! انهم ارادوا الاصلاح ضمن السلطنة العثمانية فاذا كانت الحرب العمومية غيرت الخارطة الارضية فمن الحيف على السوريين ان يتهموا عن تركيا بضموا الى الحجاز !

****

هذا وفكرة الاصلاح والمساواة بين العناصر نشأت في ادمغة السوريين قبل انعقاد مؤتمر باريس بعدة سنوات . فقد نشرت جريدة الظاهر في ٥ نيسان سنة ١٩١٠ كتاباً من السوري الشهير شكري افندي غانم جاء فيه :

«لم يهتم الترك منذ استولوا على السلطنة العربية والخلافة بالتفاهم مع العناصر التي يحكمونها ولا سيما العنصر العربي وقد جعل هذا العنصر بعد ثورة سنة ١٩٠٨ يشكو من سوء ما يعامل به»

---

(١) معضلة الشرق صفحة ٥٤

* * *

نريد ان نستخلص من كل هذا ان حركة الاصلاح في سوريا بعيدة عن الانكليز بعيدة عن ايديهم فبينما كان السوريون يتخبطون في بلادهم وفي ارض غربتهم لاجل الاصلاح كان الامير فيصل في الصحراء يحارب الامام الادريسي الذي كان يطالب الدولة العثمانية بالاستقلال. كان يحارب تحت الراية العثمانية وكان يجاهر بالعداوة لكل من ينقسم عن الخلافة العثمانية وكان يوزع على الناس البلاغات المهيجة ضد السياسة الانكليزية التي ترمي الى تقسيم البلاد الاسلامية !!!

* * *

وهذه صفحة من تاريخ الامير فيصل قبل الحرب يوم كان يحارب الادريسي اخذناها عن مجلة المشرق — السنة الثامنة عشرة — عدد حزيران صفحة ٤٩٢ :



حملة عزت باشا وامير مكة[1]

علي عسير

واستمر الحصار عشرة اشهر الى ان عهدت الدولة الى عزت باشا والى امير مكة (سلطانها الحالي) حسين باشا بانقاذ المحاصرين وقطع دابر الادريسي فتوجهت بجوعهم المركبة من العساكر النظامية ومن الاشراف والعرب وكان مع امير مكة نجلاه الاميران عبدالله وفيصل فتوغلوا في جهات تهامة وعسير في ربيع ١٩١١ وزحفوا ظافرين الى ابها وافرجوا عن عساكر الدولة . اما الادريسي ففر من وجههم الى داخل البلاد

وقد قرأنا خطبة دولة الامير حسين يوم دخوله الى أبها وفي نصها الشائق عبرة للمعتبرين وهو الذي شق بعد ذلك عصا الاتراك فها نحن نوردها بحرفها الواحد كما رواها احد اشراف مكة عبد المحسن البركاتي في تاريخ هذه الحملة ليرى القراء تقلب الناس في سياستهم واستنادهم الى الدين حسب غاياتهم (اطلب كتاب « الرحلة » اليمنية صفحة ٤٣) :

ايها الاخوان . اعلموا علم اليقين انه لولا هذه الدولة العثمانية وشدة اعتناء خلفائها بالامة الاسلامية خصوصاً مولانا امير المؤمنين الحالي

---

(١) مجلة المشرق السنة الثامنة عشرة عدد حزيران صفحة ٤٢٧

لاختطفتكم الدول الاجنبية اختطاف الذئاب للغنم المنفردة (كذا !)
فان جميع الدول ساعية منذ زمن بعيد في اضمحلال الشريعة المحمدية
بواسطة هؤلاء المغرورين الذين يخدمونها لاغراضهم الشخصية « كذا ! »

اخواني هل يرضيكم افعال هؤلاء القوم الساعين في تخريب بلادكم
باسم الحق ولا ادري كيف اغتررتم لهؤلاء ولامثالهم وانتم اولو العقول
الراجحة والنخوة العربية الاصلية

اباؤكم الاولون كانوا عز العرب وعنهم ورثتم الهمم العالية السنم ابناء
التبابع ؟ الستم الذين قال فيكم جدي رسول الله صلعم : العلم يمان والحكمة
يمانية ؟ الستم انتم ابناء اسلافكم الكرام الذين اشتهروا بالذكاء الفطري
والمجد المؤثل ؟ فالله الله يا ابناء الامة العربية في دينكم لا تضيعوه بل احفظوه
واستظلوا بظل الراية العثمانية التي هي شعار الاسلام (كذا !) ولا تغتروا
باقوال المفسدين الساعين في تنفيذ اغراض المحركين لهم اعداء الدين
الاسلامي وانتم اطايب عنصركم وعدم معرفتكم بالسياسة الاجنبية تظنون
انهم انما يخدمون للدين ... والله عن الدين بمعزل لا يخدمون الا اغراضهم
الشخصية مستترين باسم الدين فاحذروكم ... للدين ان لا تغتروا بمثل هؤلاء
الاوغاد المارقين من الدين ... المطيعين لامير المؤمنين واعلموا ان
من خالفه خالف الله ورسوله ومن خالفهما فقد باء بغضب من الله وخسر
الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ! »

لا نعلم كيف يغير الانسان مبدأه بين يوم وليلة !

ولا تسوي الآن عملا فيجعل نفسه داعيا لعرش الخلافة الاسلامية بعد ان دفع [illegible] بعض المسلمين حوله ثم [illegible] انه لا تحركه الا ايدي الدولاب في اوروبا

ولم نر فيما رأينا كلمة سوى توافق الامير ودعاة الامير كالكلمة التي قالها خير الله افندي خير الله في رسالة الى عارف افندي النكدي :

(اني عقدت النية على ترك السياسة والكتابة والصحافة ودخلت في معل [illegible] وأمل ان اصل بهذا الى شيء من الراحة التي انشدها منذ سنين فلا اجدها)

« وهل لنا الا من الاخوان الذين درجوا (1) ورءاء الينا القدر اذ عف عنا وابقى لنا نصيبا من الحياة كان لنا رفاق وقد ماتوا واعتلى المسرح السياسي من لا نعرفهم فما لنا الا ان نحيي الحياة بذكر من غادرنا وله في القلب والروح حرمة وولاء وصداقة وذكر لا يموت .. »

ما اجمل هذه الكلمات وما ابلغها . اجل ! لقد مات الكثيرون من الاحرار السوريين واعتلى المسرح السياسي من لا نعرفهم سوريا

وقد كان يمكن لسوريا ان تعرف هؤلاء اللاعبين المحدثين ، كان يمكن لسوريا ان تثق بالذين ظهروا على المسرح فتضم يدها في يدهم وتمشي في طريق السلام !

ولكن سوريا فتحت عيونها ورأتهم كما هم رأتهم عبيدا يقاومون

(1) يشير بهاتين هذه الى الذين شنقوا في سبيل الدعوة السورية

الانتداب الفرنسوي ليضعوا محله الانتداب الانكليزي · وانهم يستعملون في سبيل هذه الغاية اموراً وحشية تنفر منها النفوس وان زعيمهم وهو عبد ابيه وان اباه منفذاً امينا لارادة اصغر مأمور في وكالة انكليزية . . . .

. . .

الاصلاح في سوريا يتم مع الايام عن يد بنيها · وبنوها يسيرون في طريق الرقي مع اي حكومة اوربية اخلصت لهم النية ·

ان في وسعنا الاستفادة من كل الاوروبين على السواء ، من فرنسا واميركا ، من بلجيكا وسويسرا حتى ومن سربيا تقدر سوريا ان تتعلم شروط النجاح ! وليس من حاجة لنذبح بعضنا بعضاً ، سنينا طوالا ، لنبرهن للعالم ان فرنسا عاجزة عن تربيتنا ، ولنساعد الامير فيصل حتى يصبح عاملا للانكليز على سوريا . . .



الامير فيصل في الحرب

المراكز الكبيرة في العالم هي على قدر الرجال . والرجال في المناصب الكبيرة انما هم صورة للخدمات التي قاموا بها نحو امتهم . ففي العالم اليوم مئات من الملوك والامراء لا يسمع الناس صوتهم ولا تذكرهم الاخبار الا لتقول انهم حضروا الحفلة الفلانية او دشنوا البناء الفلاني

اما الرجال الكبار الذين يملأ ذكرهم الارض و يقرأ الناس اراءهم واقوالهم في كل مكان . اعني الرجال الذين يسمون (رجال اليوم) فلا يصلون الى مناصبهم لاجل انسابهم ولا لالقابهم بل لاجل حياة طويلة قضوها بالعراك الدائم لاجل غاية انسانية او وطنية

والناس في كل مكان يعرفون قدر المجاهدين المخلصين فيلتفون حول من يرون فيه الكفاءة ، عاملين باشارته ، مؤتمرين بامره ، واثقين ان هذا القائد يسير بهم الى الميناء الامين

ومن قبيل المثل نذكر اسماء روزفلت ، ولويد جورج ، وكلنصو ،

وكتشنر، وميلران، وفنزيلوس، وسعد زغلول وسواهم

هؤلاء رجال تقلبوا في المناصب والادارة والسياسة فاختبروا الافراد واختبروا الامم واختبروا الدول، هم رياضيون، فنيون، خطباء، كتبة وهم سياسيون ومؤرخون واداريون

اما نحن فجمعونا حول امير لا نعلم شيئاً من زوايا قلبه الحقيقية فربما يكون منفذاً اصم لاوامر عليا بالرغم عنه — هكذا يقول بعضهم — ولكن هذا لا يبرئه ولا يشفع به. بل بالعكس هذه صفحة اخرى تضاف الى تاريخه فتسجل الى جانب ما تقصه من المزايا ليصبح قائد الراي في الامة السورية « هذا اذا سلمنا باعطاء قيادة الراي لرجل غريب عن سوريا » اما هذه المزايا فهي معرفة سوريا واهلها. ومعرفة الغرب واهله هي الدربة والحنكة. واصول الادارة ومبادئ الاجتماع مع العلم الكافي، والمقدرة العقلية والقضاء والتشريع والتاريخ

يقولون ليس من الضروري ان يكون الامير حاصلاً علَى هذه المميزات فنجيب انه يمكن لملك من الملوك ان يكون جاهلاً حتى اصول الكتابة ولكن بشرط ان يجلس علَى عرش دستوري ليمثل الامة في الحفلات الرسمية والمعارض الدولية فقط. يمكن للملك ان يكون جاهلاً اذا كانت وظيفته تنحصر في وضع امضائه علَى الاوراق التي يقدمها له مجلس امته. اما اذا كان علَى الملك ان يبني الوطن حجراً حجراً فقد لزم ان يكون حاصلاً علَى مزايا كبار الرجال! ولكن! ان يغشونا الى حد ان يحضروا لنا اميراً غريباً

لا مزية له ولا اهلية ويقولون لنا هذا مخلص سوريا ـ هذا رجل اليوم هذا رجل النهضة ، هذا هو الذي سيضع حجر الاساس لبناية الوطن السوري ؟ ؟ انها الاعجوبة ما جازت على احد من السوريين الناهضين

. . . . .

انزل الامير فيصل في العقبة على رأس فصيلة من البدو سموها « حملة الحجاز » وكان مع هذه الفصيلة الحجازية فصيلة افرنسية عهداليها القيام بامر المدفعية اما ادارة النقليات والصحية والطبية والاعاشة فكانت بيد فصيلة انكليزية اخرى .

ونعوذ بالله و بالمنطق من الزلل اذا كنا في معرض كلامنا عن حملة الحجاز نضطر الى ذكر حملة فلسطين !

واننا نحط من قدر جنود حملة فلسطين وقائدهم الكبير اذا نحن ذكرنا بجانب مغاداتهم اعمال العربان

على اننا نستميح عذراً من هؤلاء الابطال وننشر في السطور التالية اعمال الحملة الفلسطينية كما يعرفها العالم ثم نتبعها بعد ذلك باعمال حملة الحجاز

ان القوات الكبيرة التي احتلت فلسطين اولا ثم زحفت على الشام بطريق القنيطرة ودرعا كانت مؤلفة من مئة الف مقاتل بقيادة المرشال اللنبي الذي ارسلته القيادة العليا للحلفاء قائداً عاماً لجيوش فلسطين وسوريا كما ارسلت الجنرال فرانشه دسبره قائداً لقوات الحلفاء في ساحة سالونيك وكما سلمت للمرشال فوش القيادة العامة في

الساحة الغربية ٠

وتألفت هذه الجيوش من الهنود والاستراليين والكنديين وكان منهم ستة الاف جندي فرنسوي والفرقة ٤١٥ الشهيرة

وفي ٢١ ايلول سنة ١٩١٨ حصل الهجوم العام في جهات الناصرة ونابلس فكانت المعارك شبيهة بالاعجوبات منها المعركة الفاصلة التي اسرت فيها جيوش الحلفاء ثمانين الف تركي يقول العارفون انهم سلموا بدون دفاع وكان سبب هذا الانكسار المشين تضعضع المانيا والنمسا وتسليم بلغاريا فتضعضعت بذلك القوات التركية ولم يمكنها الثبات امام جيش منظم علَى احدث الطرق الاوروبية ولديه من الذخائر والمعدات ما يحيّر به العقل ٤ عدا عن النشاط المعنوي الذى ملاء قلب جيوش الحلفاء بعد انتصار رفاقهم في الساحة الغربيه

وتقدمت جيوش الحلفاء بعد ان سحقت القوات التركية وزحفت كأسراب الجراد نحو عاصمة الامويين ثم توقفت فجأة عند ابواب المدينة وانتظرت هجانة الحجاز الذين جاؤوا بطاربق درعا ودخلوا الشام وراء الامير فيصل الذي لقب بالفاتح الكبير وكان دخوله علَى هذه الصورة اكبر اثبات لحق الحجاز علَى سوريا — في الظاهر —

. . . .

اما حقيقة الاعمال الحربية التي قام بها الامير فيصل في هذه الحرب فهل نذكرها ؟

انا والله لنخجل عن الذين ينسبون الى الامير كسر الجيش التركي في فلسطين . نعم ان الامير قام بخدمة كبيرة نحو البريطانيين ولكن هذه الخدمة هي معنوية بحتة لا عسكرية

نقول هذا ولا ننسى جهاد بعض افراد السوريين في حملة الحجاز الصغيرة الذين عاشوا زمناً في الصحراء القاحلة اعتقاداً انهم انما يفعلون ذلك لاجل سعادة امتهم

ولقد اسعدنا الحظ وقابلنا مكاتباً عسكرياً رافق الحملة الحجازية منذ البداية الى النهاية وهو شاهد عيان اذا تكلم فانما يتكلم عن ثقة قال :

« يبدأ تاريخ التعارف بيني وبين حملة الحجاز في الواد وهي نقطة بين ينبع والعقبة في ذلك الحين . كان عدد رجال الامير فيصل نحو الف مقاتل يجهل معظمهم مبادئ الخدمة العسكرية الاولية فكثيراً ما جربوا ان يستولوا على الخط الحديدي بين تبوك والعلا ولم يفلحوا .

ثم ان الشريف ناصر ، وهو رجل اقر له بالمقدرة الحربية ، استولى على العقبة بمساعدة المستر لورنس « الشهير » واخذ الف اسير تركي بينهم ثلاث مئة جندي عربي .

اما الامير فيصل فلم يصل الى العقبة الا بعد شهرين من تاريخ

استيلاء الشريف ناصر عليها لانه في تلك الايام كان يسير بجاء او جنود الجيش التركي حواليه في معان . . .

ولم يحل الامير في السير الا مرة واحدة اي عندما دخل الشام تحت حماية الخيالة الاوستراليين

قلت ان الامير نزل في العقبة مع بعض اسرى من العرب كانت الجيوش البريطانية اسرتهم وارسلتهم الى مصر فلما شاع خبر حملة الحجاز التحقوا بها . وبعد سنة كاملة من هذا التاريخ قدر فيصل ان يجمع حوله اربعة الاف مقاتل فقط لم يكن فيهم من يصح الاعتماد عليه الا الافراد الذين خدموا في الجيش التركي

وفي مدة سنتين ما تمكنت هذه الحملة الا من تخريب بعض الخطوط الحديدية وكل الفضل في هذا التخريب يرجع الى اربع مدافع صغيرة افرنسية من عيار ٦٥ كانت تحت قيادة المسيو سوكه SOUQUET والى السيارات الانكليزية التي كان يديرها المستر لورانس

وقد جرب الامير مراراً ان يهاجم معان فرد عنها خائباً وكان عدد الاتراك المدافعين منها ثمانمئة جندي فقط !!!

وانا الان اؤكد تأكيد رجل عسكري يعرف قدر الرجال العسكريين واقسم بشرف الجندي ان كل حملة الحجاز مع قبيلة حويطات ابي طائع وقبيلة بني عطيه وقبيلة بني صخر وقبائل كثيرة لا اذكر اسمها ترجع خائبة امام خندق واحد من الخنادق العصرية يحميه خمسمائة جندي

نظامي . وهذه محطات جردون والمدورة ومعان كثيرة خبرها أشهر من كلامي . وكثيراً ما حاول رجال الامير ان يأخذوها فرجعوا خائبين

اما زحف فيصل على الشام واحتفاله بانتصاراته الوهمية فاستغربها جداً . لان الامير وما بقي معه من الجنود وعددهم ثلاث مئة وخمسون ، والفصيلة الافرنسية التي كانت ترافقهم بمدافعها الصغيرة تحت امرة الكابتن بيزاني لم يشتبكوا ولا مرة في زحفهم على الشام بمعركة صغيرة دموية . ولم يصادفوا الا فصيلتين تركيتين الواحدة في تل دراء وعدد رجالها اثنا عشر والثانية في نسيب وعدد رجالها خمسون .

وقد سنحت الفرصة للامير ان يشتبك في معركة فاصلة مع نصف طابور تركي كان معسكراً قرب المزاريب . على انه عرف ان يتركه وشأنه ولقد فعل حسناً لانه لو تصدى لذلك الطابور لما اضاف الى تاريخ الشام تلك الصفحة المضحكة ...

انتهى كلام الكاتب العسكري

. . . . .

واستيقظ اهل سوريا في احد الايام ورأوا بدل العلم التركي علماً حجازياً و بدل ضباط الاتراك والالمان هجانة حجازيين وعراقيين يمثلون مدنية الحجاز .

ولم يكن للامير فيصل حزب في سوريا الا افراد قلائل اجتمعوا حول الامير سعيد الجزائري الذي كان يخابر الامير فيصل قبل دخوله الى الشام

و بعض الفتيان من جمعية العهد العربية الذين كانوا يأخذون سراً اخبار حملة الحجاز يوماً فيوماً وساعة فساعة

وقد سقط هؤلاء الفتيان الاطهار في حبائل السياسة وحسبوا الامير فيصلا ملاكا سماويا جاء لخلاصهم احسبوه ممثلا لارادة اثنى عشر مليونا من العرب وقائدا لمئات الالوف من الجيوش المنظمة اولم تخطر في بالهم اللعبة الشيطانية الهائلة التي استخدمت فيصلا كقوة ادبية تقف في وجه مسلمي الارض اذا هم رفعوا صوتهم بالاحتجاج على اقتسام الخلافة وعلى استلال العراق والموصل وفلسطين

هذا ولا يزال الى اليوم في سوريا افراد مغرورون يقولون: (لولا جنود الحجاز لما خرج الاتراك من سوريا) وقد غاب عن ذهن هؤلاء ان المملكة الحجازية مديونة بوجودها الى انكلترا — ولا نقول مديونة بمالها او صناعتها او زراعتها او مدنيتها فليس لها شيء من هذا

نقول لهؤلاء الكرام ان مئة الف حجازي لا يقفون يوماً واحداً امام فرقة تركية ـ ولا نقول افرنسية أو انكليزية ـ منظمة لها مدافعها وطياراتها ودباباتها . ونعطيهم برهاناً صغيراً وهو هذا :

استولت جيوش الحلفاء على كل فلسطين وسوريا و بقي قسم من الجيش التركي في المدينة بقيادة فخري باشا التصيك صمم على عدم التسليم و بقي مصراً على رأيه الى ما بعد انعقاد الهدنة . فلو كان للحجاز جيش وكان لهذا الجيش صولة فلم تقاعد عن مهاجمة جيش فخري باشا واذلاله

عنوة ؟

تذكر والتاريخ يذكر ايضاً سيذكر ان فخري باشا امتنع عن التسليم وبقي مكابراً حتى اتاه الأمر من الاستانة بوجوب اخلاء المدينة ، اذ ان خروج الجيش التركية من الولايات العربية كان شرطاً من شروط الهدنة المعقودة بين الحلفاء والاتراك

. . . . .

هذه اعمال الامير فيصل الحربية . وهذه جيوش الحجاز وقد ذكرنا الاعمال التي قامت بها وهي اللحاق بجيوش الحلفاء ودخول الشام قبلهم فاذا كانت محاربة الحجازيين تحت الوية الحلفاء تعطيهم الحق للاستيلاء على سوريا فالسوريون ؛ وقد حاربوا ايضاً تحت الوية الحلفاء ، احق من سواهم بالاستيلاء على بلادهم . كان للحجازيين من المجاهدين وسواهم عدد لا يبلغ الثلاثة الاف كما ذكرنا اما السوريون المحاربون فقد كانوا من العشرين الى الثلاثين الفاً (١)

فاذا ارادت انكلترا ان تكافىء الحجازيين لقاء خدمتهم الادبية فلتكافئهم ضمن بلادهم . ان بلادهم جرداء قاحلة لا طريق عربية فيها ولا خط حديدي . ان جزيرة العرب تضم مئات الالوف من البدو الحفاة العراة العائشين على نهب القوافل وصيد الجراد . وانكلترا مشهورة بكرمها

(١) قال خير الله خير الله في كتابه المعضلة الشرقية : وحسب السوريين ان الجيش الاميركاني وحده كان يضم منهم في الساحة الافرنسية خمسة عشر الفاً

واموالها تتدفق كمن افواه القرب . فما كان الأحرى بها ان تتولى استثمار الجزيرة ونشر المدنية فيها وتحضيراهلها فيصيروا اعضاء عاملين في جسم الميئة بدل بقائهم علة على الحجاج المسلمين يبتزون اموالهم و يسرقون امتعتهم ! والمدنية تنشر السلام فاذا نشر الانكليز مدنيتهم في الجزيرة احسنوا الى سكانها فالفوا بين قبائلهم وابطلوا على الاقل حروب الغزو التي يثيرها على مدد ايام السنة رماة الوهابيين والسعوديين والرشيديين والادريسيين

....

لنعد الى الامير

ذكرنا اخباره الحربية وها نحن نذكر اخلاصه نحو الدعوة التي قام بها ونحن الذين كانوا سبب نشر دعوته في الشام

في شهر اذار سنة ١٩١٨ جدد الالمان هجومهم على الساحة الغربية وتناقلت الجرائد اخبار انتصاراتهم . فاوجس فيصل على نفسه وخابر الاتراك بالانضمام اليهم اذا هم ولوه البلاد العربية والسورية ...

وخابر جمال باشا القيادة الالمانيه العليا في هذا الامر وذكر لهم ان انضمام العرب الى الاتراك يضعف قوة الانكليز المعنوية على ان الالمان والاتراك لم يجيبوا الى طلبه لانهم تحققوا انه لا يبر بوعوده

هذا شيء من اخلاصه نحو الانكليز بينما كان يتقاضى اموالهم و ينام في خيامهم و يأكل من طعامهم . اما بعد دخوله الشام فكافأ آل الجزائري

الامير انشروا الدعوة الحجازية بان امر بقتل الامير عبد القادر اخ الامير محمد سعيد وذلك خوفاً على نفوذه من الامير المذكور الذي كان يحضر الحفلات الى جنبه ويركب فرسه متباهياً في شوارع الشام ومتفاخراً بكونه سعى وعمل في سبيل الدعوة العربية فكان جزاؤه جزاء سنمار



سياسة الامير

بوادر العداء

ولم تمض بضعة ايام على دخول الامير سوريا حتى اصبحت سوريا الحادثة مسرحاً للاحزاب السياسية على اختلاف اشكالها . فتألفت الجمعيات ، وتأسست النوادي ، وانشئت الجرائد لأجل غاية واحدة هي محاربة الانتداب الفرنسوي ومناصبة العداء لكل ما هو فرنسوي ونشر دعوة الامير فيصل تحت ستار الاستقلال .

واسس الامير في دمشق نادياً عربياً كتب على جداره الخارجي باحرف كبيرة : « ممنوع التكلم بالسياسة » فلم يمض يوم وليلة حتى ظهرت غاية النادي الاصلية التي من اجلها انشيء وهي محاربة الانتداب الفرنسوي والنفوذ الفرنسوي في سوريا .

وانقسمت سوريا على نفسها وانقسم بنوها الى فئتين فئة تريد الانتداب الفرنسوي وفئة تريد الانتداب الانكليزي اما دعاة الانتداب

الانكليزي من اعوان الامير فلم يتركوا طريقة الا وسلكوها لاجل ايصاله الى غايتهم ولا حاجة هنا الى ذكر ما بذلوه من الاموال فقد رآهم الناس يوم قدوم اللجنة الاميركية يشترون اصوات الشعب علانية؟

اما طنطنة الصحافة في دمشق والقاهرة وحيفا فليس على قارىء هذه السطور الآن يراجع اعداد المقطم والمفيد والاردن ويرمون فيرى الغاية السياسية ظاهرة لكل من له عينان

وظهر مع الاحزاب حزب غريب ادعى انفسه الانفلاس والتجرد من الغاية . هذا الحزب اخذ يدعي ان الدولتين الاستعماريتين (فرنسا وانكلترا) لا توافقان سوريا وان الافضل طلب انتداب اميركا فهي دولة لا طمع لها بالاستعمار .

وصدق بعضهم ادعاء هذا الحزب ثم انكشف الغطاء ورأى الناس من تحته اليد الانكليزية لان اعضاءه اخطأوا في السياسة فلم يخفوا عن الناس انهم يستمدون افكارهم واقوالهم من ادارة المقطم .

والمقطم دهيا اتى من العجائب فهو لا يقدر ان يقنع الرأي العام ان كل ما يخط فيه هو من انكلترا ولاجل انكلترا

ولما كثرت الاحزاب في سوريا كثر اللغط والتشويش فكنت لا تدخل بيتاً ولا نزلا ولا خانا الا تسمع احاديث السياسة . واصبح الناس كلهم سياسيين من الطبيب الى المحامي الى الكاهن الى الطباخ الى الحوذي الى مساح الاحذية .

هذا ودعاة الامير لا يألون جهداً في زرع الدسائس ليحملوا الناس على الاعتقاد بان انكلترا لن تسمح لفرنسا بالبقاء في هذه البلاد . وان الشعب الاسلامي برمته يرفض الانتداب الفرنسوي لان فرنسا هي دولة كافرة وعدوة كبيرة للمسلمين .

....

اما الاموال التي صرفت في سوريا على الاحزاب السياسية والنوادي والصحف والجمعيات فتعد بمئات الالوف او بملايين الجنيهات

كان الامير يستلم شهريا من الحكومة الانكليزية مئة وخمسين الف جنيه لنفسه — او للمملكة كما كانوا يقولون — وخمسين الف جنيه للحكومة فيكون قد استلم مدة ستة عشر شهراً ثلاثة ملايين ومئتي الف جنيه

هذا ما كان يستلمه — ظاهراً — من الحكومة الانكليزية . يبقى ما صرف بالطرق الخفية ... وما استلمه من الحكومة الفرنسوية وكل هذه المبالغ صرفت على الاحزاب السياسية وعلى زعماء العصابات ، وعلى المهيجين الذين جعلوا همهم الدعوة الى السلاح والى الثورة مهددين اوربا بجعل سوريا بركانا يحترق فيه الشعب برمته اذا لم تنسحب فرنسا من سوريا .

سياسة التلون

كانت الاحزاب تعمل اعمالها في سوريا وفيصل غائب عنها يدير دفة السياسة من باريس حيث اجتمع المؤتمر لاول مرة واجلس فيصل فيه كممثل لشخص ابيه ملك الحجاز . وبحال رجوعه من باريس القى في بيروت خطابا صرح فيه انه على اتفاق مع المسيو كلنصو بشأن الانتداب الفرنسوي . ثم بعد رجوعه الى الشام القى في النادي العربي خطاباً نقض فيه الخطاب الذي القاه في بيروت . وبقي الامير في دمشق مدة اربعة اشهر يحارب فيها النفوذ الفرنسوي ويدير حركات الاحزاب وقد جمع في هذه المدة مجلساً سماه المؤتمر السوري اخذ يسن قوانين البلاد ويدعي انه ينوب عن شعب لا علم له بما يجري حوله

وفي نهاية الاربعة اشهر بدأت حركات العصابات على حدود لبنان وبدأ التعدي والنهب وكانت صحافة دمشق تنتظر هذه الحوادث فترويها كبرهان على سوء الادارة في الساحل وغايتها بذلك الطعن في الادارة الفرنسوية واظهارها للملأ بمظهر العاجز

ثم ابحر فيصل الى باريس مرة ثانية وابرم اتفاقه المشهور مع المسيو كليمنصو وفي مدة غيابه حدثت حوادث تل كلخ ومرجعيون بتدبير الامير زيد وحاشيته ثم عاد في شهر كانون الثاني الى بيروت حيث صرح في حفلة الشاي التي اقامتها له البلدية ان سوريا تعتمد في استقلالها على المساعدة التي ستعطيها اياها الحكومة الافرنسية • فاستبشر الناس بالخير وقالوا لقد انفرجت الازمة وذهب فيصل الى الشام بعد ان قابل الجنرال غورو واكد له انه سيسعى الى تهدئة خاطر الشعب والى ايقاف المذابح قائلاً : انا اعطيت الامر باثارة الحوادث وانا ساعمل بنفوذي على ايقافها

ولما وصل الى الشام القى خطابا ينافي ما قاله في بيروت واوعز الى المؤتمر السوري ان يعلن الاستقلال و يرفض الانتداب وان يتوجه ملكا على سوريا فكان له ما اراد

وفي هذه الاثناء كان يخابر الحكومة الفرنسوية مخابرة حبية معربا عن امله بالتغلب على ارادة الشعب الذي يرفض الانتداب ومظهراً انه لا يقدر على مقاومة المؤتمر السوري الذي له الشأن الاول

وجاء يوم القى فيه خطابا جاء فيه : انا ابن محمد ولا اطيق الاستعباد فكأنه عندما فاه بجملته هذه حمل علم الجهاد وسار في طليعة المجاهدين • ولم تمض مدة وجيزة الا واعاد العربان الكرة على مرجعيون ودبر الشيعيون تلك المذبحة التي اعادت للمسيحيين ذكرى سنة الستين

وهنا نأخذ عن جريدة الجامعة السورية مقالة ضافية بشأن القضية السورية وسياسة الامير فيصل · وقد اعادت جريدة البرق نشر تلك المقالة لما جاء فيها من الحقائق :

في سبيل سوريا

اذا نحن سكتنا فالاحجار تتكلم !

ولكن لا يسعنا السكوت والقضية السورية تلبس كل يوم ثوباً جديداً وتزداد اشكالا وتعقيداً ، ونحن نتقلب على احر من الجمر فالبسنا يقسمون التعصب والجهل والعبودية مع اننا ضحية تقدم على مذابح سياسة الخداع والمراوغة !

نحن شعب لم يتعود النظر الى الاسباب ، نحن ننظر الى حادث قريب فنتهم به اول انسان نراه · واما الاسباب الاولى ، الاسباب الاصلية ، الاسباب البعيدة فلا يمكننا ان نراها لاننا حديثو العهد في فن السياسة

يقولون لنا هذه مذابح تل كلخ ومرجعيون وصور · هذه شهادات ناطقة بالغليان الذي يثور في صدور الاحرار عشاق الاستقلال ، الذين

لا راحة ترجى منهم ما لم يعطوا ما يريدون

ويقولون ان اهل الداخلية طلاب استقلال ، واهل السواحل عبيد للمستعمرين وبرهانهم ان اولئك اجتمعوا حول الامير فيصل واقسموا ان لا يرجعوا عن الاستقلال وهؤلاء (اي اهل السواحل) فضلوا تجزئة البلاد وقالوا بلبنان الكبير ارضاء للفرنسويين الذين يتناولونه الساحل حسب معاهدة ١٩١٦ فكأنهم يريدون بذلك ان يقولوا ان اللبنانيين انما يريدون ان يكبروا لبنانهم لتكبر بذلك لقمة فرنسا

ويقولون ان معاهدة سنة ١٩١٦ هي التي جزأت البلاد وقسمت الشعب الى احزاب ولولاها لم يجر ما هو جار

ويختمون كلامهم ان على هذا الشعب ان يعتصم بحبل الوطنية ورجالها الوحيد !

هذا الذي يقولون ولا ندري لماذا يقولون ، هم يدرون ! اما الذي نقوله نحن والذي يقال في السرائر وخلف الستائر والذي يردده الماء والهواء وكل عناصر الطبيعة ، نعم ان الذي يقوله المهاجرون الراحلون والمفلسون المقيمون ، مع دماء اهل صور ومرجعيون فهو غير هذا وهذا ما نقول:

*****

معاهدة ١٩١٥ — ١٩١٦

ان معاهدة ١٩١٦ ليست سبب البلاء ، ان سبب البلاء هو المعاهدة التي سبقتها سنة ١٩١٥ التي اعطت الشريف حسين المدن السورية الاربع وهي الشام وحمص وحماه وحلب ، وان المحالفة بين الانكليز والعرب التي ترمي الى ان يكون في الشرق امبراطورية عربية حجازية هي التي جعلت في سوريا حزباً مسلماً وحزباً مسيحياً ؟ ولهذه المعاهدة ذيول طويلة عريضة منها ما جاء في المراسلات الانكليزية العربية وخلاصتها ان الشريف حسين طلب ان تكون حدود الامبراطورية العربية لاوائل جبال الطوروس شمالاً ولسواحل البحر المتوسط غرباً فاجابته انكلترا ان مسألة الحدود ينظر فيها في المستقبل اذ لا يمكن النظر فيها الآن !

فالمنطق يستنتج من هذا ان الشريف حسين يطمع ايضاً بالسواحل ويصبو الى الحصول عليها . وفرك السوريون عيونهم بعد المدنية فاذا بلادهم ممزقة ! واذا بالمعاهدة الغريبة معاهدة سيكس — بيكو تحت عيونهم فلعنوا المعاهدة وصبوا نقمتهم على بيكو ! وكان الاولى بهم ان يصبوا النقمة على معاهدة ١٩١٥

من المعلوم ان انكلترا لا تحالف العرب لسواد عيونهم او ان الشرق

الغالت من النير التركي مورد ثروة لا تقدر يمكن للشرقيين ان يحصلوا عليها وذلك بطريقة تبادل المنفعة بينهم و بين اوربا — اما تبادل المنفعة فيقوم بالعلاقات التجارية والعلاقات التجارية لا يمكن لدولة ان تستأثر بها وحدها

فماذا وجد الشرق الادنى امام امر واقعي . وهو اسداء المنفعة التجارية الاقتصادية الى اوروبا . وهذه المنفعة التجارية تتبرقع ببرقع شفاف يسمونه حماية او وصاية او انتداب

ان النقطة الهامة التي يجب ان يماط عنها الحجاب هي ان الانتداب لا يمكن ان يحصر بدولة واحدة . لا يمكن ان تطلق يد انكلترا في الشرق فتستأثر بخيراته وثرواته وآبار وده وتسيطر على اسطانبول والموصل والعراق وفلسطين وسوريا والبلاد العربية . لان هنالك دولة اخرى عنائية ان تخرج من سوريا بسهولة ودون ذلك اهوال كبيرة وحروب دامية ليس من العدل ان يكون السوريون نارها و بارودها

اما معاهدة سنة ١٩١٥ وحلم الجامعة العربية فلا نعلم كيف نصفه بدون ان نغضب الفريق الذي لا يريد ان يرى الحق !

ان الحلم العربي الاسلامي حلم جميل لو كان قابل التحقيق نقول الاسلامي ولا نخشى الانتقاد لان وطنية المسلمين لم تزل عقيدة دينية فاذا كانت الشبيبة الراقية التي منها الافراد القليلون تدين سياسياً بغير هذه العقيدة فعموم الشعوب الشرقية لا تزال تنظر الى الجامعة

الاسلامية كغاية كالية ، وهذا ما يتخوف منه المسيحيون ، يقصده المسلمون في الجامعة العربية بناء جامعة اسلامية ، وهذا حق يقوم به المصلحون ، ولكن (الجامعة الاسلامية) لن تشيد على الذهب الانكليزي — وانكلترا التي فصلت مصر والحجاز والعراق وو .. عن الخلافة الاسلامية الكبرى لن تعود اليوم لتجديد بناء خلافة اسلامية ثانية .
ولكن ! هل يفهم اخواننا ذلك ؟

ونعود الى اصحاب الاستقلال واصحاب الاستعباد — كما يسمونهم في دمشق — فنقول ان المسيحيين لم ينفصلوا و يطالبوا لبنان الكبير الا بعد ان تحققوا ان السياسة (المذهبية) ستضحيهم على مذابح مطامعها .
وقد تحققوا ذلك عندما قرأوا المعاهدات الحجازية ورأوا جالية الحجاز يدخلون البلاد وامراء الحجاز يصبحون ملوكا هنا وهناك

اما الامير فيصل فليس في شخصه ما يدعو المسيحيين الى النفور منه والمسيحيون في هذه البلاد لا يأنفون من تنصيب امير مسلم ولربما فضلوا الامير فيصل على سواه لانه اظهر للقريبين منه لطفاً ولين عريكة وتساهل .

ولكن المسيحيين لا يخافون فيصلا ، هم يخافون من السياسة التي تهب عليه اعصارها من الحجاز ومن فلسطين ! هم يخافونه لانه يطلق العنان لمن حوله بالتهديد والوعيد ، لانه يسمح لهم بمقاطعة الساحل و بمناصبة العداء للساحليين ، لانه يضع نفسه موضع مدير بناية الوطن السوري

ثم هو يعجز عن ايقاف الذين يأتمرون بامره عن ذبح النساء والاطفال

وليس هذا فقط ! فزعماء تل كلخ يقتلون و ينهبون ثم يحتمون في الشام . وزعماء جبل عامل ومرجعيون يذهبون الى الشام فتقام لهم الولائم وتلقى الخطب الحماسية

نعم ! ان يلتف المسيحيون حول الامير قبل ان يتجرد من كل ما يحيط به . وقبل ان يتلون المقدرة على لجم كل دافع الى المذابح وقبل ان يضع نصب عينه هذه الحقيقة وهي (اذا كان من منافسة بين انكلترا وفرنسا على سوريا فلا يجب ان تذهب سوريا والشعب السوري ومسيحيو سوريا ضحية هذه المنافسة) وان الساحليين اشد وطنية من سواهم ولكنهم يريدون وطنية « بلدية » لا وطنية مدموغة بهذه العبارة

. MEDE IN ENGLAND

هذا الذي يجب ان يعمله سمو الامير ؛ اما الدمشقيون « تقول الدمشقيون لان دمشق مصدر الحركة » فما عليهم سوى ان يبدوا العلاقات بينهم و بين الساحل و يضعوا حداً لتحامل الجرائد والدعوات الى السلاح والندب على فلسطين التي بلعت ومعدة البالعين مشتغلة بالهضم وصراخهم وعويلهم لاجلها عرفت مصادره والدوافع اليه فالمنطق ان يقول عنهم « يريدون فلسطين » بل هو سيقول (يريدون ان ينضموا الى فلسطين)

العداء المكشوف

وسياسة الخراب

تستر الامير فيصل وراء الحكومة السورية وارادة المؤتمر السوري الشعبي ثم يأتيا منذ حكمها الا اعمال العداوة القاهرة والطيش العجيب

بدأت الحكومة بمقاطعة السواحل بان منعت تصدير الحبوب على انواعها . ومنعت التداول بالورق السوري الذي اصدرته الحكومة المنتدبة على سوريا وقررت اقامته الجمارك على الحدود لتتقاضى الرسوم عن كل وارد يرد اليها بطريق الساحل

ثم تألفت اللجنة الوطنية الكبرى لاجل حض الشعب على الدفاع برئاسة الشيخ كامل القصاب فكانت هذه اللجنة تجمع الاعانات من الاهالي وترسلها الى عربان الامير محمود الفاعور وكان معدل ما ترسله اللجنة الى الامير المذكور اسبوعياً مئة كيس من المأكولات ومثلهـا الى الثوار في تل كلخ هذا والامير يقيم الحفلات للذين كانوا يدخلون

الشام وايديهم مخضومة بدماء المسيحيين . اذ ذاك وقعت داخلية سوريا وسواحلها في الارتباك الذي تكلمنا عنه في الصفحات الاولى من هذا الكتاب

. . . . . .

اما صحافة الشام فكانت تنشر اخبار المذابح وتسمي المسؤولين عنها الابطال الوطنيين (وطلاب الاستقلال) ذاكرة بكل وقاحة ان الحكومة الفرنسية تسلح المسيحيين وتحرضهم على قتل المسلمين ومظهرة سوء الادارة الافرنسية وعجزها عن اطفاء الثورات ضمن منطقتها . وكانت نغمة تلك الصحف واحدة وهي ان الحالة في المنطقة الشرقية هادئة ومنتظمة بينما المنطقة الغربية اصبحت ساحة للنهب والتعدي والقتل

هذا والسلطة الافرنسية ترسل جنودها الى كل منطقة تحدث فيها مذبحة لمعاقبة الائمة . فكان دعاة الامير في تلك المنطقة يبادرون بارسال البرقيات الى المؤتمر السوري ان (جاء الافرنسيون ونهبوا قرانا الامنة وهتكوا اعراضنا ودنسوا مساجدنا)

وتمادت الصحافة في اوقاحة ونشرت ضد الحكومة الافرنسية مقالات الطعن والشتيمة . وكانت هذه الجرائد تأخذ مخصصاتها من جيب الامير وكل دينار اخذته نشرت عوضاً عنه اهانة او كلمة جارحة صوبت بها الى الرجل الكريم الجنرال غورو

فاصبح القائد الكبير الذي تناقلت رسمه جرائد الارض وتبعته المجلات الاميركية « بالمشوه المجيد » عرضة لبذيء الكلام وجراحه التي اكسبته الشرف في ساحات الدفاع اصبحت موضوعاً لمزح جرائد دمشق

كل هذا كان يجري تحت عين الامير والامير الذي حل بساعة واحدة المؤتمر السوري يوم تآمر على خادمه . الامير الذي ارسل جنوده في شوارع دمشق فقتلوا من الاهالي ٣٠٠ شخص لانهم قالوا بمخالفة قراراته هذا الامير ما قدر يوم كان ملكا وصاحب نفوذ ان يلجم قلم ربيبه صاحب جريدة الطليل

....

وجاءت الخدمة العسكرية الاجبارية كتكملة للمصائب وتبع هذه الخدمة كذيل لها البدل النقدي وقدره خمسون ليرة لستة اشهر

وضربت الحكومة الضرائب على الشعب المسكين فضاعفت ضريبة التمتع والعقار والاغنام . وزادت رسوم التذاكر خمسة اضعاف كذلك ضاعفت ثمن طوابع البريد الحجازية فكانت الزيادة ٤٠ الف جنيه فارتفعت بهذه الزيادات واردات الخزينة من ١٨٠٠٠٠٠ جنيه الى ٢٠٣٠٠٠٠ جنيه .

وكل هذه الاموال مع الملايين التي استلمها الامير فيصل تسربت الى جيوب دعاة الامير من الاتباع والموظفين الذين جلبوا الويلات على سوريا وجرفوا القسم الكبير من شبانها الى ما وراء البحار

النهاية

صبر الجنرال غورو وكان صبره طويلا . وبقدر ما كان صبره جميلا كان جهد اهل البلاد غير جميل

صبر الجنرال على حكومة في الداخلية رفضت اوامر موءتمر دولي أعلى . وصبر على المقاطعة وقد اضحكت سكان البلاد التي وضعتها اوروبا بين يديه وجعلته مسوءولاً عنها . وصبر على عصابات لا قوة لها سوى ضعف الاهالي وهو القائد الكبير الذي حطم بقدرته الحربية جناح النسر الالماني

وكان امر ما صبر عليه اتهام الناس الدولة التي يمثلها بالعجز وسوء التدبير وسوء النية . وهو العارف قبل كل انسان ان دولته قابلت الالمانيين ومعهم من الذخائر والمعدات والمدافع كمية هي نتيجة استعداد نصف جيل . قابلتهم بصدور بني فرنسا يوم لم يكن عند فرنسا شيء من المعدات الحديثة وصدتهم في معركة المارن الاولى قبل ان وصل لنجدتها بقية الحلفاء وقبل ان بنت جسراً او صبت جسراً قنبلة جديدة او جهزت سريراً !

ولما كان لكل شيء اوان دقت للجنرال ساعة العمل فأرسل انذاره الى حكومة الامير وارسل منشوره الى اهالي سوريا الذي حوى عبارات التطمين والارشاد ونفى كل غاية استعمارية

واظهرت حكومة دمشق الرغبة في قبول شروط الجنرال ولكن عجزت عن تنفيذ تلك الشروط فدخلت جنود الجنرال دمشق كما نشرت الجرائد ذلك في حينه

على ان دعاة الثورة والقلاقل لا يزالون الى اليوم يسعون خارج دمشق بنشر الاكاذيب مثل قولهم ان الجنرال خدع الامير وحكومة الشام وان الفرنسيين يحتلون سوريا بقصد استعمارها

ولما كانت واجبات الكاتب خدمة الحقيقة قبل كل شيء رأيت ان اضم الى هذه الفصول خطاب الجنرال غورو في الشام وفيه كل ما ينفي التشريات الباطلة

خطاب الجنرال غورو

اشكركم يا حضرة رئيس الوزراء على الكلمات التي وجهتموها الي فآمالكم سوف لا يكون نصيبها الخفوق ، فان فرنسا ما جاءت الى هذه البلاد كمستعمرة وسترونها امينة على تقاليدها راغبة في ان تضمن استقلالكم

في ظل عهد الوصاية الحر بشرط ان لا يغدو هذا الاستقلال ضاراً بها وآلة تتخذ ضدها!

حينما عاد الامير فيصل من فرنسا وذلك في شهر كانون الثاني الاخير كان قد ابرم اتفاقاً مع المسيو كلمنصو الذي كتب لي يومئذ عن هذا الاتفاق وان الامير يعود الى سوريا ليعرب عن نزاهته ويستعمل نفوذه في تهدئة الخواطر؛ حتى اذا لم يستطع ان يأتي ببرهان واستمرت حوادث تل كلخ ومرجعيون على سيرها فان الحكومة الافرنسية تجد نفسها مطلقة من كل قيد وتعمل اعمالها بحرية

وقد اكد لي الامير في بيروت صدق وعوده؛ واعترف بانه هو الذي اعطى في باريس الامر باثارة تلك الهجمات التي شكوت منها؛ وزاد على ذلك انه سيعمل بنفوذه على توقيف تلك الحركات بسهولة تامة

وتعلمون ايها السادة كيف ان الاشهر التي تعاقبت والايام التي توالت لم تبرهن على صدق تلك الوعود الجميلة فان الامير رجع الى دمشق في السابع من كانون الثاني واذ لم اكن مخدوعاً في ظني فانه منذ الثامن والعشرين من الشهر المذكور حاول احد ضباط الامير المدعو فؤاد سليم ان ينسف مع عصابة مؤلفة من خمسين شخصاً الجسر الواقع على نهر الليطاني في قرب جديدة مرجعيون وقد ذهبت المجهودات المبذولة في هذا السبيل عبثاً وتعددت مثل هذه المهاجمات التي يصعب علينا سردها حذراً من الملل والضجر. وقد كانت هذه الهجمات تتوالى تارة من الشمال

وتارة من الجنوب ، على طول الحدود ، اي من تخوم فلسطين الى معابر خليج الاسكندرونة

ومما هو جدير بالذكر ان العصابات التي كانت تهاجمنا لم تكن متشكلة من الاشقياء فقط بل كان يقوم على رأسها ضباط الجيش النظامي ، وهذه العصابات كانت ممدودة بالاسلحة والاعتاد والمال ومع ان فتكها لم يكن شديداً في جنودنا فان اضرارها كانت عظيمة على الشعوب الغير مسلحة اذ هدمت بيوتها وشجرتها تدميراً ، واحرقت القرى والدساكر ونهبت الاموال والمواشي وقد كانت اعمال الحكومة الشريفية الرسمية لا تقل بازاء فرنسا عداء عن اعمال عصاباتها . فهل يجب ان اعيد امامكم ذكرى رفض العملة السورية ومنع تصدير الحبوب الى المنطقة الغربية ورفض الانتداب الذي انيط بفرنسا من قبل مؤتمر السلم . ثم قرار تمديد الخدمة الاجبارية وهو تكليف ثقيل ترزح تحت اعبائه الشعوب وفوق ذلك فان هذه الخدمة الاجبارية تعد عملا عدائياً موجهاً ضد فرنسا

ومن ثم فان الامير وحكومته قد رفضا ان يتركا لنا حرية استعمال الخطوط الحديدية الفرنسوية من رياق الى حلب مع ان هذه الخطوط كانت ضرورية لنا لمتابعة اعمالنا الحربية ضد الاتراك وكل ذلك في سبيل سلامة سوريا وهذه الاعمال هي التي حملت رجلا تحترمونه وهو الكولونل تولا — وكثيراً ما سعى الرجل مثل سعي — على ارشاد الامير الى مهواة الخطر التي ينحدر اليها وقد كان يقول لسموه ان اباءكم علينا خط حلب

هو طعنة خنجر تصوب الى ظهور جنودنا !!!

وانا بنفسي اظهرت للامير الخطر الذي تنقاد اليه البلاد بواسطة اعماله واعمال المحدقين به

لقد صبرت فرنسا صبراً طويلاً ولكن صبرها صار الى النفاد وجاء اليوم الذي لا ينفع فيه صبر ولا تؤدة فامرتني الحكومة الفرنسوية ان ارسل الى الامير الانذار الذي تعرفون امره وتعرفون ايضاً ان البرقية التي كانت من شأنها ان تمنع جنودنا من الزحف الى الامام لم تصلنا في مساء ٢٣ تموز لان الاسلاك البرقية كانت قد اجهزت عليها احدى عصابات اللصوص التي تشجعها الحكومة والامير

وفي اليوم الحادي والعشرين من تموز اصدرت الاوامر بايقاف سير الحملة بكل صدق مع ما في توقيفها من الموانع وهذا التوقيف يسمح للجيش الشريفي ان يعزز مواقعه و يقوي مراكزه فيقوم بحركاته ضدنا ولكنني حرصاً على شرف تقاليد البلاد التي انتسب اليها وشرفي ايضاً لم اتردد برهة في اصدار الامر بتوقيف الحركات

وتعلمون ايضاً انه في الثاني والعشرين من تموز — وفي خلال تلك المدة — كيف ان كتيبة عربية خرجت من حمص مغيرة على جنودي في تل كلخ فانهزمت الكتيبة واخذ منها ١٥ اسيراً بينهم ضابطان وثلاثة مدافع رشاشة فاصبح من الواجبات المحتمة ان نعاقب هذه الخيانة ، وفي ليل الثالث والعشرين من تموز اعطيت اوامري بالمهاجمة ، وكنت شديد الوثوق

بادراكه الثاقب لانني قضيت اربعة اعوام كاملة في ممارسة المعارك الكبرى وكنت واثقاً ايضاً من بسالة جنودي الباهرة ومن قوة السلاح الذي يحملونه في ايديهم

وفي صباح الرابع والعشرين من تموز تداعت قوى الجيش الشريفي بعد معركة دامت ساعات ولولا حكمتكم في قبولكم الخضوع لما كانت مدينة دمشق تخلصت من التدمير تحت وابل القنابل

ويجب ان تعتقدوا ايها السادة بانني لا اسر بذكر الحوادث التي كان الباعث اليها خطأ حكومتكم فقد كانت عاملاً قوياً على اذكاء العداوة ولكنني اردت ان اشرح بكل ايضاح ان فرنسا بالغت في خطة الصبر وان المسؤولية في ذلك تقع على الحكومة السابقة وعلى الامير فلنغض الطرف عن الماضي ولننظر الى المستقبل

ان سلوك الجنود الحسن دليل على حسن نظامهم وبسالتهم كما انه دليل قاطع يقضي على تلك الاهانات والسباب التي كانت توجه اليهم

انكم تنتظرون مني كلمات تطمئنون اليها وتعلمون منها نيات فرنسا فلاذكر لكم ماقلته في منشوري وان كان ذلك من باب التكرار

ان فرنسا ترغب بل انها ترى من واجباتها انجاز شروط الانتداب التي عهد اليها مؤتمر السلام ولكنها وفقاً لتقاليدها التاريخية في هذه البلاد ترى من نفسها دافعا الى تحقيق ما هو صالح ومفيد لسوريا وانماء ثروتها وصيانة استقلال شعوبها وقد اعترفنا بتلك الحرية بصورة خارقة للعادة

ان فرنسا تود ان تساعد هذه الشعوب بتنظيم المصالح العامة وانفاق الاموال في استثمار منابع الثروة المحلية

افلا يعد بيروغرادنا هذا عقليا ركثير التناقض ؟ ان النجاح لا يدرك الا اذا تعاون الفريقان واتحدا اتحاداً لا يستغنى عنه الانتداب واني هنا اكرر ما قلته لكم وهو انا لم نأت الى هذه البلاد بقصد التسلط عليكم ولا بصفة مستعمرين ولا بصفة اعداء للاسلام ولو لم تشهد لي ايامي السالفة وما لدي من الاصدقاء من المسلمين وما لي من عواطف الاحترام للدين الاسلامي والميل الى المسلمين كميلي الى المسيحيين لكفت الثمانية اشهر التي قضيتها في سوريا ان توجد في عطفاً حيال المسلمين

انكم اذا قمتم بالشروط التي قدمتها في انذاري والتي كانت نتيجة اعمال اولئك المتهوسين فانكم ستجدون مساعدي وانا ايضاً مستعدين للخدمة في ظل السلم لمساعدة سوريا على انهاضها ورقيها»

السلام هو ضروري جداً لسوريا كافة ولكن الشام في حاجة اليه اكثر من بيروت لقرب هذه الاخيرة من البحر وقد كان الضرر على الشام اشد مما كان على غيرها بسبب الخطة السيئة التي كانت ترمي الى احداث حاجز بين شعبين ليس في وسع احدهما الاستغناء عن الاخر على ان ذلك الحاجز قد انثل وهدمه مدفع خان ميسلون وسابذل مجهودي في هدم ما كان على شاكلته ومثاله و بعد ان تحرروا من تلك القيود الاقتصادية التي كثيراً ما الحقت الضرر بتجار الشام بعدم تخلصوا من قيود الخدمة

العسكرية الثقيلة ستصبحون في مأمن من كل المكاره فتحولوا مجهوداتكم الى استقصاء منابع الثروة في البلاد فتزدهر زراعتكم وتجارتكم وصناعتكم

ان صبري الطويل حيال الحكومة القديمة، واعتدالي في المفاوضات ثم تلك المعارك تدل دلالة صريحة علىّ اني احترم تقاليد وطني، واني لم آت الى سوريا ظامئاً الى المجد العسكري، فحسبي ورفاقي ما نلناه من مفاخر الحرب الكبرى

أن اقصى منازعي ومطامعي هي ان اشتغل لخير سوريا برمتها وستكون مجهوداتي مبذولة بصورة خاصة في سبيل اسعاد هذه المدينة التي هي لؤلؤة الاسلام المرصعة بزمرد فراديسها الغناء

انكم يامعشر السوريين في اشد الحاجة الى مشاركتكم فلا تبتعدوا عنا واقبلوا يدي الممدودة الى مصافحتكم باسم فرنسا

سوريا في مجلس شيوخ فرنسا

وفي ٢٩ تموز وقف المسيو ميلران رئيس الوزارة الافرنسية في مجلس الشيوخ وفاه بايضاح نأخذ منه ما يلي :(١)

اذا كنا رجونا الامير فيصل ان يرجع الى الحجاز فليس لان فلاناً او فلاناً من المأمورين الافرنسيين قصد خلعه، بل لان حكومة دمشق الحجازية وضعت كل صعوبة في وجه المساعدة التي استعدت لها كل سلطة افرنسية .

(١) الطان في ٣٠ تموز سنة ٩٢٠

فالامير فيصل واعوانه بينما كانوا متوسدين الراحة في الشام نظموا كل القلاقل والحوادث في كل بقعة خفق فيها لواؤنا . فعلوا ذلك ليقلقونا ويثيروا ضجرنا من سوريا كلها . وليفهموا العالم باسره ان الثورة تلتهم كل مكان فيه افرنسيون

لهذا اضطرونا الى احتلال الشام واذا كان يوجد من يلوم فرنسا على شيء فيجب ان تلام لانها تركت لاعداء لا يريدون الصلح وقتاً طويلاً ليتعلموا كيف يستعملون ضدها المدافع والرشاشات . ان حلفاءنا البريطانيين في مثل هذه الظروف يكونون اقل صبراً منا

الى ان قال : هذا عن الماضي اما المستقبل فسياستنا في سوريا ستكون سياسة عمل مشترك مع الشعوب السورية

لا تسلط في سوريا ولا حروب انما نمرن على الحرية وسلم دائم . سلم يليق بنا ويزيدنا قوة هذا ما تريده الحكومة وهذا ما قرره مجلس الشيوخ

الاصوات المزعجة وفلسطين

لا انهي كلاتي قبل ان القي نظراً على قضية فلسطين

كانت غاية الاحزاب التي انشأها الامير عدم تجزئة سوريا والوحدة التامة فيها اي ابقاءها مع فلسطين كتلة واحدة . وكان المعارضون في الانتداب الفرنساوي يقولون من جملة ادلتهم اذا خرج الفرنسيون من سوريا تصبح كلها العاملة واحدة تحت العلم السوري الذي يجب ان يخفق ايضاً على فلسطين

على انه الدهاء السياسي لم يكن من صفات الامير ورجاله . فقد كان من الواجب ان يرفضوا الانتداب الانكليزي على فلسطين كما رفضوا الانتداب الفرنسوي على سوريا و يذبحوا اليهود في فلسطين كما ذبحوا النصارى في مرجعيون فلربما انطلت الحيلة على البسطاء ، ولكنهم اغفلوا ذكر فلسطين وما طالبوا مرة بحقوقهم على السواحل وقابلوا قرار المؤتمر بجعلها وطناً قومياً لليهود مقابلة العارف بالمسألة قبل وقوعها

اما الوحدة السورية وجعل سوريا كتلة واحدة فقد كانت هينة لو لم تكن فلسطين قد اصبحت وطناً صهيونياً . اما وقد تم الامر ورسخت قدم الصهيونيين فقد اصبح من واجب كل سوري ان يطلب الانفصال السياسي والاداري التام عن تلك المقاطعة التي اصبح ربعها في مدة عشر سنوات وقبل قرار الدول صهيونياً

فمستعمرات اليهود التي انشئت قبل الحرب وتجارتهم وشركاتهم ومدارسهم ونواديهم حتى و بيوتهم هي خير شاهد على تفوق اليهودي وغناه وعلى مقدرته الغريبة في ابتلاع كل ما حوله

ولا نعلم اذا كانت الصدف او العناية الغير محدودة هي التي دبرت الامور وجعلت الدولة المنتدبة لسوريا غير الدولة المنتدبة لفلسطين . فلو كانت سوريا واحدة لاوصل اليهود مستعمراتهم الى سواحل لبنان

لا اقول هذا كرهاً للصهيونيه . فللصهيونيين الحق بالحياة كبقية الشعوب وهم يطلبون زاوية على هذه الكرة الارضية يلجأون اليها كبقية البشر . وليس من منصف لا يقر لهم بهذا الحق

على ان الصهيونية تشتغل لنفسها ولا يمكن للسوري او اللبناني الامتزاج مع الصهيوني الا اذا دخل معدته ودخول معدة اليهودي يعني السوري يترك له املاكه وتجارته ومزارعه ليتخلص من مزاحمته . اما مزاحمة اليهود فلا يجب ان تخطر على بال السوريين لان تجار فلسطين جربوها قبل الحرب وعرفوا نتائجها وهذه قضية بسيطة يفهمها الاولاد وليس من يجادل فيها

اذاً فصل سوريا عن فلسطين الصهيونية ليس سبب خراب لها كما يتوهم البعض بل هو اعظم عامل لحفظها ليفيها . ووجود الصهيونيين في مقاطعة متاخمة لسوريا اكبر

هاقم فالسوريين على الاعتداء بالشعوب العاملة الحية النشيطة التي تعيش لغاية مجيدة

ان سوريا وفلسطين مقاطعتان كبيرتان تزيد كل منهما مساحة ارقى ممالك اوروبا ويمكن للقطريين ان يستفيدا افادة كبرى من الرجال العظام الذين يمثلون الدولتين القويتين

اما اذا كان هؤلاء الرجال سيقضون اوقاتهم في مطاردة رجال العصابات واذا كان الشعبان السوري والفلسطيني سيجعلان السياسة عملها الوحيد فما علينا سوى ان نبشر القطريين بخراب قريب عاجل ·

لتسكت الاصوات المزعجة الاصوات التي تنعق فوق رؤوسنا كما ينعق البوم فوق خرائب تدمر

ما لسوريا ولاعمال الشقاوة التي تهددها بالموت ؟ اي عار سيسجله التاريخ على السوريين اذا هم سمحوا للبداوة ان تنتصر على الحضارة ؟ واذا تركوا بلادهم ساحة يقتتل فيها الناس باسم الدين ؟

سوريا على سواعد فتيانها

والان وقد انقضى الحلم المزعج · الان وقد اختفى شبح المذابح والقلاقل فلا امل لسوريا بغير فتيانها ولا تبقى «سوريا للسوريين» الا اذا تجددت روح الفتيان فيها

ان سوريا بحاجة الى فتيان ذوي سواعد متينة وقلوب قوية الى فتيان يعرفون معنى الحمل الذي سيلقى في اكتافهم

اجل ان التاريخ القى على اكتاف فتيان سوريا كل ما اصاب سوريا من الويلات في العصور القديمة والمتوسطة والحديثة · فعلى هؤلاء الفتيان ان يكونوا ابطالاً اشداء · عليهم ان يبنوا في ربع قرن ما اهمله غيرهم في قرون وعليهم ان يهدموا صروح الجهل والتعصب والغباوة والكسل والذل والتذبذب وكل ما تركته الاجيال المظلمة في سوريا

على فتيان سوريا ان يسالموا اوروبا القوية وعليهم ان يستفيدوا من علم بنيها واختراعاتهم ونشاطهم وتقدمهم · عليهم ان يسيروا على الطريق الذي سارت عليه اوروبا حتى نالت التفوق على الشعوب الشرقية وعليهم — قبل كل شيء — ان يبثوا في سوريا روح السكينة والسلام فالبلاد عطشى الى الهدوء والراحة



في المجلس العرفي الاولي

محاكمة المتهمين

في حوادث دمشق



طبع في دمشق على نفقة ادارة جريدة العمران
لصاحبها الياس قوزما

مقدمة الكتاب

سوريا قطعة من جسم الامبراطورية العثمانية المترامية الاطراف ، الواسعة الملك ، جاءها عصر ازدهت فيه مدنيتها حتى باهت ممالك العالم مدنية وحضارة وعظم شأن ابنائها حتى فاخرت أمم الارض قاطبة بنبوغهم وتفردهم وابرازهم في الفنون والعلوم وما اشبه ذلك فجابوا القفار وقطعوا البحار سعياً وراء المجد الذي لم يزل التاريخ يسطره لهم على صفحاته طروباً فخورا

هذه القطعة الصغيرة من جسم تلك الامبراطورية العظيمة بعدان مضى عليها زمن طويل قاست خلاله من الآلام ما قاست وتحملت من الشقاء ما تحملت بعد ان اجتاحها فاتحو الترك سعرت بوجوب التخلص من نير كان شديد الوطأة على عنقها فقام بعض ابنائها المخلصين يحاول فصلها عن تلك الامبراطورية التي عملت على جعلها في مؤخرة الامم بعد ان كانت في طليعتها فنظموا الجمعيات والفوا الاحزاب وشرعوا تخابرة دول الغرب للاستعانة بهم على نيل امنية تمهيدية وضعوها في ذلك الحين نصب اعينهم هي الاستقلال الاداري مع بقاء البلاد مرتبطة بجسم الدولة العثمانية ولكن الحرب الكونية العظمى التي وقعت عام ١٩١٤ فاجأتهم فاكتشف جمال باشا قائد الفيلق الرابع جميع المخابرات التي جرت بين اولئك الاحرار والحكومات الاوربية بمساعدة بعض السوريين الذين ملأ جيوبهم بدنانيره ففضلوا التمرغ بأوحال الخيانة ولا يزال اكثرهم احياء يرزقون حتى كتابة هذه السطور

اما جمال باشا فنفى من نفى وعذب وشبر البعض وشنق البعض الآخر واعدم آخرين رمياً بالرصاص واغتال سواهم اغتيالا وهكذا قضى (على زعمه) على فئة الاحرار واستتب له الامر

غير ان هذه الفكرة فكرة الانفصال والحكم الذاتي مابرحت نارها تتأجج في صدور السوريين حتى انتهت الحرب القائمة بفوز دول الحلفاء على اعدائهم في الغرب والشرق وبذلك تم انفصال سوريا كما اراد ابناؤها المخلصون ومنحت حق الحكم الذاتي تحت اشراف دولة اجنبية تدربها عليه الى ان تتمكن من ادارة شؤونها بنفسها فتترك لها مقاليد امورها اما ذلك الاشراف فيقتصر على ابداء المشورة واسداء النصيحة ومنح المساعدة اللازمة وعلى الاخص في المسائل الاقتصادية لان البلاد السورية فضلاً عن كونها فقيرة بطبيعة الحال فقد خرجت من تلك الحرب الضروس منهوكة القوى خائرة العزيمة بعد ان فقدت عدداً عظيماً من ابنائها ذهبوا ضحية الجوع والفاقة

...

مسحت عزيمة الدول الكبرى على تأليف جمعية يطلق عليها اسم عصبة الامم تنظر في مشاكل العالم وتحلها حلاً عادلاً تراعي فيه حقوق الفريقين المختلفين فتكون بمثابة محكمة عليا وقد ارتبطت هذه الجمعية بقانون خاص جاء في المادة ٢٢ منه ان الاقطار المنفصلة عن بلدان الاعداء تمنح استقلالاً ذاتياً وتنتدب احدى دول الحلفاء لمراقبة ذلك الاستقلال . ولما كانت الاقطار المنفصلة تتفاوت رقياً ومدنية قسمت تلك المادة شكل الانتداب الى ثلاثة اقسام « A, B, C » فكانت سوريا وفلسطين والعراق من درجة « A » اي ان هذه البلدان يحق لها ان تبدي رأيها في تقرير مصيرها ولها الحق باختيار الدولة المنتدبة فتشعبت الآراء وكثرت الاحزاب فايد البعض الانتداب الافرنسي وآخر الانكليزي وآخر الاميركي وقال سواهم بالاستقلال التام دون ما حماية او وصاية واخذ كل من هذه الاحزاب يسعى الى تحقيق امانيه وبلوغ غايته سالكاً كل سبيل وطارقاً كل باب

كان على رأس سوريا الداخلية من كيليكيا حتى العقبة الامير فيصل بن الحسين ملك الحجاز فكانت تتمتع بالحكم الذاتي المطلق فاختارت لها علماً خاصاً وكان لها مجلس نيابي فقرر باجماع الآراء تسمية الامير فيصل ملكاً فنودي به ومنحه الشعب لقب صاحب الجلالة

ولما كانت الجيوش الافرنسية المحتلة شواطئ سوريا مشتبكة في حرب مع

اتراك الاناضول طالبت قيادتها رسمياً من السلطة الوطنية في الداخلية السماح لها ببعض امتيازات موقتة على الخط الحديدي الممتد من رياق الى حلب لتأمين التنقليات العسكرية فابت عليها ذلك واذ ذاك وقعت الحرب بينهما وكان من امرها ما كان ودخلت الجنود الافرنسية هذه المنطقة بمساعدة بعض ابناء المنطقة نفسها مما يعرفه الجميع واذ ذاك فصلت البلاد الواقعة جنوبي سوريا وتشكلت لنفسها حكومة بمساعدة السلطة الانكليزية في فلسطين اطلق عليها اسم حكومة شرقي الاردن

هذه بعض اطوار القضية السورية التي ما برحت ترينا في كل يوم مظهراً جديداً من مظاهرها العديدة على اختلاف اميال السوريين وتباين مطالبهم الى ان كانت الحادثة التي نحن بصددها الآن وها نحن نسرد تفاصيل الحادثة كما جرت دون ان نغفل اقل شيء منها وقد اذاعت الصحف الشيء الكثير من تلك التفاصيل



٥

تمهيد

يوم السبت الواقع في ٢ نيسان سنة ١٩٢٢ قدم دمشق حضرة شارلس كراين رئيس البعثة الاميركية التي قدمت سوريا عام ١٩١٩ لاستفتاء اهلها في تقرير مصيرهم فاجتمع بفريق من وجهاء دمشق في بستان الحياة في الصالحية وفي ٤ منه عقد اجتماع اخر في بستان عبد الرزاق الحكيم في الميدان وفي ٥ منه عقد اجتماع ايضا في القصاع في بستان الكزبري وفي ٦ منه ام نزل (دمسكوس بلاس) حيث كان المستر كراين نازلا جم غفير قصد وداعه ومنذ ذلك الحين بدأت المظاهرات تتوالى في دمشق كما يتبين من سير المحاكمة واقرار الشهود ومدافعة المدافعين والمتهمين.

ابتدأت المظاهرات الاولى الساعة الحادية عشرة من يوم الخميس الواقع في ٦ نيسان سنة ١٩٢٢ وحوالي الساعة الثالثة قبض على كل من الدكتور عبد الرحمن شهبندر وزير الخارجية على عهد الحكومة العربية وحسن بك الحكيم ناظر البرق والبريد في ذلك العهد ايضا والمحامي سعيد بك حيدر ومنير افندي شيخ الارض احد طلبة الطب في المكتب الطبي العربي في دمشق

وفي اليوم الثاني قبض على نحو اربعين شخصاً اخلي سبيل البعض بعد التحقيق وبقي الدكتور خالد افندي الخطيب وتوفيق افندي الحلبي صاحب جريدة الراوي التي كانت تصدر في دمشق قبل الحرب ومحمد عبد الوهاب افندي العفيفي المصري التبعة

يوم السبت الواقع في ٨ نيسان سنة ٩٢٢ اعلن القائد غورو في الاحكام العرفية في دمشق وتشكلت محكمة عسكرية لمحاكمة المقبوض

عليهم



الفصل الاول

تشكيل المحكمة العسكرية

يوم الثلاثاء الواقع في ١٨ نيسان اجتمعت هيأة المحكمة العسكرية في بناية العابد وهي مؤلفة من

رئيس — ليوتنان كولونيل الاريث

اعضاء — القائد جانيس ، الرئيس غوني ، المعاون الاول بيرساي

المدعي — الرئيس بوني

الكاتب — معاون اول ليغيك

المتهمون — الدكتور عبدالرحمن شهبندر ، منير افندي شيخ الارض ، توفيق افندي الحلبي ، الدكتور خالد افندي الخطيب ، حسن بك الحكيم ، المحامي سعيد بك حيدر ، محمد عبد الوهاب افندي العقيلي (مصري)

المدافعون — جلال بك ، فارس بك الخوري ، سعيد افندي محاسن ، الياس بك نمور ، الملازم جيمس ، الملازم شفالية ، الملازم لبين

وجه التهمة — (١) السعي التام لتغيير هيأة الحكومة وقد عقب ذلك
فعل مقترف او مبتدأ به لتهيئة تنفيذه
(٢) التحريض التام غايته تغيير هيأة الحكومة في هذه
الازمة المتزايدة وقد عقب ذلك فعل مقترف او مبتدأ
به لتهيئة تنفيذه .

جرائم منتظرة — يعاقب عليها بموجب المواد ١٨ ، ٨٧ ، ٨٩ من قانون
الجزاء والمواد ٢٤ ، ١٢ حسب قانون المطبوعات المعلن
في ٢٩ تموز عام ١٨٨١ والمادة ٢٦٧ من قانون العدلية
الحربي المعلن في ٩ آب عام ١٨٤٩ والمعدل بموجب
قانون ٢٧ نيسان عام ١٩١٦ بما يتعلق بالحكم العرفي .



الفصل الثاني

استجواب المتهمين

عقدت الجلسة الاولى الساعة السابعة ونصف من صباح يوم الثلاثاء الواقع في ١٨ نيسان سنة ١٩٢٢ وكان المتهمين جالسين على مقاعد خاصة فدعي المتهم الاول الدكتور عبد الرحمن الشهبندر فوقف والقيت عليه الاسئلة التالية :

الرئيس — لقد تلقيت من الجامعة الاميركية في بيروت نبأ يشعر بوصول (كراين) الى دمشق فاعددت معدات استقباله وهيأت للاجتماع فريقاً ممن اشتهر عنهم الاستياء من الحالة الحاضرة وسهلت اتصالهم به فعقدتم ثلاث اجتماعات في ٢ و٤ و٥ نيسان فقمتم بعدها بالمظاهرات

الدكتور شهبندر — تلقيت في اول نيسان نبـأ من المستر نيكولي وكيل رئيس الجامعة الاميركية في بيروت يشعر بوصول المستر كراين الى دمشق ولم يكن هذا الامر مجهولا فقد اذاعته صحف مصر وفلسطين من قبل وبما اني احد خريجي تلك الجامعة وصديقا للمستر نيكولي اجله

واحترمه وصديقاً للمستر كراين ايضا منذ عام ١٩١٩ عندما جاء سوريا على رأس اللجنة الاميركية الاستفتائية رأيت انه يجب علي ان اقوم بكل ما يمكن من احترامه ما دام مقيما بيننا

الرئيس — انا لا الومك على استقبال المستر كراين او اكرامك اياه ولكنني أؤاخذك على ما دبرته من الاجتماعات والمظاهرات التي افضت الى حدوث جرائم

الدكتور — انا لست مسؤولا عن اي اجتماع او مظاهرة لانني كنت اصحب المستر كراين لاقوم بترجمة ما يطرح عليه من الاسئلة وما يجيب هو به

الرئيس — في ٢ نيسان الم تعقدوا اجتماعاً في بستان الحياة بالصالحية؟

الدكتور — نعم اجتمعنا

الرئيس — وجميع الذين حضروا ذلك الاجتماع الم يكونوا من المعروفين بالموالاة للحكومة الشريفية وبالكره للحكومة الافرنسية ؟

الدكتور — كلا بل كان هناك فريق من اعز اصدقاء السلطة

الرئيس — سواء كانوا من اصدقاء فرنسا او اعدائها فقد جاؤوا بدعوة منك

الدكتور — لم ادع احداً

الرئيس — لقد القيت خطابا في ذلك الاجتماع

الدكتور — كذب من ابلغكم فانا لم اخطب مطلقا بل كنت انقل كلام الحضور الى المستر كراين وكلامه اليهم . انا لا اكذب فما قلته

هو الصديق اما مانقل اليكم فهو محض افتراء

الرئيس — لدي صورة من خطابك وقلت فيه ان العرب بذلوا جهدهم في الوصول الى استقلالهم فكان جزاء عملهم حرمانهم من الاستقلال ومكافأتهم بالذل والعبودية وقد حاولت مخادعة الجمهور بادعائك ان المستر كراين مندوب من قبل عصبة الامم

الدكتور — لقد سبق وقلت لك انني لم اخطب في ذلك الاجتماع وقلت عن المستر كراين انه المندوب السابق لجمعية الامم لا في الحاضر

الرئيس — اذن لم تدع احدا للاجتماع ؟

الدكتور — احب ان تدعوا لي من يشهد بانني دعوته الى الاجتماع وكنت اصحب المستر كراين كترجمان فقط

الرئيس — كان الاجتماع اذن بطريق المصادفة ؟

الدكتور — طلب كثيرون من المستر كراين ان يلبي دعوتهم

الرئيس — من هم ؟

الدكتور — لست جاسوسا لاذيع خفايا الناس واسرارهم

الرئيس — يوجد رجل قال انه دبر وايانك هذا الاجتماع

الدكتور — ومن هو ذلك الرجل ؟

الرئيس — حسن الحكيم

الدكتور — وهل تريدون ان اسأله ؟

الرئيس في ذلك الاجتماع كنت انت وسعيد حيدر تستقبلون الجموع

الدكتور — انا لم اكن مستقبلا للناس بل كنت ترجمانا للمستر

كراين ليس الا

الرئيس — لقد القيت خطابا في ذلك الحين

الدكتور — اعود فاؤكد لكم انني لم القِ خطابا مطلقا لا في ذلك الاجتماع ولا في سواه

الرئيس — كنت تظهر رغائب الحضور وامانيهم وقد قلت بوجوب اسقاط الحكومة واستبدال رجالها والمناداة باستقلال البلاد

الدكتور — هذا زعم جناة كاذبين وانا لم اقل شيئا من ذلك

الرئيس — اذن ما الذي كنت تنقله من كلام الاهلين الى المستر كراين

الدكتور — لقد كان اكثر ما ترجمته مقتصرا على الحالة الاقتصادية فقد قال احد الحاضرين ان والده كان يدفع ٣٠٠ غرشا سنويا في زمن الحكم التركي وقد بقي في هذه البلاد ثلاثين سنة تاجراً ولم يتجاوز ما يدفعه من التمتع ذلك المبلغ المذكور اما اليوم فيأخذون منه ١٧٠٠٠ غرشا سنويا وقال غيره انه كان يدفع ايام الحكومة الماضية ١٥٠ غرشاً فاصبح اليوم يدفع ١٣٦٠ غرشاً

الرئيس — كان ذلك في ايام تركيا ام في ايام غيرها ؟

الدكتور — في ايام تركيا والحكومة الوطنية

الرئيس قد قلت في خطابك ان التقرير الذي طلبتم فيه انتداب اميركا قد ضاع وان الانتداب الافرنسي غير رسمي

الدكتور — لقد كنت اترجم كلام المستر كراين الذي قال بان التقارير التي جمعناها من سورية والتي عرفنا منها رغبة السوريين

بالاستقلال التام قد القيت في زوايا الاهمال في وزارة الخارجية الاميركية وقد حشنا الى سورية في الماضي رسلا امناء وتذهب منا اليوم رسلا امناء ايضا وكان هذا جوابا من المستر كراين على سؤال وجه اليه عن نتيجة تقرير اللجنة الاميركية

الرئيس — ثم حدث اجتماع آخر

الدكتور — اين ومتى ؟

الرئيس — في بستان عبد الرحمن الكزبري في ٥ نيسان

الدكتور — نعم ولكني لا اذكر التاريخ

الرئيس — وكان الاجتماع لامضاء مضابط وكنت انت الداعي اليه

الدكتور — ارد هذا الكلام رداً باتاً

الرئيس — وعند ما خرجت من الاجتماع سألت جمهورا من الشبان هل انتم ثابتون على افكاركم وحرضتهم على المناداة بالاستقلال والمجاهرة بعداوة الانتداب

الدكتور = لا اذكر شيئاً من ذلك وانني لا ابرح ارفض كل انتداب فرنسوياً كان او انكليزياً او اميركياً

الرئيس = قلت ليحيي الاستقلال وليحيي كرين وولسون والشعوب الحرة

الدكتور = قلت ذلك وقاله الكل ولكل انسان الحق في ان يقول ذلك ويحيي الاستقلال والحرية

الرئيس = في ٦ نيسان جئت فندق داماسكوس والقيت امام المستر كراين خطابا اجابك عليه بمثله

الدكتور = جئت الفندق لاودع المستر كراين فوجدته في غرفته ثم نزلنا معا فرأينا جمعا من الناس جاءوا لتوديع الضيف فدعاني المستر كراين للذهاب معه ومخاطبة جمهور المودعين

الرئيس = وهل كلمت الاشخاص الذين اتوا امام الفندق ؟

الدكتور = لقد تكلمت امامهم بما لا يخرج عن حد المجاملة

الرئيس — هل كنت راكباً ام ماشياً ؟

الدكتور — مشيت اولا ثم ركبت مع المستر كراين لاكون ترجماناً له

الرئيس = ماذا كنتم تقولون ؟

الدكتور = كنا ساعة التوديع في حالة انفعال نفسي فكنا نصيح ليحي الاستقلال لتحي الحرية مظهرين في هذا الهتاف اعجابا بهذا الشخص المحبوب الذي جاء سوريا لانتخاب فتاتين تتعلمان على حسابه في امريكا وهما الآنستان نازك العابد واليس قندلفت

الرئيس = هل كان انفعالكم هذا نتيجة اجتماع اربعة ايام ؟

الدكتور = كلا فان الدموع التي كانت تجري من اعين الناس كانت بنت ساعتها وقد سببها شعور الالم الذي يشعر به كل سكان هذه البلاد

الرئيس = كنتم تصرخون ليسقط الخونة وليسقط الظالمون ولتسقط الحكومة ولنمت في سبيل بلادنا

الدكتور = لم ينطق احد منا بغير كلمة ليحي الاستقلال ولتحي الحرية

الرئيس = انك قلت امام دائرة الشرطة ان فرنسا بعفوها عن المجرمين السياسيين تشجعنا على طلب الاستقلال

الدكتور — لم اقل شيئاً من ذلك

الرئيس — قلت امام فندق فكتوريا انتحي شجرة الاستقلال النامية

الدكتور — كنت اتكلم باللغة الانكليزية وقلت ذلك

الرئيس — هتفت عند سفر السيارة قائلاً : مع السلامة الى الملتقى بحضرة المندوب وفي تلك الاثناء حملك الشعب على اكتافه

الدكتور — هل تكره يا حضرة الرئيس ان اكون محمولا على اكتاف الشعب

الرئيس — كلا

الدكتور — ان الشهبندر قضى عشرين سنة في خدمة استقلال وطنه ونصرة قوميته فرجل مثل هذا الا يحق له ان يحبه الشعب ويحمله على الاكتاف

الرئيس — انك تحاول بمناسبة عفو فرنسا عن المجرمين السياسيين ان تتظاهر بالتودد لها ومحبتك اياها

الدكتور — كلا انا لا احب فرنسا ولا اتوددها وعندي ان انكلترا وامريكا وفرنسا شعوب واحدة لا فرق بينهم

الرئيس — في اليوم الذي اوقفتك فيه الشرطة وجد معك حوالة بنصف دولار بامضاء مستر كراين

الدكتور — ان تلك الحوالة تسبب لي فخراً

الرئيس — ما هو الغرض من تلك الحوالة ؟

الدكتور — ان في نية المستر كراين تعليم فتاتين الواحدة مسلمة والثانية مسيحية على نفقته في مدارس اميركا اسوة بخالدة اديب

الشاعرة التركية التي تعلمت على حسابه

« وهنا قام المحامي اليأس بك نمور واراد ان يتكلم »

(فقال الدكتور شهبندر دعني ادافع عن نفسي وانفي التهمة التي لحقت بي واكشف للمحكمة امر الحوالة)

الرئيس — لا يهمني امر الحوالة ما دامت لم تدفعوانا اؤمن بكلامك ولكن بعد ايقافك ظهرت في المدينة مظاهرة

الدكتور — لا اعرف شيئاً مما حدث اذ كنت في سجني

الرئيس — ان المظاهرات حدثت عن اوامر صدرت من السجن والادلة متوفرة

الدكتور — اروني تلك الاوامر

الرئيس — « يقرأ صورة الاوامر وهي : اقفلوا المدينة حتى موعد المحاكمة » انك لم تكتب هذا المنشور ولكنه خرج من السجن ورجال الدرك السوري هم الذين اذاعوه وبلغوه

الدكتور — لا علم لي بشيء من هذا ولا نصيب له من الصحة

الرئيس — لقد تبين لنا ان المظاهرة التي حدثت في ١٠ و ١١ نيسان كانت من الاشخاص الذين اطلق سراحهم وكانوا يتلقون اوامرهم منك في اثناء اعتقالهم

الدكتور — لم اعط امراً لا في السجن ولا في غيره

الرئيس — في ٩ نيسان القيت في السجن خطابا صرحت به للمسجونين بكل ما تداولتم فيه في الأجتماعات الماضية وقلت ان

الولايات المتحدة مهتمة بامر سورية ثم حادثت المعتقلين على القرآن

الدكتور — كنت اقص على الرفاق حوادث سفري يوم فررت من مظالم جمال باشا الى العراق والهند ومصر

الرئيس — الك ما تقوله بعد

الدكتور — انني اشكو من المعامله التي عوملنا بها والسجن الذي وضعنا فيه فانه لا شمس فيه ولا هواء وقد منعنا من الخروج لاستنشاق الهواء النقي

الرئيس — ولكن هذا السجن لم تبنه الحكومة الفرنساوية فهو موجود من قبل وقد كان في زمن الحكومة الفيصلية

الدكتور — كان يمكن للحكومة ان تضعنا في منزل او بناية اخرى غيره

وهنا ختم الرئيس اسئلته التي كان يجيب عليها الدكتور برباطة جأش وجرأة وكان يدافع عن نفسه وينزهها عن الوقوف موقف الخيانة ومما قاله المستر كراين عنه انه لم يدع الى مظاهرة او فتنة وانه يربأ بنفسه ان تنزل منزلة لا تليق بحسن سمعته قال ايضا عن كراين انه رسول كريم جاء يحمل بشارة السعد الى هذه البلاد

انتهى دفاع الدكتور شهبندر

ونهض حسن بك الحكيم بعد الدكتور شهبندر

الرئيس — (يخاطب حسن بك الحكيم) اتعرف المستر كراين قبل المرة الاخيرة ؟

حسن بك — نعم اعرفه منذ عام ١٩١٩ يوم كانت رئيساً للبعثة

الاميركية التي جائت بلادنا لاستفتاء اهاليها وقـد توثقت بيني وبينه عرى المودة منذ ذلك الحين

الرئيس ــ لقد كنت مساعداً للدكتور شهبندر في تهيئة الاجتماعات المار ذكرها وسهلت للمستر كراين الاجتماع بعدد من الشريفيين

حسن بك ــ لقد كان من حاضري اجتماعاتنا جماعة ممن اشتهروا بموالاتهم للانتداب الافرنسي

الرئيس ــ هل كنت حاضرا في اجتماع ٤ نيسان في الميدان

حسن بك ــ نعم وكان الاجتماع في بستـان والدي · وانني كنت صبيحة ذلك اليوم في بيتي وطلبت لمقابلة جماعة في باب المصلى فذهبت اليهم فقالوا لي انهم يبحثون عن محل يستقبلون فيـه المستر كراين الذى يريد زيارة الميدان وطلبوا ان يكون الاجتماع في بستاننا فاجبتهم على الرحب والسعة وفي الساعة الرابعة من النهار توافدت على البستان جموع كثيرة عرفت بعضهم ولم اعرف كثيرين منهم · وعنـد وصول المستر كراين يصحبه الدكتور شهبندر نهض الجميع وحيوه ثم تكلموا في بعض المسائل الاقتصادية وكان الدكتور شهبندر يقوم بالترجمة

الدكتور شهبندر ــ سله ياحضرة الرئيس اذا كنت القيت خطاباً في ذلك الاجتماع ام لا

الرئيس ــ هل تكلم الدكتور شيئاً ؟

حسن بك ــ كلا بل كان يترجم اقوال الاهالي الى المسـتر كراين وكان ينقل اقوال المستر كراين اليهم ؛

الرئيس — (يخاطب حسن بك) وانت القيت خطابا

حسن بك — كلا بل على حسب العادات الشرقية رحبت بالضيف الكريم كما هي عادات بلادنا

الرئيس — لم يكن الامر كما ذكرت بل انك وقفت خطيبا وقلت ان تونس والجزائر ومراكش والعراق وسورية ومصر بلاد عربية محضة فاذا لم يمنح العرب استقلالهم التام تتحد باسم الدين وتحدث انقلابا عاما وحربا هائلة لم يسبق للتاريخ البشري ان اتى بمثلها ثم رميت بطربوشك الارض وقلت اذا كان هذا الطربوش يحول بيننا وبين العمل فلا كان ولا قدر ان يكون . وبعده قرأت على مسامع الحضور العريضة التي نظمت واعطيتها الى المستر كراين

حسن بك — هذا اختلاق محض وما نقل لكم عن لساني ليس الا رواية مصطنعة زينها الجواسيس والمفسدون المضلون . اني لم اقل الا ليحيى الاستقلال التام الناجز واكرر هذه الكلمة امامكم ايضا ليحيى الاستقلال التام لا حماية ولا وصاية

وكنت ارحب بالحاضرين بصفتي صاحب المحل ولم اتكلم الا في بستان الحيات عند ما بحثوا في الاقتصاديات وبصفتي اخصائيا في المالية تكلمت عن الميزانية والضرائب التي وضعتها الحكومة ولم تراع فيها قواعد الاقتصاد وبينت وجوه الاسراف والتبذير في تكثير الوظائف وزيادة الرواتب والخروج في بذل نفقات لا لزوم لها ونفقات يمكن تأجيلها وهذا كل ما قلته

الرئيس — ان خطابك كان مفعما بروح الثورة كما ترى من فقراته

حسن بك — اكرر القول بانني لم اخطب وان ما نقل اليكم عن لساني انما هو من عمل الجواسيس وقد كان من جملة الحضور كما قلت اولا عدد اوفر من الذين يصانعون الانتداب الافرنسي ويجاملونه

الرئيس — ومساء ذلك اليوم اجتمعت باشخاص كثيرين

حسن بك — نعم وهل الاجتماع ممنوع ؟

الرئيس — لا

حسن بك — إذاً لماذا تحاكم ؟

الرئيس — لقد انتهت اعمالكم بجرائم

حسن بك — كلا

الرئيس — انكم لم تقوموا بتلك الجرائم ولكنكم عملتم لايجادها

حسن بك — اذا كنتم تحاكموننا عَلَى شعورنا فنحن عرب ونحب بلادنا ولا نريد سوى الاستقلال التام وثق اننا لا نريد فرنسا ولا انكلترا ولا اميركا

الرئيس — انبأ نساً لكم عن حوادث جرت

حسن بك — لم يجر شيء

الرئيس — يوم حفلة توديع المستر كراين كنت راكبت في سيارته وكنت تصيح ليحيي الاستقلال العربي

حسن بك — هل تريد المحكمة ان تناقشني الحساب عَلَى ما بدر مني من حسن الشعور نحو وطني او هل تريد ادانتي بجرم ارتكبته فاذا كانت

محكمتكم تحاسب الناس على شعورهم فانه ليسرني ويثلج صدري ان اذكر امامكم هنا هتافي للاستقلال والحرية لانني احب وطني واتمنى له ان يكون حراً مستقلاً بعيداً عن كل وصاية اجنبية او حماية غربية

الرئيس — ان المحكمة لا يهمها ان تحاسب الناس على شعورهم فلكل امرئ شعور وانا اعلم عنك الشيء الكثير واعرف شعورك جيد المعرفة وانما نحن الآن ننظر في العمل الذي نشأ عن مساعيك الم تكن في السيارة عند وداع المستر كراين

حسن بك — نعم كنت ارافق سيارته وذلك لاقوم بواجب اكرام رجل احب سوريا واراد لها الخير وكنت اجد في نفسي دافعاً يدفعني الى ذلك

الرئيس — وقد القيت خطاباً في ذلك الحين

حسن بك — لقد قلت سابقاً ان الذين نقلوا لكم كلامي قد شوهوه وحرفوه

الرئيس الم تسمع الدكتور شهبندر يقول للمستر كراين عند وداعه « الى الملتقى يا حضرة المندوب »

حسن بك — كان الدكتور يتكلم بالانكليزية فلم افهم شيئاً مما قال

(فتقدم الدكتور شهبندر وقال مخاطباً الرئيس) — اسمح لي يا حضرة الرئيس ان اقول لك انني لم القب المستر كراين بالمندوب بل لقبته بالرسول الامين ومعنى هذه اللفظة في لغتنا الكريمة هو من يرسل من السماء بمهمة لاسعاد البشر وانا اعتقد ان المستر كراين كان كرسول هبط

الينا من السماء لتخفيف آلامنا وتعزيتنا على مصابنا (قال هذا وعاد الى مكانه)

الرئيس (لحسن بك) — قبض عليك في ٨ نيسان وارسلت الى السجن وهناك قمت مع رفاقك بتدبير المظاهرات وتنظيمها اثارة للخواطر

حسن بك — بعد القبض علينا وضعنا في غرف منفردة ولم يسمح لاحدنا بمخاطبة الآخر وكان رجال من الشرطة مسلحون يحرسوننا فهل يمكن والحالة هذه ترتيب مظاهرات

الرئيس — ولكنك اوعزت الى رفاقكم في السجن الذين اطلق سراحهم بالقيام بتلك المظاهرات

حسن بك — لا علم لي بما حدث وقد كنت في سجن تحيط به الحواجز ويكتنفه الجنود المسلحون واقسم انني لم اسع قط لاقامة مظاهرة او تدبير هياج اما اذا كان اصدقاؤنا قاموا بمظاهرة فهذا محض شعورهم شعور احرار بابدائه

ثم دعي المحامي سعيد بك حيدر فقال له الرئيس — لقد احسنت اليك فرنسا وقلدتك منة عظمى بعفوها عنك بعد ان كنت محكوماً عليك بالاعدام وقد استفدت من هذا العفو فعدت الى سوريا بعد ان تعهدت بان لا تتعرض للشؤون السياسية فكيف جاز لك الاشتغال بها بالاشتراك بالحوادث الاخيرة

سعيد بك — قضيت ١ و ٢ نيسان في حماه حيث كنت ارافع بقضية لبعض موكلي وعدت الى دمشق في ٣ نيسان وكان معي في القطار

قائمقام الزبداني والمحامي عبد الكريم افندي الحسامي وعند وصولي اثبتت وجودي في دفاتر الشرطة فيتبين لكم من هذا انني لم اكن في المدينة عند وصول المستر كراين ولا يد لي في الاجتماعات وتدبيرها

الرئيس — الم تحضر احد تلك الاجتماعات

سعيد بك — دعيت في ٤ نيسان الى حفلة شاي في بستان الصديق حسن بك الحكيم في الميدان

الرئيس — من دعاك

سعيد بك — شريكي عادل بك العظمه وكان هناك عدد كبير من اشتهروا بصداقة فرنسا اذكر منهم الشيخ محمد المجتهد والشيخ تقي الدين نقيب الاشراف السابق والشيخ اسعد افندي الصاحب وهنالك اجتمعت بالمستر كراين وهو صديق لي عرفته عند ما قدم هذه البلاد رئيساً للجنة الاستفتاء الاميركية عام ١٩١٩ من قبل الرئيس ولسن ودول الحلفاء .

الرئيس — وقد القيت خطاباً في ذلك الاجتماع

سعيد بك — لم القِ خطاباً على الاطلاق وانما اعربت عن شعوري الخاص لصديقي المستر كراين انا رجل عربي اريد استقلال بلادي التي فطرت على حبها منذ خلقت فاذا كان يجوز في شرعكم محاكمتنا لمجرد حبنا لبلادنا فنحن لا نفتر عن المجاهرة بهذه المحبة واذا كانت محكمتكم هذه تمثل الحرية الافرنسية التي طالما تغنى بها شعراؤكم وكتابكم فنحن واثقون من ان جميع التهم التي حاول الناموس الصاقها بنا سترد وتتلاشى

اما اذا كان الامر بخلاف ذلك وكانت السياسة تقضي بوجوب الحكم علينا فعندكم من القدرة ما يخولكم ذلك واذا كانت محاكمتنا لمجرد شعورنا فلسنا اول من حكم عليهم في سبيل ثباتهم في مبادئهم

الرئيس — لستم هنا للمناقشة في المسائل السياسية ولا تحاكمون لاجل مبادئكم بل لانكم سببتم حدوث امور تخل بالامن وتعرض سلامة البلاد للخطر

سعيد بك — ان المسائل التي تشير اليها لا اصل لها على الاطلاق

الرئيس — لقد كنت حاضراً في الحفلة الوداعية التي اقيمت للمستر كراين في الفندق ثم مشيت مع المتظاهرين

سعيد بك — نعم حضرت حفلة الوداع ولكنني كما ترون رجل عاجز مقطوع الساق فلا يمكنني والحالة هذه ان اسير مع المتظاهرين او اشترك معهم وقد عدت لمزاولة اعمالي حالاً بعد ان ودعت المستر كراين وفي المساء قبض علي

(ثم دعي منير افندي شيخ الارض احد الطلبة في المدرسة الطبية فخاطبه الرئيس قائلاً) — انك متهم بالاشتراك في المظاهرة وتحريض الاهالي وقد خطبت امام دار الحكومة منادياً باسقاط الحاكم ومدير الشرطة واعوانه وقلت ليسقط الخائنون

منير افندي — انا من طلبة المدرسة الطبية وقد كنت ذاهباً اليها على عادتي في ٦ نيسان ولما بلغت السراي رأيت جموعاً غفيرة فسألت بعض المجتمعين فقيل لي انهم يحتفلون بوداع المستر كراين رئيس اللجنة

الاميركية التي جاءت سوريا عام ١٩١٩ لاستفتاء اهاليها في تقرير مصيرهم فاثار هـذا المشهد في نفسي حمية الشباب واندفعت معهم وقد كنت بعيدا عن السيارة لا فيها كما قيل لكم نعم اني هتفت للاستقلال فهل يعد الهتاف له جرماً ؟ وليس بكثير علي ان اهتف لاستقلال وطني وانا شاب كنت اتلقن منذ كنت تلميذا في مدرسة عينطوره الافرنسية مبادئ الحرية ومحبة الوطن وقد كان استاذي الافرنسي يقول لي دائماً حب وطنك واحترم قوميتك واعمل لخير بلادك ولذلك لم اتمالك نفسي عند هذا المشهد المهيب ان اهتف لاستقلال بلادي وحريتها .

اما ما نسبه الي الجواسيس من انني ناديت باسقاط حكومـة الانتداب فهذا افتراء محض وكذب صراح وانا على يقين من ان مدير الشرطـة ما فتئ يسعى للنيل مني لاغراض شخصية لا سيما وهو رجل مشهور بدعارته وفساد تربيته وقد اقام بيوتاً للفحش في المدينة ولمـا كنت من المعارضين في حدوث هذه الامور الشـائنة ابغضني هو وجاله الذين على شاكلته

(ثم دعي توفيق افندي الحلبي فخاطبه الرئيس قائلاً) :

ان التهمة الموجهة اليك هي انك كنت من العاملين على اقامـة مظاهرة ٧ نيسان اليوم التالي لسفر المستر كراين وقد حرضت النـاس في الجامع الاموي على القيام بها لاجـل تخليص المسجونين واسقاط الحكومـة

توفيق افندي = لقد القيت خطابا في مسجد بني امية وذلك بعد

ان بلغنا ان الحكومة قبضت على الدكتور شهبندر ورفاقه لانهم هتفوا لاستقلال بلادهم وحريتها . وكان ذلك الخطاب بغاية الاعتدال دعوت فيه الناس الى الذهاب بكل هدوء الى البعثة الافرنسية للاحتجاج على توقيف المعتقلين من قبل الحكومة المحلية وهكذا خرجنا من المسجد بالهوء والسكينة وكانت مظاهرتنا سلمية كالتي تحدث في جميع البلدان المتمدنة ولم يكن مع احد منا سلاحا يدل على ان الشعب يريد احداث فتنة او شغب واذا اردت فسل رجال الامن الذين كانوا بيننا

الرئيس = الست من ضباط الجيش الشريفي في شرقي الاردن

توفيق افندي = نعم ولكنني عدت من هناك منذ سبعة اشهر

(ثم دعي السيد عبد الوهاب العفيفي فخاطبه الرئيس بقوله) :

— لقد شاهدوك اعتليت السيارة امام فندق فكتوريا واخذت تخطب في المتظاهرين محرضاً اياهم على الفتنة وقد قلت في خطابك ان المصريين باتحادهم وتضامنهم تمكنوا من طرد الانكليز من مصر والحصول على استقلالهم فافعلوا انتم كما فعلوا هم

عبد الوهاب = لم اقل شيئاً من هذا ولم اشترك قط بالمظاهرة لانني غريب ولا شأن لي في القضية السورية

الرئيس = ومع كل هذا تعرضت للشؤون السورية

عبد الوهاب = كلا لم اتعرض لها قطعياً

الرئيس = فكيف وجدت اذن مع المتظاهرين ؟

عبد الوهاب = جئت هذه البلاد منذ ايام ترويحاً للنفس وبعد ذلك

شرعت باعداد معدات السفر الى بلادي وقد كنت في ٦ نيسان ذاهباً الى دار الاعتماد الانكليزي للتأشير عَلَى جواز سفري فاتفق اني مررت بالشارع المؤدي الى دار الحكومة واذا بالجماهير متجمعة والكل يهتفون للاستقلال والحرية فاستوقفني ذلك المشهد ودنوت منه اتفرج على ما يجري

الرئيس — ولكن الذين شاهدوك قالوا انك اعتليت السيارة وخطبت في الناس محرضا اياهم على الفتنة

عبد الوهاب — اؤكد اني بريءٌ من هذه التهمة وكل ما اعرفه هو انني سالت عن الباعث عَلَى هذه المظاهرة فقيل لي ان رجلا اميركيا اسمه المستر كراين قدم دمشق عام ١٩١٩ على رأس لجنة جاءت لاستفتاء اهل سوريا في تقرير مصيرهم وقد عاد اليها منذ بضعة ايام وان هذا الجمع اصدقاؤه يحتفلون بوداعه وكانوا يصيحون ليحيَ المستر كرين وكي لا اعد من المشتركين في المظاهرة ذهبت مسرعا الى القنصلية لانهي معاملة الجواز وفي المساء قبض علي شرطي وانتزع مني الجواز وجاء بي الى دائرة الشرطة ثم اخذت الى السجن حيث بقيت اثنتين وعشرين ساعة بلا طعام وقد هددت مرارا بالقتل والشنق

الرئيس — ولكن لدينا شهود عديدون على انك خطبت وحرضت الناس على الفتنة

عبد الوهاب = كرر قولي السابق انني بريءٌ من هذه التهم وانا اثق بالعدالة الافرنسية

الرئيس لا علاقة للمداخلة الافرنسيـة بأشخاص غرباء يتعرضون لشؤون سواهم

ثم دعي الدكتور خالد افندي الخطيب فخاطبه الرئيس قائلا :

ـ لقد كنت خطيبا اثناء الاجتماعات

الدكتور خالد الخطيب — نعم ولكن باسم الشعور الحي

الرئيس — كنت في كل مكان تصرخ قائلا ليحيي الاستقلال والقيت خطابا في جامع الاموي وحرضت المصلين على الخروج بمظاهرة يراد بها اسقاط الحكومة واخراج المحتلين قوة واقتدارا

الدكتور خالد الخطيب — اتيت الجامع الاموي فرأيت جمعا غفيرا من الناس يستعدون للقيام بمظاهرة سلمية كبرى وكان قد القي القبض على اصدقائي الاعزاء لمجرد قيامهم بوداع مستر كراين ولانهم قالوا ليحيي الاستقلال ولما كنت قد درست التاريخ وعلمت ان فرنسا هي ام الحريه وان ابناؤها هم الذين دكوا صروح الباستيل رأيت ان ادعو الناس لمراجعة البعثة الافرنسية للنظر في امر المعتقلين وقد كنت اعبر عن شعوري في الهتاف للاستقلال والحرية

الرئيس — اننا نعرف ذلك الشعور . وقد كنت عضوا في النادي العربي

الدكتور خالد الخطيب — بل كنت مديرا ثانيا له . ولما بدأت المظاهرة جاء الينا افراد الشرطة وعاملونا معاملة جائرة جدا وقد قلنا لهم ان الاهلين يرغبون في الذهاب الى البعثة الافرنسية لاظهار استيائهم من الحالة الحاضرة فلم يكن منهم الا ان قابلونا بالنار

الرئيس — انتم متفقون

الدكتور خالد الخطيب — يجوز

وهنا طلب الرئيس ان يقول كل واحد منهم ما يشاء وان يعربوا عن افكارهم بكل صراحة وان يقولوا ما يريدون ان كانت هناك ثمة ضرورة للقول قبل اعلان انتهاء الاستجواب

فقال الدكتور شهبندر لقد وضعنا ونحن نزيد عن الاربعين شخصاً في سجن ضيق نزدحم بعضنا فوق بعض لا نرى نورا ولا نستنشق هواء في حين اننا لسنا مجرمين عاديين بل سياسيون والمشهور عن الافرنسيين انهم يحترمون حقوق امثالنا مجرمي السياسة ويفردون لهم اماكن تليق بكرامتهم ومقامهم في الحياة الاجتماعية

الرئيس — ليس الذنب في ذلك على فرنسا فانها دخلت هذه البلاد ووجدت السجون على الحالة التي كانت في زمن الحكومة العربية وليت شعري لماذا لم تطلب من فيصل ان يحسن حالة هذه السجون ايام كنت وزيرا لخارجيته ؟

الفصل الثالث

اعتراض المحامين

وسماع الشهود

ثم توقفت الجلسة خمس دقائق وبعد ذلك بدأت المحكمـة بسماع دفاع المحامين فنهض جلال بك وزير العدلية سابقا واعترض على عدم صلاحية المحكمة بروئية الدعوة في الديوان الحربي قائلا ان المتهمـين سوريين وأن الدعوى المقامة عليهم تتعلق بالحكومة السورية فلا ارى موجبا لمحاكمتهم في محكمة عسكرية افرنسية في المحاكم السورية لانهم لم يسيئو السلطة الافرنسية ولا بجيشها بشيء وما حدث انما حدث في اراض سورية فبموجب المادة ٤٢ من معاهدة لاهاي المتعلقة بالقوى العسكرية في البلدان المحتلة وبما ان الادارة العرفية اعلنت بعد وقوع الحادث وبما ان الجميع يجهلون القوانين الافرنسية ولا يجوز محاكمتهم الا بموجب القوانين العثمانية اطلب عدم سماع الدعوى في هذه المحكمة واحالتها الى المحاكم السورية

المدعي العام — ان سوريا كانت ولم تزل تحت الادارة العرفية منذ

-الاحتلال فاطلب رد المدافعة والنظر في الدعوى

قام المحامي فارس بك الخوري وزير المالية سابقاً وايد كلام زميله جلال بك وقال :

نعترض في اول الامر على وظيفة هذه المحكمة العسكرية في روئية هذه الدعوى ونبين ان روئيتها خارجة عن وظيفة هيئتكم المحترمة لان جميع المتهمين هم ملكيون وليس لهم صلة بالسلك العسكري لتصح محاكمتهم في مجلس حربي واذا قيل ان البلاد تحت الادارة العرفية نقول ان هذه الادارة اعلنت في دمشق بتاريخ ١١ نيسان سنة ١٩٢٢ بموجب البلاغ الذي نشره سعادة الكولونيل غودفي قائد جيوش اراضي دوله دمشق مصرحا فيه باتخاذ القرار بوضع دمشق تحت الادارة العرفية في الفقرة الرابعة منه يبين ان كل من يخالف التعليمات الواردة يحال الى المحكمة العسكرية أعتباراً من تاريخ هذا اليوم اي ١١ نيسان وبما ان الافعال المنسوبة الى المتهمين وقعت جميعها قبل التاريخ المذكور اي انها بحسب ورقة الشكوى المتلوة في هذه المحكمة بدأت في ٢ نيسان وانتهت في ٧ منه فلا تشملها احكام هذا القرار ولا تجوز احالة هذه المحاكمة على هذا الديوان العسكري

وقد جاء في قانون الادارة العرفية ان قرار اعلان الادارة العرفية يجب ان يتضمن التصريح بتأسيس محكمة عرفية لمحاكمة المتهمين الذين يرتكبون جريمة ما في عهد تلك الادارة وليس في نص البلاغ المنشور اشارة الى تأليف تلك المحكمة ولا الى بيان شمولها للافعال التي وقعت

قبل اعلانها فهي من هذه الجهة ايضاً تخرج هذه الدعوى عن اختصاص محكمتكم الموقرة

وعلى كل حال فاما ان تكون السلطة الافرنسية تجري هذه المحاكمة بصفتها القوة العسكرية للدولة المنتدبة على سوريا واما بصفتها صاحبة الاحتلال العسكري لبلاد العدو المحتلة في زمن الحرب فاذا نظرنا اليها بالصفة الاولى كما يظهر من ورقة الشكوى واقامة الدعوى المتخذة اساسا للمحاكمة والمحررة من قبل حضرة مندوب المفوض السامي بصفته ممثلا للدولة المنتدبة وليس من قيادة الجيش المحتل نجد بنتيجة التأمل ان تطبيق احكام الانتداب يستدعي وجود حكومة ملكية منظمة لها محاكم قانونية تحكم في الجرائم التي تقع في البلاد وفقاً لقوانينها ولا يبقى صلاحية لجيش الانتداب ان يأخذ الافراد السوريين الملكيين ويحاكمهم بمحاكمة العسكرية واذا اقتضت الحال في عهد الانتداب اعلان الادارة العرفية وتشكيل ديوان عرفي فانما يجري ذلك مجدد بمعرفة الحكومة وموافقتها وفي هذه القضية لم يحصل شيء من ذلك واذا نظرنا اليها بالصفة الثانية اي بصفة الجيش المحتل في زمن الحرب نجد ان معاهدة لاهاي واصول حقوق الدول متفقة على ان الدولة التي تحتل بلاد غيرها في زمن الحرب تجري فيها على القوانين المحلية وبواسطة المحاكم والادارة المحلية ايضا ولا يحق لها في وقت من الاوقات ان تحاكم احدا من افراد الاهالي في محاكمها العسكرية الا على الجرائم والافعال الموجهة ضد جيش الاحتلال والمحدثة خطراً على سلامة

الجيش وبما ان هذه الدعوى لم يكن فيها شيء موجه الى جيش الاحتلال ولا متعلق اسلامة الجيش فلا تكون رؤيتها من اختصاص هذه المحكمة العسكرية ويعود فصلها الى المحاكم العدلية

وهنا قام حضرة المدعي العام وقال ان الادارة العرفية معلنة في دمشق منذ الاحتلال البريطاني وايدها الجنرال غوابه في تموز سنة ٩٢٠ ولم ترفع بعد كما ان الجرم المنسوب الى المتهمين يؤثر على الجيش المحتل ايضاً

فاجابه الاستاذ فارس بك — اذا كانت الادارة العرفية معلنة قديما فلم يكن تطبيقها جاريا في دمشق منذ اكثر من سنة كما ان البلاغ الذي نشره حضرة الزعيم غودني والتصريح الوارد فيه باحالة المخالفين على المحكمة العسكرية اعتبارا من تاريخ ١١ نيسان هو مبطل لما يدعيه حضرة المدعي العام ومؤيد لما قلته سابقا واما تصريحه الان بان الجرم الذي تجري المحاكمة بشأنه الان موجه الى جيش الاحتلال فهو قول جديد لم يسبق له ذكر في ورقة الادعاء الواردة من حضرة مندوب المفوض السامي ومن سعادة الزعيم المشار اليه والمتخذة اساسا لهذه الدعوى ولذلك اطلب بالاصالة عن المتهمين ان تتخذ هيئتكم الموقرة قرارا بعدم اختصاصها برؤية هذه الدعوى ولزوم ايداعها الى المحاكم العدلية

وعقبه المحامي الياس بك نمور فافاض في شرح كلام زميليه وتأييد طلبهما فدخلت المحكمة للمذاكرة وخرجت بعد ان قررت رد اعتراض المحامين واستطراد سماع الدعوى وقرأ الرئيس القرار علنا وقرأ ايضا قرار الجنرال غوابه بشأن الادارة العرفية المعلنة منذ دخول الجيوش

الافرنسية الى الشام واخيرا قررت الهيئة باكثرية ثلاثة ضد اثنين كون هذه الدعوى من وظائفها وعند ذلك دعت شهود الاثبات

الشاهد الاول

حسني المأمون — مفوض شرطة

بعد ان سأله الرئيس عن اسمه وهويته وعما اذا كان ثمة علاقة بينه وبين المتهمين وبعد ان حلفه اليمين قال هذا الشاهد :

يوم الخميس الواقع في ٦ نيسان عرفت بالحادث فارسلت رجالي لتفريق المجتمعين ومنع ما قد يحدث من التعدي وقد رأيت المتظاهرين مارين من امام دائرة الشرطة حتى بلغوا نزل فكتوريا وهم يهتفون فليحي الاستقلال التام الناجز لا نقبل حماية ولا وصاية وكانوا يحيطون بسيارة

الرئيس — هل كان بينهم احد من الحاضرين هنا

— انا مفوض تلفون ووظيفتي لا تسمح لي بترك مركزي مدة طويلة ولكني لما اضطررت للخروج وخرجت شاهدت في السيارة المستر كراين وكان هناك بعض السيدات ينادين ايضا ليحي الاستقلال الناجز وقد كان احد الرجال ينادي بهذا النداء ايضا والبقية يردون عليه ثم اخذوا ينشدون :

نحن لا نرضى الحماية   لا ولا نرضى الوصاية

وعند ذلك كلفت مأموري البوليس بتفريقهم ولكن لم يكد المأمورون يخرجون من الدائرة حتى وصل المتظاهرون الى ما فوق الجسر

الرئيس — هل تعرف احدا من المتظاهرين ؟

— سألت عن الرجل الذي كان يهتف فقيل لي انه ابن شيخ الارض

جلال بك — ماذا كانت غايتهم ؟

— كانوا يهتفون للاستقلال التام العاري عن كل حماية ووصاية

جلال بك — هل كانوا مسلحين وهل تعدوا على احد ؟

— كلا

الشاهد الثاني

ممدوح العابد — مفوض شرطة

بعد ان سأله الرئيس الاسئلة المعتادة وتحليفه اليمين قال :

يوم الجمعة الواقع في ٧ نيسان نمي الى دائرة الشرطة انه يوجد اجتماع في الجامع الاموي وانهم ينوون القيام بمظاهرة فامرت بالذهاب الى هناك واتخاذ الاحتياطات لتفريق المتظاهرين والمحافظة على الامن وعند خروجهم من الجامع كانوا يهتفون للاستقلال التام لا حماية ولا وصاية ورأيت رجال الشرطة قبضوا على بعضهم و بقيت هناك الى ان تفرق المتظاهرون

الرئيس — من رأيت ؟

— خالد افندي الخطيب وسواه

جلال بك — هل كان معهم سلاح وهل تعدوا على احد ؟

— كلا

جلال بك — ما ذا تعرف عن اطلاق النار على المجتمعين من قبل

رجال الامن ؟ [illegible]

[illegible]

الرئيس لجلال بك — لماذا تكون الاسئلة عن وجود السلاح ووقوع [illegible]

جلال بك — لأن المظاهرة كانت سلمية وان الجرم لا يصح الا اذا وجد السلاح او اذا ضبطت اوراق تدل على القيام بحركة ثورية

الرئيس للشاهد — من عرفت من المتظاهرين ؟

— خالد افندي الخطيب

: [illegible] الشاهد الثالث

[illegible] الصبحي افندي مفوض شرطة

بعد ان سأله الرئيس الاسئلة المعتادة وتحليفه اليمين قال :

[illegible] رأيت المتظاهرين وسمعتهم ينادون فليحي الاستقلال التام لا حماية ولا وصاية [illegible] وعرفت منهم خالد افندي الخطيب

[illegible] الشاهد الرابع

محي الدين مفوض شرطة

بعد ان سأله الرئيس الاسئلة المعتادة وتحليفه اليمين قال :

يوم الخميس في ٦ نيسان شاهدت جمعا غفيرا يحيط بسيارة وهم يهتفون للاستقلال التام لا حماية ولا وصاية وكان في السيارة الشيخ عبد الوهاب افندي العفيفي المصري وهو يحث الجماعة على المطالبة بالاستقلال [illegible] الشيخ عبد الوهاب = انا مصري اسود وشكلي معروف ولم اكن

الا من المتفرجين فانا فهو يخبر القائلين الاشتغال بهذا اليوم في الجمعيات السرية
فانا مصري تحت الحماية الانكليزية قدمت سوريا لا شغالي بالتجارة وهذا
رايس هنا من يعرفني فكيف عرفت اسمي

الشاهد الخامس
عبد اللطيف حاجة وكيل الشركة

بعد افه يحلف ان يقول الحق والصدق سئل عما يعرفه قال في ٣ او ٤ نيسان
بلغني ان في دائرة الشرطة انه يوجد في بستان الصالحية اجتماع
مزعج فحضرت الى هناك فرايت الدكتور عبد الرحمن شهبندر
خارجاً من البستان ومعه رجل اميركي يدعى مستر كراين وفي يوم
سابع نيسان عقد اجتماع اخر في الميدان في بستان عبد الرزاق
الحكيم فلم اتمكن من معرفة الموجودين لبعد محل الاجتماع عن الطريق
العام وبعد ذلك شاهدت حسن بك الحكيم والدكتور عبد الرحمن شهبندر
والمستر كراين خارجين من البستان فوجه الي حسن الحكيم اهانة وقال
يجب ان تكون معنا بدلا من ان تتجسس علينا فنحن انما نطالب بحقوق
مشروعة

وفي ٥ نيسان عقد اجتماع اخر في القصاع في بستان الكزبري
فذهبت الى هناك ورايت الدكتور شهبندر ومستر كراين والاشخاص الاخرين
وفي ٦ منه ذهبت للنزول دمشق بلا سبب حيث كان المستر كراين
نازلا وقد عقد الاجتماع الساعة التاسعة وبعد الظهر نزل الجمع الى
حيث كانت سيارة المستر كراين واقفة فقام عبد الوهاب افندي الانكليزي

واخذ يحث الجمع على المطالبة بالاستقلال التام ثم ذهبت السيارة يحف بها الجمع بين التهليل والهتاف

الشاهد السادس

محي الدين شرطي

بعد ان سألة الرئيس الاسئلة المعتادة وتحليفه اليمين قال

في ٦ نيسان رأيت جمعا غفيرا يسيرون من امام دار الحكومة وسمعت منير افندي شيخ الارض يصرخ ليسقط حمدي الجلاد ورجاله الخائنين وكان بين الجمع الدكتور شهبندر وحسن بك الحكيم وعبد الوهاب افندي العفيفي

منير افندي = هذه شهادة زور وانتقام موعز بها من مدير البوليس

الشاهد متمما — وقد اجابه العفيفي بقولة غلطت فكل من شرب ماء سوريا يطلب استقلالها وكانا كلاهما في السيارة

الشهبندر = ولكن لم يكن محل في السيارة وهذا يدل على انه شاهد زور

الرئيس = ربما كانا على جانبيها

الشاهد السابع

عارف شرطي

بعد ان سأله الرئيس الاسئلة المعتادة وتحليفه اليمين قال

في ٦ نيسان رأيت جمعا خارجين من نزل دمسكوس بلاس وبينهم مصري اسود وهم يهتفون للاستقلال وقد صفق لهم فريق من الناس في دائرة الاوقاف وعندما بلغوا دار الحكومة صاح منير افندي شيخ الارض

ليسقط الحاكم ومريدوه ولما بلغوا دائرة الشرطة قال ليسقط حمدي الجلاد ورجاله الخائنين

منير شيخ الارض — هذا شاهد زور وهو عدوي اللدود

الشاهد الثامن

حسني شرنلي

بعد ان سأله الرئيس الاسئلة المعتادة وتحليفه اليمين قال

في ٦ نيسان كنت في سوق الخيل فرايت سيارة جلس فيها رجل اميركي وحوله جمع يصرخون فليحي الاستقلال التام وكان على مرقى السيارة ثلاث نساء لم اعرفهن ولما بلغوا دار الحكومة صرخوا فليسقط حقي العظم وليسقط الانتداب وعرفت منهم منير افندي شيخ الارض والدكتور عبد الرحمن شهبندر وخالد افندي الخطيب وحسن بك الحكيم ولما بلغوا دائرة الشرطة صرخوا فليسقط حمدي الجلاد ورجاله ولما بلغوا نزل فكتور يا لفظ الدكتور شهبندر خطابا بالانكليزية ثم ودعه بقوله يحفظ الله ايها الرسول

الشهبندر — نحن نمده رسولا كريما فقد عزانا على مصابنا

منير افندي شيخ الارض — ان الشرطيين مجبورين على اداء هذه الشهادة لانهم موظفون

الشاهد التاسع

كابيتان دي جبني

بعد ان ساله الرئيس عن اسمه وهويته وعما اذا كان ثمة علاقة بينه

و بين المتهمين وبعد ان حلفه اليمين قال :

في ٦ نيسان شاهدت جمعا حول سيارة و بينهم نساء يهتفن وكانوا جميعهم يتكلمون اللغة العربية التي اجهلها فسألت عما يقال فقيل لي ان رجلا مصريا يخطب في الجمع وهو يقول نحن طردنا الانكليز فاطردوا انتم الافرنسيين

الشهبندر — هذه العبارة مـا قيلت قطعيا وانا اطلب حضور من ترجمها له

الشاهد العاشر

الكابيتان سيبو مدير المطبوعات

بعد ان سأله الرئيس عن اسمه وهويته وعما اذا كان ثمة علاقة بينه و بين المتهمين و بعد ان حلفه اليمين قال :

رايت جمعا امام دار الحكومة وسمعتهم يهتفون للاستقلال التـام لا حماية ولا وصاية وكان بينهم سيارة فذهبت واعلمت البعثة بالامر

***

هنا تمت افادة شهود الاثبات وقام المحامي واعترض على ترجمـة كلمة رسول بكلمة مندوب وقال ان كلمة رسول لا تأتي في العربية بمعنى المندوب ابدا وانما تستعمل بالمعنى الاستعاري لمن يأتي بشيء محبوب كانه من السماء وليست هذه العبارة في شيء مما جاء في الاستجواب من ان الدكتور كان يلقب المستر كراين بلقب المندوب ليوهم الناس انه منـدوب رسمي من قبل حكومة ما واعترض ايضا على ترجمة كلمة وصاية بكلمة انتداب

شهود الدفاع

ثم دعي شهود الدفاع وكان عددهم كثيراً اكتفى الرئيس بثلاثة منهم فتقدم الشاهد الاول حسام الدين افندي العمري (تاجر) وقال بعد تحليفه اليمين والقاء الاسئلة المعتادة -

شاع ان المستر كراين قدم دمشق وانه في الصالحية في بستان الحيات فذهبت لاتحقق الخبر

الرئيس = من قال ذلك

الشاهد = كان الناس مجتمعون في السوق وهم يتحدثون بهذا الامر فذهبت الى البستان وسمعت الحديث وكان دائراً حول وعد الحلفاء

الشهبندر = سلوه هل كنت اخطب ام كنت اترجم للمستر كراين

الشاهد = كان يترجم فقط

الشاهد الثاني

عثمان افندي الشرباتي (تاجر)

بعد تحليفه اليمين والاسئلة المعتادة قال: ان المستر كراين هو صديق الدمشقيين منذ عام ١٩١٩ وكنا في شوق لمشاهدته ولما علمت انه في الصالحية ذهبت لزيارته بداعي الصداقة فاجتمعت به في البستان مع فريق من الوجهاء لابداء احترامنا لهذا الزائر الكريم وقد سألناه عن رأي الحلفاء في استقلالنا وبينا له سوء حالة التجارة من جراء تجزئة البلاد وما وصلت اليه من حال لا تطاق وقد قلت هذا الكلام بجملته للقومندان ارلابوس

الشهبندر = هذا اكبر شاهد اني لم اخطب

عثمان افندي — نعم لم يخطب قط ولكنه كان يترجم فقط

الشاهد الثالث

المحامي رشيد بك الرافعي

بعد تحليفه اليمين والاسئلة المعتادة قال : كنت في بوابة الله فرأيت اناساً مجتمعين في بستان و بينهم عدد كبير من وجهاء المدينة واعيانها فدخلت وبعد قليل اقبل الدكتور عبد الرحمن شهبندر يصحبه رجل اميركي عرف به الحضور فرحبوا به وكان الدكتور يقوم بترجمة الاسئلة والاجوبة وقد جاء في معرض الحديث سؤال عن نتيجة الاستفتاء الذي اجرته اللجنة الاميركية عام ١٩١٩ وقالوا اننا نريد ان نكون احراراً مستقلين في بلادنا فقال المستر كرثين ان آمالكم ستتحقق كونوا آمنين وكان الاجتماع عاديا لاصلاح فيه وبعد ذلك خرجنا وسار كل في سبيله

حسن الحكيم — سلوه عما اذا كنت خطبت في ذلك الاجتماع

الشاهد — ان حسن بك لم يخطب



الفصل الرابع

تقرير المدعي العام الافرنسي

ان المستر كراين — رئيس اللجنة الاميركية التي جاءت سوريا سنة ١٩١٩ — وصل الى دمشق في ١ نيسان ٩٢٢ قادما من فلسطين فنزل في اوتيل دامسكوس بلاس حيث استقبله الدكتور عبد الرحمن شهبندر الذي كان قد اخذ من مدير الجامعة الاميركية في بيروت كتابا ينبئه بقدوم المستر كراين ويطلب اليه ان يواجهه عند وصوله لان المستر كراين كان يرغب ان يكون مع رجل واقف على مجرى الاحوال الحاضرة في البلاد

فاغتنم الدكتور شهبندر هذه الفرصة وابتدأ بمساعدة حسن الحكيم وسعيد حيدر بجمع المستر كراين بالمستائين من الحالة الحاضرة في البلاد فاقام له حفلات شاي واجتماعات خصوصية مختلفة كانت غايتها تحميس الاهالي وترتيب اقامة مظاهرة في الوقت الذى يختاره المحركون وهكذا فقد كان وداع المستر كراين هو الوقت المختار للمظاهرة ففي ٦ نيسان سنة ٩٢٢ فترك المستر كراين الاوتيل على سيارة بعد ان القيت عدة خطب هناك فاجتمع حوله عدد من المستائين المتحمسين وبدأوا ينشدون الانشودة الفيصلية ويتلفظون بكلمات عدائية ضد فرانسا وحكومة دولة دمشق وقد كانت خطب محمد عبد الوهاب الشفيقي ومنير

شيخ الارض امام السرايا ودائرة الشرطة مما زاد في حماسة المجتمعين المتظاهرين ولما وصلوا الى اوتيل فيكتور يا فارقهم المستر كراين بطريقه الى بيروت وعاد المتظاهرون بحماس يحملون الدكتور شهبندر على اكتافهم وفي مساء ذلك اليوم القي القبض على الدكتور شهبندر وحسن الحكيم ومنير شيخ الارض وسعيد حيدر

غير ان اصدقاء الدكتور شهبندر رتبوا في اليوم الثاني مظاهرة جديدة في الجامع الاموي الكبير وذلك بعد الصلاة وكان توفيق الحلبي ومحمد الشريقي وخالد الخطيب يحمسون الاهالي و يشجعونهم على المناداة بطلب الاستقلال وهكذا خرجت المظاهرة من الجامع الى سوق الحميدية متوجهة نحو دار الحكومة غير ان رجال الشرطة تمكنوا من تفريق المتظاهرين وهنا القي القبض على توفيق الحلبي ومحمد الشريقي وخالد الخطيب اللذين خطبا في الجامع وعلى محمد عبد الوهاب العفيفي صاحب الخطابات الحماسية المهيجة في المظاهرة السابقة

ان الحفلات التي اقامها الدكتور شهبندر وحسن الحكيم اكراماً للمستر كراين كانت في ٢ و ٤ و ٥ نيسان سنة ٩٢٢ ففي هذه الاجتماعات المختلفة كانا يجربان ان يقنعا الحاضرين ان المستر كراين جاء دمشق بصفة رسمية وان الانتداب الافرنسي لم يقرر بعد وانه يكفي اظهار شيء من الهمة لنيل الاستقلال كما فعل المصريون وتطرقا ايضا الى الابحاث الاقتصادية فالفتا انظار السامعين الى الضرائب الثقيلة والى كثرة عدد مأموري الحكومة والى غير ذلك من الامور وكانا يناديان المستر كراين

بالحضرة المندوب وكان هذا الاجتماع معقودا في بستان الحيات بحضور عدد من الشريفيين المدعوين الى الاجتماع ومما قاله الدكتور شهبندر في احدى خطبه في ذلك الاجتماع ان العرب قد بذلوا منتهى ما عندهم من الجهد ليساعدوا الحلفاء في محاربة الاتراك ولكن بكل اسف لم يكافأوا على تلك المجهودات التي بذلوها

وهنا وقف المستر كراين وقال ان الشعب السوري قد طلب اميركا عند ما استفتته اللجنة الاميركية وان لم تقبل اميركا فانكلترا وانه قدم تقريره الى المستر ويلسن بهذا المعنى وهكذا شجع الحاضرين وحرضهم على ان لا ييأسوا ثم انفرط عقد ذلك الاجتماع

وفي ٤ نيسان عقد الدكتور شهبندر وحسن الحكيم اجتماعا اخر في بستان عبد الرزاق الحكيم في الميدان وكان حسن الحكيم يدعو الناس الى ذلك الاجتماع بقوله لقد دعوت المستر كراين لتظهروا له ظلامتكم وتبينوا له الحالة التي اوصلتكم اليها الحكومة الافرنسية

ولم يمض الا القليل حتى جاء المستر كراين مع الدكتور شهبندر عندئذ تنظمت الجلسة فوقف حسن الحكيم والقى خطبة مهيجة وكان كلامه ينحصر في المواضيع الاتية — (١) ثقل الضرائب (٢) تغيير شكل الحكومة وعلى الاخص تغيير الحاكم ومدير البوليس (٣) تخلية الجيش الافرنسي لسوريا وابقاء المستشارين فقط (٤) استقلال سوريا باجمعها (٥) الغاء كل وظيفة لا فائدة منها ثم قال ان تونس والجزائر ومراكش

ومصر والعراق وافريقيا وكل البلاد العربية اذالم تمنح استقلالها فانا اقسم بالله العزيز اننا ستتحد باسم الدين الاسلامي ونأتي باعمال لم يذكر مثلها التاريخ ثم رمى بطربوشه للارض وقال لا كان هذا الطربوش من شعارنا اذا لم نصل لحقوقنا وحريتنا

ثم قدم الى المستر كراين المضبطة التي وقعت في الاجتماع السابق

وكان الدكتور شهبندر ورفاقه في هذا الاجتماع الماضي يلقبون المستر كراين بالمندوب ويؤكدون للحضور انه جاء دمشق بصفة رسمية ليقف على رغائب الشعب السوري وان التقارير السابقة التي كتبها سنة ۱۹۱۹ وهو رئيس اللجنة الاميركية قد فقدت وانه بسبب ذلك انتدبت جمعية الامم فرنسا على سوريا ولكن مع ذلك فالاهـالي لا تزال لهم الكلمة الاولى ولذلك اوفدت الحكومة الاميركية المستر كراين لينظم لها تقريراً جديداً فهو يذكر فيه ان شعور الشعب السوري لم يتغير وقد طلبوا اليه ان يلاحق هذا التقرير الجديد ليوصلهم الى نتيجة

وعقد اجتماع اخر في ٥ نيسان في بستان احمـد الكزبري وكانت غاية هذا الاجتماع تختيم المضابط وكان المجتمعون في هذا الاجتماع ينادون فليحي الاستقلال العربي وليحي المستر كراين .

وهكذا في اثناء هذه الاربعة الايام كان الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر يبذلون جهدهم لتهييج الخواطر وتحميس الاهالي تمهيدا للقيام بمظاهرة عمومية في الشوارع العامة

في الساعة الثامنة من صباح ٦ نيسان كان موعد سفر المستر كراين

وقد اجتمع امام نزل دامسكوس بلاس عدد من الشريفيين لوداعه وكان الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر يستقبلون الحاضرين وفي اثناء ذلك الاجتماع وقف المستر كراين والقى خطبة ترجمها الدكتور شهبندر وقد حث فيها الحضور على الثبات في طلبهم الاستقلال ثم وقف محمد عبد الوهاب العفيفي (صديق الشهبندر) والقى خطبة مهيجة حمس فيها الاهالي في طلب الاستقلال والسير على خطة مصر واستعمال الطرق التي استعملتها فكانت مثل هذه الخطب تقابل بالتصفيق الحاد والهتاف ليحي الاستقلال ليسقط الخائنون واخيرا ركب المستر كراين سيارة فسعى الدكتور شهبندر والعفيفي ومنير شيخ الارض بحشد الجموع حوله فسارت السيارة وسارت تلك الجموع وهم ينادون لا حماية ولا وصاية ليسقط الظالمون نحن نطالب الاستقلال التام ولما وصلت هذه المظاهرة الى السرايا وقف منير شيخ الارض وصرخ باعلى صوته ليسقط الحاكم وليسقط الخونة نحن نموت في سبيل استقلالنا) وكان المتظاهرون يرددون كلامه ثم ساروا الى دائرة الشرطة وهناك وقف العفيفي وقال ان كل سوري يستنشق هواء سوريا يجب ان يطالب باستقلال بلاده وهنا حرض الاهالي ايضاً على التشبه بمصر واستعمال الوسائل التي استعملتها لنيل استقلالها ثم وقف منير شيخ الارض وصرخ ايضاً ليسقط رجال الشرطة وهنا تكلم الدكتور شهبندر وسعيد حيدر ومحمد العفيفي واخيرا خرج احد مفوض الشرطة ودعا المجتمعين الى التفريق فسارت الجموع بنحو اوتيل فكتوريا وبقي منير شيخ الارض

ينادي ليسقط الانتداب

وقد وقفت سيارة المستر كراين امام اوتيل فكتوريا قليلاً فودعا الدكتور شهبندر وقال فاتحي شجرة الحرية والاستقلال ؟ الى الملتقى ياحضرة المندوب

واخيرا سارت سيارة المستر كراين في طريقها الى بيروت وعادت الجموع المتظاهرة تحمل الدكتور شهبندر ومما يجدر بنا ذكره في هذ المقام ان المستر كراين وسكرتيره كانا يأخذان رسوم الجموع المحتشدة مع المضابط التي قدمها الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وفي مساء ذلك اليوم اوقفت دائرة الشرطة الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر ومنير شيخ الارض وقد وجد في جيب الدكتور شهبندر شك بأمضاء المستر كراين بالف دولار مع كارت مكتوب عليه عنوان المستر كراين في باريس

غير ان اصدقاء شهبندر مثل العفيفي وتوفيق الحلبي ومحمد الشريقي وخالد الخطيب باشروا بتدبير مظاهرة اخرى يطالبون فيها تسريح المعتقلين فكانوا يطوفون المدينة ويحمسون الاهالي و يلحون عليهم بالحضور الى صلاة الجمعة والقيام بمظاهرة احتجاج في الساعة العاشرة من صباح الجمعة الواقع في ٧ نيسان كان موعد الاجتماع في قهوة القوتلي غير ان البوليس فرق المجتمعين هناك وهكذا ذهبوا الى الجامع الكبير فما كادت تنتهي الصلاة حتى وقف كل من توفيق الحلبي وخالد الخطيب ومحمد الشريقي يحمسون الاهالي على القيام بمظاهرة يطلبون فيها الافراج عن المعتقلين

وكان خطاب توفيق الحلبي ينحصر في ما يأتي : — ايها الاخوان ان المستر كراين الاميركي جاء دمشق يحمل لنا معه الاستقلال التام غير ان الحكومة المحلية التي تعلم ان جمعية الامم قد منحتنا الحرية قررت ان تخفيه عنا فلكي نصل الى استقلالنا اقمنا للمستر كراين حفلات عمومية واخذت تظهر له الاهالي رغائبها في الاستقلال وكانت النتيجة كما تعلمون وهي ان اخوانكم الذين جاهدوا لهذا الغرض القي القبض عليهم فيجب علينا ان لا نفقد النتيجة التي وصلنا اليها ويجب علينا ان نذهب الى السرايا والى دائرة البعثة لنحتج على هذه الاعمال

وهكذا خرجت المظاهرة من الجامع الاموي والمتظاهرون ينشدون نحن لا نرضى الحماية لا ولا نرضى الوصاية ولما وصلوا الى القرب من مخزن كاتب وقبوات وجدوا سيارتين عليها اعلام اميركية فخطفوها وساروا وكان اصحاب تلك السيارات يأخذون رسوم المظاهرة وبقيت سائرة حتى وصلت الى القرب من البلدية وهناك تمكن رجال الشرطة من تفريقهم والقي القبض بعدئذ على خالد الخطيب وتوفيق الحلبي واما محمد الشريقي فقد هرب بكل اسف

وفي ٨ نيسان قصد عدد من علماء المدينة واعيانها الحاكم العام وطلبوا اليه ان يعفو عن المتظاهرين الموقوفين فاجاب الحاكم ان اوامر توقيفهم كانت صادرة من السلطة المنتدبة وهكذا قرروا ارسال وفد لمقابلة الكولونيل كاترو فذهب في الساعة التاسعة من صباح الاحد وقابل حضرة الكولونيل كاترو وطلب اليه العفو عن اولئك الموقوفين فاجابه

انه يعفو عن البعض ولكنه يرفض ان يعفو عن اولئك المحركين الذين سببوا تلك الحركات وفي مساء ذلك اليوم اطلق سراح الاستاذ رشيد بقدونس وحسن افندي الحلواني وبعض اشخاص اخرين وفي يوم الاثنين الواقع في ١٠ نيسان اطلق سراح جميع المعتقلين ما عدا اولئك الذين سببوا تلك الحركات ومع ذلك فلم يكف المحركون عن اعمالهم فقد خرجوا يشوقون الاهالي على اغلاق مخازنهم احتجاجاً على توقيف الموقوفين وقد وزعت مناشير كتبوا عليها يجب ان تغلق مخازن المدينة الى يوم الخميس موعد محاكمة الموقوفين وذلك باسم الوطن والدين وكانت تلك المناشير موقعة بتوقيع رئيس الحزب الحديدي ومكتوب عليها كتبت بعجلة وهو بتاريخ ١١ نيسان سنة ٩٢٢

فالبعض من التجار اغلقوا مخازنهم اطاعة لهؤلاء المحركين ولكن القسم الاعظم اغلق مخازنه خوفاً من الحركات ووقوع السلب والنهب

وفي بعد ظهر ذلك اليوم حدثت مظاهرة نسائية خرجت من منزل الدكتور شهبندر وطافت المدينة وهن يصرخن ضد الانتداب والحكومة المحلية وفي تلك الليلة اذاعت الحكومة بلاغاً حثت فيه الاهالي على فتح مخازنهم وهددت الذين لا يفتحون بدفع ثلاثين ليرة سورية وفي تلك الليلة عقد اصدقاء شهبندر اجتماعاً في الجامع الاموي وقرروا فيه ان الذي يسمع اوامر الحكومة ويفتح مخزنه يدفع غرامة قدرها خمسين ليرة سورية

وفي صباح ١١ نيسان فتحت بعض المخازن ولكن اصدقاء الموقوفين

كانوا يحرضون اصحابها على اغلاقها وكان بين هؤلاء المحرضين حسن افندي الحلواني من الذين توقفوا في ٧ نيسان واطلق سراحه في ٩ منه

وفي ١٢ نيسان اقام تلامذة مدرسة السلطاني مظاهرة واصلوها الى ساحة المرجه وقد اوقف نحوار بعين شخصا منهم ولا يجب ان ننسى ان استاذ تلك المدرسة رشيد بقدونس كان من جملة الذين اوقفوا في ٧ نيسان واطلق سراحهم في ٩ منه ايضا وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم حدثت ايضا مظاهرة عنيفة في السنجقدار متوجهة نحو السراي وقد تعدي بها على بعض ضباط الجيش ولم تتمكن الشرطة من تفريقهم فعندئذ وصلت السيارات المصفحة فكان المتظاهرون يرمونها بالحجارة وبعد جهاد طويل اطلقت السيارات بضعة طلقات فكان الصراخ مستمراً واخيراً اعيدت الطلقات النارية وكانت النتيجة ان سقط احد المتظاهرين قتيلا فتفرق عندئذ الجموع

واذا بحثنا نرى ان جميع المتظاهرين كانوا اما من اصدقاء شهبندر او اقاربه او اصدقاء واقارب الموقوفين وكذلك المظاهرة النسائية فقد رتبتها عائلات الموقوفين ونساؤهم وكذلك الذين حرضوا على اغلاق المدينة فقد كانوا من اصدقاء الموقوفين ومن جملتهم حسن افندي الحلواني الذي اطلق سراحه في ٩ نيسان وكذلك مظاهرة المدرسة السلطانية فقد دبرها صديق الشهبندر الاستاذ بقدونس وهو كان من جملة الموقوفين ايضا الذين اطلق سراحهم وهكذا ثبت وتبين ان جميع تلك المظاهرات كان قد دبرها اولئك الذين اوقفوا ثم اطلق سبيلهم وتبين ايضا ان كل

مما جرى كان باوامر تصدر من الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر ومنير شيخ الارض وتوفيق الحلبي ومحمد عبد الوهاب المفتي وهم في القلعة وذلك بواسطة الدرك السوري

في ٨ نيسان ادخل الى القلعة احد مأموري الاستخبارات كواحد من المعتقلين فجلس معهم وتمكن ان يعلم حركاتهم واحاديثهم وقال انه صباح ٩ نيسان خطب الدكتور شهبندر في القلعة وحمس الموقوفين وشجعهم وكانت خلاصة ما قاله تنحصر في المواضيع الاتية (١) رفع الانتداب الفرنساوي وانسحاب جميع الجيش والمأمورين الافرنسيين (٢) الاعتراف بالخليفة العثماني (٣) تغيير الحكومة الحاضرة (٤) تخفيف الضرائب (٥) الوحدة السورية وختم الدكتور شهبندر خطابه طالبا من جميع الموقوفين ان يقسموا على القرآن انهم سيبقون متحدين واشداء

وفي ٩ الشهر قرر الموقوفون ان يذيعوا منشورا على الاهالي وضعوا نصه عن هذه الصورة :

« انا نعيش لاجل الوطن ولاجل الوطن نموت ان ابناءكم الذين القي القبض عليهم لاجل هذه الغاية الشريفة هم في حالة يرثى لها انهم لا يشربون ولا يأكلون انهم معرضون الى الموت فانهضوا كلكم ايها الوطنيون واتركوا اشغالكم لتحقيق امانينا الوطنية »

وهكذا علم مأمور الاستخبارات الذي كان موقوفا بينهم ان جميع المظاهرات التي حدثت في دمشق كانت بتعليمات اولئك الموقوفين

وكانت تخرج الى الاهالي بواسطة الدرك السوري الذين كانوا ينقلون ايضا الى الموقوفين جميع رسائل عائلاتهم او اصدقائهم

فالغاية التي كان يسعى اليها هؤلاء المحركون المتظاهرون هو تغيير الحكومة كما يظهر من متابعة اعمالهم حتى ان لمحة صغيرة الى ماضي حياة كل واحد منهم تبرهن جيداً على صحة هذا القول

فما هو ماضي حياة المتهمين الحقيقية ؟

(١) الدكتور عبد الرحمن شهبندر : لقد ابتدأ الدكتور عبدالرحمن شهبندر الاشتغال بالسياسة عام ١٩٠٨ اي بعد الثورة التركية وكان يشتغل بكل نشاط لايجاد امة عربية وكان عام ١٩١٢ المحرك الرئيسي في المؤتمر العربي وفي اثناء الحرب العامة قام باعمال كثيرة ضد الجيش التركي فاضطر اخيراً الى الفرار فهرب الى مصر وبعد قليل انضم الى الامير فيصل وكان من مؤسسي لجنة الدفاع الوطني وبالرغم من كثرة اعدائه فقد وضعه الامير فيصل وزيراً للامور الخارجية وقد اثر تأثيراً كبيراً في السير على سياسة العنف والشدة واخيراً ترك دمشق هارباً بعد معركة خان ميسلون

(٢) حسن بك الحكيم : كان ايضاً حسن بك الحكيم في حكومة الامير فيصل مديراً عاماً للبرق والبريد في المنطقة الشرقية وقد اضطر الى الاستقالة بعد ان اتهمانه اخر برقية الحكومة الشريفية التي بها تعلم الجنرال عوابه انها قبلت شروط الجنرال غورو

وبقي منذ ذلك الوقت يشتغل بكل عنف وتحمس وقد انضم الى حزب العهد السوري الذي اسسه بعض الضباط العرب

(٣) منير شيخ الارض : هو طالب في مدرسة الطب له سمعة غير حسنة مع حداثة سنه كان عضواً في النادي العربي والحزب الوطني السوري ·

(٤) سعيد حيدر : هو رجل منور حصل دروسه في المدرسة السلطانية ونال شهادة محاماة وفي عام ١٩١٩ عين عضواً في محكمة الاستئناف بدمشق ثم استقال وعين عضواً في المؤتمر السوري

لقد نفي في زمن الاتراك الى الاناضول وعفي عنه عام ١٩١٧ فعاد الى بعلبك وبقي فيها الى ان دخل الامير فيصل دمشق فجاء اليها وكان عضواً عاملاً ومحركاً في حزب الاتحاد العربي ثم هرب الى مصر في ٢٤ تموز سنة ٩٢٠ وقد حكمت عليه السلطة الافرنسية بالاعدام واخيراً عفي عنه فعاد الى بعلبك في شهر تموز سنة ١٩٢١

ويظهر ان سعيد حيدر قد نسي منة فرنسا عليه بتخليصها اياه من الاعدام فكان من المحركين المعروفين في المظاهرات والحركات التي حدثت مؤخراً

(٥) توفيق الحلبي : كان يشتغل بالسياسة منذ زمن بعيد وكان في زمن الحكومة التركية صاحب جريدة الراوي التي كانت سياستها انكليزية وفي اثناء الحرب العامة التحق بالامير فيصل وعين سكرتيراً له وبعد ان احتل الافرنسيون دمشق هرب الى شرقي الاردن وكان

متعهداً لجيش الامير عبد الله ، هو رجل مفسد كان يشتغل كثيراً بنشر الدعوة ضد فرنسا ، آدابه ليست حسنة هو رجل مرتشي وطماع

(٦) خالد الخطيب : هو طبيب في المدرسة الطبية في دمشق كان عضواً عاملاً في النادي العربي والساعد الايمن للشيخ عبد القادر المظفر رئيس النادي ، هو رجل محرك له علاقات كثيرة مع جميع المعادين لنا وصاحب الدعوات الطويلة ضد الانتداب اما من الوجهة الادبية فليست له شهرة حسنة

(٧) محمد عبد الوهاب العفيفي : هو مصري جاء دمشق مؤخراً صديق الدكتور شهبندر وسكرتير فخري البارودي احد معا كسينا

وخلاصة ما يقال ان هؤلاء الاشخاص كانوا دائماً معادين لنا وكانوا يسعون دائماً بنشر البروباغندا ضد الانتداب الافرنسي ويحملون الاهالي على اظهار عداوتهم لنا

ثم بحث المدعي العام في افعال المتهمين فقال ما هي الجرائم التي ارتكبوها في حركاتهم وكيف تخالف القوانين الجزائية

فاول امر يتبادر للخاطر منها هو تدبير دسيسة او مؤامرة ضد سلامة الحكومة

ولا يخفى ان كل مؤامرة او دسيسة لا تعد جرماً او جنحة بموجب القواعد العامة الا اذا ظهرت من حيز الفكر الى حيز الوجود وهكذا فالمؤامرة في الحقوق الجزائية لا تشكل جرماً الا اذا ظهرت نتيجتها ما عدا تدبير المؤامرة ضد الحكومة فانها تعد جرماً وان كانت في حيز الفكر

وان كانت لم تظهر نتائجها

فمجرد التفكير او العزم على تشكيل مؤامرة ضد الحكومة باتفاق شخصين معا يعد ذلك جرما وتطبق عليه الفقرة الاولى والثانية من المادة ٨٩

فوجود فكرة المؤامرة اذن يعد جرما وان لم يوافق عليها كما تقول المادة ٨٤ والمادة ٨٩

هذه هي الابحاث الحقوقية بشأن المؤامرات والدسائس ومرتكبيها واذا نظرنا الى حقيقة اعمال المتهمين وحركاتهم نرى انها تحتوي على كل وجوه المؤامرة فهي لم تكن فكرة فقط بل اتفق عليها وشوق لاجلها كما يظهر من متابعة الحوادث الآتية :

١ — التفكير بتشكيل مؤامرة — ظهر لنا مما علمناه حتى الان ان الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر كانوا يفكرون بتشكيل المؤامرة في جميع الاجتماعات التي عقدوها

٢ — الاتفاق على المؤامرة — لم تكن تلك المؤامرة فكرة فقط بل كان متفقا عليها وهكذا ففكرة المؤامرة كانت موجودة والاتفاق عليها كان موجودا ايضاً مما يجعلنا نقول ان هناك مؤامرة بكل معنى الكلمة

ولكن الى اين انتهت هذه المؤامرة ؟

حتى ١١ نيسان لم يرتكب عمل او يباشر بحركة هي من تدابير المؤامرة وهكذا فحتى ذلك الحد كانت تطبق عليها الفقرة الثانية من المادة ٨٩

واما في ١١ نيسان فقد ابتدأت تظهر فكرة المؤامرة الى حيز العمل وكانت الحركة الاولى من نتيجتها الهجوم على السرايا وعندئذ اصبحت

تنطبق عليها الفقرة الاولى من المادة ٨٩ ايضاً

هذا من جهة واذا نظرنا الى تلك الحركات من الوجهة الثانية نرى انه يوجد فيها جرم غير جرم المؤامرة وهو جرم التشويق على تشكيل دسيسة غايتها قلب وخراب الحكومة وهذه تطبق عليها المادة ٢٤ من قانون ٢٩ تموز سنة ١٨٨١

وهذا التشويق لا يقدر ان يشك به احد لان الخطب التي القاها المتهمون سواء في الجامع او في البساتين او في الشوارع او في اجتماعاتهم المختلفة العامة هي من اسباب التشويق واذا نظرنا الى المادة ٢٣ والمادة ٢٤ من القانون المذكور نراها مطابقتين بشروطها لحركات المتهمين لا سيما وان تشويقهم هذا اثر فكان له نتيجة

فهذه هي الافعال التي قام بها هؤلاء المحركون وهذا هو البحث من الوجهة الحقوقية فاذا علمنا ذلك نقدر ان نقول ان جميع هذه الافعال تعد جرائم وان هؤلاء المتهمون يعدون مجرمين يجب ان تطبق بحقهم المواد الجزائية القانونية

واذا بحثنا في حقيقة المتهين والادوار التي لعبوها في الحركات الاخيرة فانا نقدر ان نقسمها الى قسمين

١ — اعمال المشتركين

٢ - اعمال المحرضين والمحركين

فالدكتور شهبندر الذي كان صلة الوصل بين المستائين من الاهالي وبين المشتركين هو الذي دبر الاجتماعات وحمس الاهالي لاسيما المعروفين

يحضهم لنا الى القيام بمظاهرات في الطرق العامة

فالدكتور شهبندر تراس جلسة ٢ نيسان والقى فيها خطاباً مهيجاً جداً والقى خطبة ايضاً في جلسة ٥ نيسان وختم المضبطة وقدمها الى المستر كراين وفي ٦ نيسان خطب بالاهالي قبل سفر المستر كراين في الاوتيل وامام دائرة الشرطة وفي الختام ودع المستر كراين بقوله الى الملتقي ياحضرة المندوب

فالدكتور شهبندر كان قد اخذ من مدير الجامعة الاميركية في بيروت نباء بوصول المستر كراين الى دمشق والدكتور شهبندر اخذ من المستر كراين الشك بالف دولار والدكتور شهبندر وجدت بجيبه بطاقات المستر كراين وكل ذلك يظهر الدور الخطير الذي لعبه في الحركات الاخيرة وهكذا فاننا ندعوه برئيس تلك الحركات

حسن الحكيم — واما الدور الذي لعبه حسن الحكيم فلم يكن اقل اهمية من الدور الذي لعبه الدكتور شهبندر فهو الذي دبر اجتماعات ٥ نيسان وافتخر بها وهو الذي وقف على باب البستان يدعو الاهالي الى حضور ذلك الاجتماع وهو الذي القى خطبة مهيجة موجهة ضد فرنسا وهو الذي قرأ المضبطة على الحضور ودفعها بنفسه وهو الذي لاينكر حماسه وتهيجه منذ سفر المستر كراين .

منير شيخ الارض — وقد لعب هذا الرجل دورا خطيراً ايضا في ٦ نيسان قبل سفر المستر كراين من لوتيل دامسكوس بالامس فقد خطب في المجتمعين خطابا حماسيا ووقف على دفة السيارة يصرخ باعلى صوته

فليسقط المتعصبون وليحي الاستقلال وهو الذي وجه المظاهرة ضد الحكومة وهو الذي اثار الجموع امام دائرة الشرطة وهو الذي صرخ امام لوتيل فيكتوريا فلتسقط الحماية

سعيد حيدر — ان لفرنسا منة كبيرة على هذا الرجل الذي حكم بالاعدام فعفونا عنه ومع ذلك فقد تمكن بنفوذه الشخصي وحذاقته ان يرتب الاجتماعات ويهيئ الخواطر الى القيام بالمظاهرات فهو الذي كان يستقبل مع الدكتور شهبندر المدعوين في ٤ نيسان وقبل سفر المستر كراين جرت له مع سكرتيره ابحاث كثيرة بشأن هذه المظاهرات المنوى عملها

محمد عبد الوهاب العفيفي — هو مصري صديق للشهبندر ، كان مع منير شيخ الارض يهيج المتظاهرين بالخطب حتى وصلت في ٦ نيسان الى ما وصلت اليه فقد خطب في الجموع امام اوتيل فكتوريا مكرراً عباراته التي كان يقولها ان سوريا لاتنال استقلالها الا اذا استعملت الطرق التي استعملتها مصر وكذلك القى خطبة اخرى امام دائرة الشرطة

توفيق الحلبي — هو من الذين نظموا مظاهرة ٧ نيسان فقد خطب في الجامع الاموي خطاباً مهيجاً وحرض الاهالى على التظاهر امام السرايا والبعثة

خالد الخطيب — وكذلك خالد الخطيب فقد عرف بخطبه الحماسية المهيجة الشديدة

(انتهت اتهامية المدعي العام ويليها مدافعة المحامين)

الفصل الخامس

خلاصة دفاع المحامي الياس بك نمور

لو قمنا لندافع بهذه القضية باعتبارها سبباً لتلك الجماهير التي شاهدناها بالامس محتشدة بالازقة والساحات وتصورنا هؤلاء المتهمين كأنهم الالة المحركة لتلك الجماهير والدافع لتلك الحوادث وتمثلنا امامنا رجال الدرك تفرق الجمهور واسمعنا انفسنا العيارات النارية تتقاذف من بنادق رجال الامن لفض المتجمهرين لتلعثم لساننا واحجم عن الخوض بالموضوع ومحرك هذا التصور الخيالي عواطفكم ياحضرات القضاة وحملها الى الاعتقاد بان فعل المتهمين كبيراً جداً يستحق الجزاء العظيم

العفو ياسادتي اذا قلت لكم بانه لا علاقة لهذه القضية بذلك الجمهور المحتشد وبتلك الحوادث المؤلمة التي المت بالمدينة ولم يكن سببها الا القضاء ودون تصور او تآمر

انا نطلب من عدل الامة الافرنسية التي تمثلونها بهذه الساعة يا حضرات القضاة في بلاد جئتموها لنشر العدل وتعليمه ان تجعلوا جدران هذا الديوان حاجزاً منيعاً يفرق العدل عن السياسة ويبعد القضية عن تلك الحوادث المؤلمة

اتي على هذا الاعتقاد توليت الدفاع عن هؤلاء المتهمين وهاانني آت بالبراهين الكافية التي تدفع بالعدل الى درجة القضاء بالبراءة جاعلا دفاعي ثلاثة اقسام

القسم الاول يبحث عن عدم صلاحية ديوانكم لرؤية هذه الدعوى

القسم الثاني يبحث عن الوقائع ونية المتهمين وتفند الادلة الثبوتية

القسم الثالث يبحث عن عدم انطباق المادتين ٨٧ و ٨٩ من قانون الجزاء على الفعل المتهم به

القسم الاول

الاعتراض على الصلاحية

حيث ان ديوان الحرب لا يملك رؤية الدعاوي العادية الا متى كانت هذه الدعاوي تتعلق بالجيش او تمس به

وحيث انه اذا قيل بان قانون الادارة العرفية يمنح لديوان الحرب صلاحية الحكم ببعض الجرائم العادية ولو لم تكن متعلقة بالجيش وان الافعال المنسوبة للمتهمين تدخل في عداد تلك الجرائم المنصوص عنها بالقانون المذكور قلنا بان ذلك محله قبل تشكيل حكومة مسؤولة وعند اعتبار البلاد محتلة احتلالاً عسكرياً وعندما يكون حفظ الامن عائدا الى الجيش وحيث انه عند تشكيل حكومة مسؤولة عن حفظ الامن سواء شكلت هذه الحكومة بامر الجيش راسا او بتصديقه ترتفع حكماً صلاحية ديوان الحرب عن النظر بتلك الجرائم التي لم يعط بالاصل حق النظر بها للديوان الا بصورة استثنائية على خلاف القياس لاسباب

موجبة منها عدم وجود حكومة مسئولة وحيث انه يوجد في البلاد حكومة مسئولة معترف بها من الجيش او بالاحرى مشكلة بمعرفته راسا يكون قد زال الممنوع بزوال المانع وحيث انه على فرض عدم اعتبار هذه الاسباب كلها واردة فان الفعل المنسوب الى المتهمين حصل قبل اعلان الادارة العرفية واذاعتها على الجمهور . واذا قيل بان الادارة العرفية موجودة بالاصل ولم تلغ للآن وان اعلانها مجدداً ليس الا من قبيل التذكير او قيل بان القانون فيما يتعلق بالصلاحية يشمل ما قبل نقول ان هذا الديوان سينظر بهذه القضية بعين قانون لم يسبق نشره مع ان القانون لا يجوز اعتباره نافذا الا بعد النشر فلا يكون له والحالة هذه ولاية قانونية على المتهمين لهذه الاسباب جميعها نعترض على صلاحية الديوان في روءية هذه القضية

القسم الثاني

بهذا القسم من الدفاع اسهب الوكيل مبينا الوقائع متكلما عن كيفية مجيء المستر كراين الشام وكيفية الاحتفاء به ووصف عادات الدمشقيين وميلهم للتقرب ممن يكون مشتهرا بالعلم والتمدن وحبهم للضيف وكيفية تكريمه والرغبة في دعوته لمناولة الطعام حسب العوائد المألوفة بالبلاد واستنبط من هذه الوقائع حسن نية المتهمين بطريق منطيقي موءيد بادلة مادية وعقلية وعارض بوصف هذه الوقائع تقارير دوائر الاستخبارات والاستنباط الخيالي الوارد فيها وجعل بين الاستنباطات التي استنبطها وبين استنباطات دوائر الاستخبارات ميزانا حوى السلب والايجاب

وتطرق الوكيل الى ذكر التجمهر الذي حصل يوم وداع المستر كراين وبين ان هذا التجمهر لم يحصل عن اتفاق سابق بل ان معارف الزائر جاءوا الوداعه فانضم اليهم في الطريق عدد من المارين حتى لم يعد من الممكن تفريق المتفرج عن المودع فتفاقم على اثر ذلك الشر ودفع بعض الحاقدين الى الانتقام من بعض مأموري الحكومة بكلمات لا تخرج عن حد التحقير بشيء ولم يتعرض احد من المتهمين الى القول باسقاط الحكومة المنتدبة وفند الوكيل بهذا القسم من الدفاع الاسباب التي جعلها الادعاء سبباً لطلب التجريم وبرهن على انها ليست الا ادلة خيالية لا يجيز قانون من قوانين العالم قبولها لانها مجهولة المنشأ عارية عن مدلول مادي مقتصرة على استنباطات عقلية وهمية لا تنطبق على منطق يريدها الادعاء اثبات وجود مؤامرة والحال ان الدفاع والاثبات يبرهنان على عدم وجود مؤامرة او سبق تصور الى اخر ما ورد بهذا القسم من الامور الجوهرية

القسم الثالث

قد ورد بالمادتين ٨٧ و ٨٩ من قانون الجزاء الافرنسي وبالمواد المعادلة لهاتين المادتين من سائر قوانين العالم قيود احترازية لا يتم الفعل الممنوع المطبق على هاتين المادتين الا بوجودها ومن اصل هذه القيود اولاً وجود المؤامرة ثانيا كون هذا التأمر يقصد به تبديل شكل الحكومة على ان يقترن هذا الاصل باعداد الوسائط لاخراجه لحيز الفعل بالقوة او ان يكون قد بوشر باجرائه فعلا

فاذا فقد القيد الاحترازي الاصلي وهو وجود التامر والاتفاق

وسبق الاصرار خرج الفعل عن حكم المادتين المذكورتين فكان من اهم قيود هذه المادة الاحترازية وجود التآمر بالاصل فاذا فرضنا واجتمع جم غفير من الناس اجتماعاً ولمناسبة توديع شخص كبير كما هي حالة الاجتماع بهذه القضية او ما شابه ذلك وبحال اجتماعي نادى احدهم باسقاط الحكومة وصدقه الجمع الحاضر فلا يكون هذا الفعل منطبقاً على المادة التي نحن بصددها لانه لم يكن بين المجتمعين صلة بالافكار وارتباط بالنية وتصميم سابق على اجراء هذا الفعل وان اتفاق المبادئ صدفة دون سبق التخابر لا يتألف منه معنى المؤامرة لان التآمر هو الاتفاق المتبادل بايجاب وقبول سابقين للفعل ولربما يقال بان المؤامرة موجودة وهي كافية وحدها لتطبيق الفقرة الثانية من المادة ٨٧ التي نحن بصددها فنقول ان المؤامرة موجودة بقول الادعاء المجرد المبني على تقرير من دوائر الاستخبارات اصلة ومنشاه رجل من رجال تلك الدائرة يجوز ان يندفع بسبيل منفعته او بسبيل ايقاع الضرر الى حمل اخبار لا اصل لها فكان على ذلك المخبر ان يؤيد اخباره على الاقل بدليل عقلي او مادي ولم يكن اخباره كما هو ظاهر الامر الا مبنيا على الاستنباط والدائرة بنت استنباطها على استنباط المخبر فاذا اعتبرنا مثل هذا الاخبار مقنعا للوجدان للحكم بوجود التآمر والاتفاق لصدر القضاء مبنيا على الوهم والوهم مبنيا على وهم آخر وما من ينكر بان القضاء يتطلب توفر اليقين وطالما لايمكن ثبوت وجود المؤامرة اضطررنا الى القول بعدم وجودها بتاتا اما اذا قلنا بان فعل التجمهر الذي حصل يوم سفر

المستو َتوابن والافعال التي عقبتـه كل ذلك من الادلة المؤيدة وجود المؤامرة قلنا يجب العود الى الميزان الذي بيناه بباب الوقائع من هذا الدفاع بين السلب والايجاب فنرى بان ظاهر الفعل الذي حصل والافعال التي تبعته لا يمكن ان يحمل مدلولها على وجود التامر بل ينفيه بتاتا

ثم لو سلمنا جدلا بان الفعل يشف عن مؤامرة قلنا انه لا يجوز اعتبار المؤامرة كاعتبار النية التي يستدل عليها بالمدلول الظاهري لان المؤامرة هي فعل كسائر الافعال الجزائية التي يجب اثباتها بالادلة المادية لا بالاستنباط واخذ الظاهر دليل الباطن كما هي الحال بالنية . وطالما لم يقم دليل مادي يدل على وجود التامر يكون الفعل مجردا بالاثبات عن سبق التامر والاتفاق

ثم لو سلمنا جدلا بانه يجوز اخذ الفعل الظاهري دليلا على وجود سبق التآمر رغما عن القرائن التي تؤيد وجود الاجتماع صدفة وقضاء قلنا ان الالفاظ الواردة بورقة الضبط التي هي الدليل الوحيد المادي المرتكز عليها الادعاء لا تفيد معنى اسقاط شخص الحكومة المعنوي بل تقتصر على اسقاط الاشخاص الحقيقيين الذين يقومون بوظائف الحكومة او نفي بعضهم وان اسقاط اشخاص المامورين او مجالس الحكومة كمجلس الوزراء وغيره لا يسمى اسقاط للحكومة

ولرب قائل بان ورقة الضبط تضمنت عبارة (فلتسقط الحكومة) قلنا على فرض وجود هـذه العبارة فان معناها لا يمكن ان يفيد سوى اسقاط ماموري الحكومة فقط لان المطالبة بتبديل شكل الحكومة يتطلب تعيين شكل اخر لها كأن يكون الحكم جمهوريا فينادي بالحكم

الملكي والعكس بالعكس وهذا بعيد عن مسائل قضيتنا هذه وقد يؤيد معنى هذه العبارة ذات ورقة الضبط المرتكز عليه الادعاء فانه ورد فيها بان طلب الاسقاط ورد على اشخاص معينين تعددت اسماؤهم بورقة الضبط فكان ذكر الحكومة ورد من اجلهم و بقصد الدلالة عليهم فقط ولا يجوز للقضاء تأويل الظاهر كما وانه اذا تعارض الظاهر والضمني وجب ترجيح الظاهر عقلا وقانونا

ولو اعتبرنا انه قصد بهذه الكلمات تبديل شكل الحكومة وكان لحكومتنا شكل معين بقانون معلوم فانه لم يثبت قط بان هذه العبارة صدرت من احد المتهمين واما اذا قيل بان صدورها من احد المتجمهرين هو كاف عندنا الى القول بانه لم يكن بين المجتمعين سبق ارتباط وتامر وصلة بالافكار حتى يجوز ان يؤاخذ الواحد بسبب الاخر لعلة الارتباط ولهذا السبب جعل واضع القانون وجود التامر اصل القيود الاحترازية بالمادة ٨٩ وان علماء القانون قد اعتبروا استعمال القوة ان يكون بالسلاح ولم يكن احد من المتجمهرين مسلحا حيث انه قد تراى لنا مما تقدم ان القيود الاحترازية السابق بيانها لم تكن متوفرة بالادعاء ويكون الفعل على فرض ثبوت سوء نية المتهمين لا يخرج عن حد الجنحة البسيطة المستوجبة جزاء الحبس من اسبوع الى شهر

وبعد ذلك ختم الوكيل دفاعه بطلبين الاول عدم المسؤولية والثاني اعتبار الفعل من نوع الجنحة

***

دفاع المحامي فارس بك الخوري

نهض المحامي فارس بك الخوري فاستهل دفاعه بالموافقة على كلام زميله ثم قال :

ان هذه الدعوى تجري محاكمتها الآن وفقاً لورقة الادعاء المبلغة والمتضمنة لزوم محاكمة المتهمين بجرم التشبث بتغيير شكل الحكومة وفقاً للمادة ٧٨ و ٨٩ من قانون الجزاء الافرنسي وقد جاء حضرة المدعي العام في ادعائه الذي تلاه الان علنا يطلب تجريمهم وتحديد مجازاتهم وفقاً للموادالتي عينها من القانون الافرنسي فاعترض في اول الامر على تطبيق مواد القانون المذكور في هذه الدعوى لان قانون الجزاء الافرنسي منشور وواجب التطبيق في البلاد الافرنسية فقط ولم يسبق نشره في سوريا ليصح تطبيق احكامه على الافعال التي يجريها السوريون في اراضي سوريا ولا يخفى ان قانون نشر القوانين عند جميع الدول يصرح بانه لا يجوز تطبيق قانون ما قبل نشره ولا يطالب احد من افراد الامة باتباع قانون لم يعرفه ولا نشر في بلاده بالطريقة الرسمية والحكمة في ذلك ان الفرد عندما يقدم على ارتكاب فعل ممنوع يجب ان يكون عارفاً بالجزاء الذي يترتب على ذلك الفعل قبل الاقدام عليه ليكون علمه به مانعاً لاقتحامه وليس من المعقول ان يقدم الفرد على عمل يعرفه بحسب القوانين المنشورة في بلاده انه ليس فعلا ممنوعاً ثم يحاكم لاجله بحسب قانون جديد غير منشور في بلاده مخالف للقانون المعمول به والذي يدعوني

للبحث في هذه القضية والفات نظر هيئتكم المحترمة اليها هو الاختلاف الموجود بين القانون الافرنسي من هذه الجهة والقانون العثماني ما زال مرعي الاجراء في هذه البلاد فان المادة (٥٥) من قانون الجزاء العثماني تقرن جرم التشبث لتغيير شكل الحكومة مع جرم تبديل القانون الاساسي وتشترط ان يكون هذا التشبث مقترنا باستعمال القوة والجبر مما يدل على ان شكل الحكومة المراد في هذه المادة هو الشكل المعين في القانون الاساسي كما لو كانت الحكومة نيابية فحاول فريق من الناس تبديلها بحكومة استبدادية خلافا لنص القانون الاساسي او حاولوا قلب الحكومة الملكية الى حكومة جمهورية او بالعكس وقد اتفق الشراح جميعاً على ان المراد من جرم تبديل شكل الحكومة هو هذا النوع من التبديل وليس المراد منه السعي لتبديل شخص او اشخاص من رجال الحكومة بغيرهم مع بقاء الشكل الاصلي كما هو لان هذا السعي ينحصر بالاشخاص الذين يتوجه ضدهم واذا حصل تحقير او اهانة لاحدهم فهو مختار ان يقيم الدعوى على حدة بدون ان يكون لمدعي الحق العام صلاحية لاقامة مثل هذه الدعوى كما ان الذي سمعناه من افادة الشهود وتبين لنا من مجرى المحاكمة ليس فيه شيء يشير الى تشبث المتهمين بتغيير شكل الحكومة المعدود جرما بل جل ما هنالك مناداة بعضهم باسقاط اشخاص معينين فصراحة القانون العثماني من هذه الجهة لا تجعل هذا الفعل بوجه من الوجوه موافقا للمادة (٥٥) المذكورة كما ان القانون الافرنسي ايضا مواده المذكورة (٨٧ و ٨٩) لجرم تشبث بتبديل الحكومة الافرنسية

بدليل ما فيه من الوضوح بذكر حكومة الجمهورية او الامبراطورية فلا ينطبق بوجه من الوجوه على اشخاص حكومه دمشق وقد ذكرت ان هذا التشبث مشروط فيه ان يكون بالقوة المسلحة وليس بالالفاظ المجرده فقط كما هي صراحة المادة (٥٥) من القانون العثماني وقد تبين من افادة الشهود واوراق هذه الدعوى ان المتظاهرين لم يكونوا حاملين سلاحا ولا دعوا الناس لاستعمال القوة وانما كانت حركتهم مقصورة على اظهار تمنياتهم بالكلام فقط فبناء على ذلك اطلب تطبيق القانون العثماني في هذه المحاكمة ورد طلب مقام الادعاء العام بشأن حسبان هذا الفعل جرما منطبقا على المواد التي ذكرها

ثم اني الفت نظر هيئتكم الموقرة الى البون العظيم الموجود بين ادعاء المدعي العام وبين الوقائع التي جرت امامنا في محاكم هذه الدعوى لان الذي سمعناه اليوم لا يخرج عن ان المتهمين اجتمعوا ثلاث مرات مع المستر كراين في الصالحية والميدان والقصاع بتواريخ ٢ و ٤ و ٥ نيسان ثم جاؤا لوداعه بتاريخ ٦ نيسان ومشوا معه من الاوتيل امام دار الحكومة الى ان فارقهم وسار في طريقه وكان بعضهم ينادي بصوت عال بقوله فليحي الاستقلال وليسقط الخونه وان بعضهم اسقط شخصا او شخصين من موظفي الحكومة وقال نريد الاستقلال التام بلا حماية ولا وصاية وان احدهم صرح بانه خطب في الجامع الكبير وحرض الناس على السكينة والانتظام والاعتدال على بيان احتجاجهم لدى حضرة مندوب المفوض السامي على توقيف الاخرين وحبسهم بدون ان يكون لهم جرم

يستوجب ذلك واما ادعاء حضرة المدعي العام فقد تضمن اموراً كثيرة لم نسمعها في محاكمة الدعوى ولا ورد عليها دليل يؤيدها او يشير الى حدوثها فمثال ذلك قوله ان الدكتور شهبندر عرف الناس المستائين بالمستر كراين ورتب الاجتماعات التي حصلت في البساتين وترأس جلسة ٢ نيسان وخطب فيها بشدة وقال ان السوريين حاربوا مع الحلفاء ضد الاتراك لاجل نيل استقلالهم وقد خابت امالهم وبقيت مناداتهم بدون نتيجة وانه نظم مضبطة يوقعون عليها وسلمها الى المستر كراين في اجتماع ٥ نيسان وانه خدع الناس بان المستر كراين مندوب رسمي بمخاطبته اياه بهذا اللقب وان حسن بك الحكيم خطب في اجتماع ٤ نيسان وقال ان العرب في شمال افريقيا وسوريا وغيرهم يطلبون استقلالهم فاذا لم يحصلوا عليه فهم يفعلون افعالا باسم الدين لم يعرفها التاريخ ورمى بطربوشه الى الشجرة بسبب الحماسة التي اخذته عند القاء الخطابة وانه احضر مضبطة بهذه الامور وسلمها الى المستر كراين وان سعيد بك حيدر هيأ الاسباب لحفلة وداع المستر كراين وحرض الناس على الاشتراك بها وان المتهمين اخرجوا من السجن اوراقا يدعون الناس فيها للاضراب عن العمل وان الدكتور شهبندر خطب في السجن خطابا مهيجا الى اخر ما جاء في تقرير حضرة المدعي العام من الامور التي اسندها الى المتهمين بدون ان نرى لها ذكراً في مجرى المحاكمة ولا شهد بها احد ولا حصل اثباتها عليهم بالطرق القانونية المعتادة ولا يخفى ان اصول المحاكمة تجري ببيان الجرم المسند الى المتهم ولا يجوز في حال من الاحوال ان

يدخل في اسباب الحكم امور لم تثبت في مجرى المحاكمة

نعود الى قضية المؤامرة التي يزعم المدعي العام وجودها مستدلا عليها بالاجتماعات الثلاثة التي جرت مع المستر كراين فاقول ان المؤامرة التي تشكل جرما هي التي يجريها عدة اشخاص بصورة خفيفة على حين ان هذه القضية ليس فيها شيء من ذلك لان الاجتماعات المذكورة حضرها جم غفير من الناس فيهم عدد كبير من الذين اشتهروا بمحبة فرنسا وموازرة الحكومة وجرت بصورة علنية وكان الاولى اذا كان هنالك شبهة ان يدعى جميع الذين حضروا هذه الاجتماعات والواردة اسمائهم في تقارير رجال الشرطة والمخبري ونسمع شهادتهم بخصوص ما سمعوا مما جرى في تلك الاجتماعات وبعدها يحكم في القضية بحسب النتيجة التي تظهر من التحقيق ولسنا ندري على اي شيء يستند في ذلك المدعي العام فلا يصح القول بوجود مؤامرة من هذا النوع والادعاء بوجود هذا الجرم المعدود من اعظم الجنايات بدون بيان ادلة موثوق بها ولا يصح ان يحكم على احد بناء على الخيال والوهم

وقد رأيت حضرة المدعي العام يوءاخذ المتهمين بالمظاهرة والتجمعات التي جرت بعد توقيفهم عند ما كانوا ممنوعين من الاختلاط بالناس وغير عارفين بما يجري في الخارج بقوله ان اصدقاء الشهبندر فعلوا ذلك ولست ادري اذا كان يجوز عقاب احد على ما يفعله اصدقاوه فان كل شخص مسئول عن ما يفعل ولا يجوز اتخاذ عمل الصديق سببا لمعاقبة صديقه وفي وسع الحكومة ان تجازي كل واحد على فعله

نرجع الان للبحث في الاشياء التي تثبت امـام الحكومة باقرار المتهمين او بشهادة الشهود فنجدها مقتصرة عَلَى الصياح بعبارة فليحي الاستقلال ولا يخفى انه لا يوجـد جرم في ذلك لان استقلال سوريا امر قد جوهر به وتكرر ذكره في الاحتفالات والمواقع الرسمية من ذلك ما نسمعه في ضيافات البلدية او ضيافات الحكومة من الخطب التي يختمها اربابها بقولهم فلتحي سوريا المستقلة وقد قرأت موخراً في جريدة الطان مقالة تتعلق بعودة فخامة الجنرال الى اوربا وعزمة عَلَى تطبيق الانتداب في دول سوريا التي اعلنت فرنسا استقلالها وذلك مطابق لما جاء في المادة ٢٢ من عهد جمعية الامم من الصراحة بان سوريا تكون دولة مستقلة تابعة للانتداب فالاستقلال اذن لاينافي الانتداب بل يمكن بقاء الاثنين مع بعضهما وقد انتخبت فرنسا من قبل الحلفـاء لتكون منتدبة على سوريا وجميع الناس يعرفون ذلك و يعتقدون ان الانتداب لا يبطـل الاستقلال فاذا حيا المتهمون هـذا الاستقلال لا يكون عملهم موجبا للمسئولية وقد ثبت في مجري المحاكمة ان المتهمين لم يجاهروا بكلمة ضـد الانتداب في جميع المظاهرات والاجتماعات التي حصلت ولم يشهد احد بان كلمة الانتداب لفظت او تعرض لها فلا سبيل اذن للقول ان المتهمين تشبثوا بالوسائل الفعلية لتغيير شكل الحكومة بمقاومة الانتداب



الحكم

ثم خلت الهيئة للمذاكرة وخرجت بعد ذلك فاعلنت الاحكام الاتية :

حكم عَلَى الدكتور عبد الرحمن بك الشهبندر باكثرية الاصوات بالسجن عشرين سنة

وعلى حسن بك الحكيم باكثرية الاصوات بالسجن عشر سنوات

وعَلى سعيد بك حيدر باتفاق الاصوات بالسجن خمسة عشر سنة

وعَلى منير افندي شيخ الارض باكثرية الاصوات بالسجن عشر سنوات .

وعلى عبد الوهاب افندي العفيفي (المصري) باكثرية الاصوات عشرين سنة

وعلى توفيق افندي الحلبي باكثرية الاصوات بالسجن خمس سنوات

وعلى الدكتور خالد افندي الخطيب باتفاق الاصوات عشر سنوات

وفي صباح اليوم الثاني ارسلوا الى بيت الدين حيث اعتقلوا في دار الحكومة

(انتهى)



حفلة افتتاح حزب الشعب

مركز دمشق

يوم الجمعة في ٥ حزيران سنة ١٩٢٥ — الموافق ١٤ ذي القعدة ١٣٤٣

في بهو الأوبرا العباسية

بيان امين السر الدكتور احسان بك الشريف

خطبة الاستاذ فارس بك الخوري

خطبة الدكتور عبد الرحمن بك الشهبندر

برنامج الحزب

طبع في مطبعة : « الفيحاء » دمشق سنة ١٩٢٥ م

حفلة افتتاح حزب الشعب

مركز دمشق



يوم الجمعة في ٥ حزيران سنة ١٩٢٥ — الموافق ١٤ ذي القعدة ١٣٤٣

في بهو الأوبرا العباسية



بيان امين السر الدكتور احسان بك الشريف

خطبة الاستاذ فارس بك الخوري

خطبة الدكتور عبد الرحمن بك الشهبندر

برنامج الحزب



طبع في مطبعة : « المفيد » دمشق سنة ١٩٢٥ م

بيان

امين السر الدكتور احسان بك اشريف



تيسر انفاذ الفكرة القديمة بتأسيس حزب علني يجمع شتات الامة على اثر تصريحات الجنرال سراي للوفود التي ذهبت الى بيروت لعرض اماني البلاد عليه . فان الجنرال حث رجال الوفد على تنظيم الصفوف وتوحيد الكلمة ووعد باطلاق حرية الاجتماع والصحافة قائلاً لاعضاء الوفد : نظموا صفوفكم كما نظمنا صفوفنا نحن الراديكاليين في فرنسا فانه لما تنظمت صفوفنا تمكنا من التغلب على خصومنا ويمكنكم ان تعملوا في بلادكم على هذا المنوال وان تؤلفوا « كارتل » . كل هذه الوعود فسحت المجال لرجال الوفود بان يعملوا على تأليف حزب علني يلم الشعث ويخلص البلاد من التفرقة التي المت بها منذ خمس سنوات والتي كادت تقضي على حياة البلاد الروحية والاجتماعية . ان البلاد بحاجة الى حزب علني يسعى لبث دعوته ونشر افكاره في الظاهر لا في الخفاء . كثيراً ما نسمع بان السلطة او الحكومة تعمل من تلقاء نفسها اعمالاً جليلة تتعلق بحياة البلاد ومستقبلها ولا تستشير في ذلك احداً بحجة ان البلاد خالية من الاحزاب السياسية المنظمة . تلك حجة كنا نسمعها في الصحف وفي المجالس النيابية .

فنحن بانشائنا اليوم هذا الحزب العلني خليقون ان نتمكن من اظهار رغبات الشعب وايصالها الى المراجع العليا رأساً وبذلك نقطع السنة المتقولين ·

كفانا ما نحن فيه من الفوضى وعدم الانتظام في اعمالنا · نعم ان لنا عذراً في تأخرنا عن تاسيس حزب علني هو عدم وجود الحرية الكافية والمساعدة لتأسيس الاحزاب في البلاد · ومن مساوئ فقدان الاحزاب العلنية في البلاد كون العامة تضل سبيلها لعدم وجود من يرشدها بارائه واعماله المفيدة ·

من العادة المتبعة لدى عموم الاحزاب السياسية في العالم ان يكون للحزب سياسة خاصة في كل مسئلة سياسية واجتماعية تطرأ على البلاد اذ لا بد لكل حزب سياسي من مذهب خاص في كل قضية من القضايا السياسية فحزب اللبرال الانكليزي منذ تأسيسه حتى اليوم يدافع عن نظريته المشهورة في التجارة الحرة — اوالمبادلة التجارية الحرة — كما ان المحافظين لهم نظريتهم المشهورة بالحماية · كثيراً ما تتطور نظريات الحزب بتطور الحوادث السياسية ولكن مبدأ الحزب يبقى ثابتاً · فحزب الشعب له خطط عامة يمكن توسيعها في المستقبل بحسب ظواهر الاحوال · ويدافع عن سياسته بكل الوسائط القانونية غير مبال بما يصادفه في طريقه من العقبات · ان اعمال الحزب في بدأ تأسيسه اقتصرت على مهمة التأسيس في المركز والملحقات · وها هو قد اوفد كلاً من السادة حسن بك الحكيم وجميل بك مردم بك لتأسيس الفروع في حمص وحماة وحلب وسيتسع بذلك نطاق العمل · هذا وان البلاد السورية جمعاء تلقت فكرة تأسيس هذا الحزب بكل ترحاب واقبال · والمخابرات مع حمص وحماة وحلب تبين درجة الاهمية التي يعلقونها

على الاسراع في تأسيس الفروع وان سياسة الحزب في حمص وحماة وحلب وغيرها من البلاد السورية تتبع نفس البرنامج الذي سنه الحزب في دمشق و تعمل لنفس المبدأ الذي جعله نصب عينيه وهذا مما يوحد الاعمال و ينظمها و يجعل البلاد تتجه نحو فكرة ثابتة في جميع انحاء سوريا .

فالهيئة الادارية التأسيسية بدأت تواصل السعي في دمشق لتنظيم اعمالها ونشر الدعوة للحزب حاثة الغيورين من الاهلين على الدخول فيه والانتساب اليه . كذلك فان الهيئة التأسيسية خيفة ان توصم بالاستئثار جرت على عادة الاستعانة بأراء كبار رجال الامة والاسترشاد بتجاربهم وحنكتهم السياسية ولقد دعت اهل الاختصاص للمذاكرة معهم واخذ رأيهم في الامور الواقعة فصادفت دعوتنا لديهم صدراً رحباً وكانوا يلبون الدعوة و يعاوننا بافكارهم وآرائهم السديدة .

كان لهذه المؤازرة تأثير حسن في الدعاية التي يقوم بها الحزب في المركز والملحقات وقد اعلن الحزب على صفحات الجرائد برنامجه السياسي وشرائط القبول فاتحاً ابوابه لكل مخلص للمصلحة العامة يعتقد بصحة المباديء التي تأسس الحزب عليها و يعمل على تحقيقها .

والتسهيلات التي اجريت لعموم افراد الشعب المخلص دليل واضح على عدم استئثار الحزب باعماله ولكن هذا الاطلاق بالطبع يقابله نظام داخلي شديد الوطأة على كل من يعبث بنظامه ومبدأه و يتعدى الحدود التي سنها . فالاساس في الاحزاب السياسية هو التدريب الداخلي العامل على انتظام الاعمال : ومما يدل كذلك على عدم الاستئثار باعمال الحزب هو تأخير موعد انتخاب

الهيئة الادارية لشهرين ريثما يبلغ عدد الاعضاء الى الحد المطلوب لان الهيئة الادارية المنتخبة من مائة عضو او اقل هي غير الهيئة الادارية التي تنتخب من ثلاثمائة او اربعمائة عضو او اكثر مثلا . والغاية هي السير نحو سياسة ديموقراطية سواء اكانت في سياسة الحزب الداخلية ام في سياسة الحزب الخارجية واسم الحزب يدل على مسماه : هو من الشعب والى الشعب . تتوارد علينا كل يوم طلبات الدخول حتى ان عدد الاعضاء تجاوز المائتين خلال شهر واحد من تأسيسه لذلك فاني باسم الهيئة الادارية اشكر اولاً الهيئة العامة التي جددت ثقتها باللجنة الادارية المؤسسة الى ان تنتخب الهيئة الادارية بعد شهرين على الاكثر ثانياً اني اشكر الذين مدوا يد المساعدة الى الحزب مادياً وادبياً مما مهد السبيل الى ظهور حزب الشعب بمظهر يبشر بالنجاح ثالثاً اني اشكر السادة الافاضل الحاضرين الذين لبوا دعوتنا للاحتفال بافتتاح حزب الشعب والسلام



خطاب الاستاذ فارس بك الخوري



السلطات المطلقة تحظر على الاشخاص الاشتغال بالسياسة او التدخل بها وتصرف الناس الى الاهتمام باعمالهم ومصالحهم الخاصة لتنفرد هي بامور الادارة الكيفية في الداخل والخارج بدون ان تسمح لاحد ان يرفع صوتاً او ينبس بكلمة تحت طائلة العقاب الشديد والتنكيل الرادع . وقد كان هذا دأب السلاطين في العصور الماضية حتى قام الشعب الافرنسي قومته الهائلة في اواخر القرن الثامن عشر والقى على الدنيا باسرها درساً رائعاً انقلب فيه وجه التأريخ وتبدلت حالة البشر .

وبعد هذه الحادثة التاريخية العظيمة اندحرت النظرية القديمة القائلة بتحكم السلطان الفذ وسادت الحقيقة الناصعة بالسيادة القومية والحكم الشعبي فاصبح الشعب مصدر القوة وصاحب الحق الصريح باختيار الاسلوب الذي تدار به بلاده وسن الشرائع التي يحكم بها .

بعد هذا الانقلاب العظيم لم يعد الاشتغال بالامور السياسية محظوراً على الافراد بل اصبح من واجبهم الوطني ان يهتموا بمصالح بلادهم العامة كما يهتمون بمصالحهم الخاصة واطلقت لهم الحرية في الكلام والكتابة ، ضمن دائرة القانون وبشرط عدم الاخلال بالامن العام ، لتأييد ما ترضاه الاغلبية منهم ، وهكذا تألفت الاحزاب السياسية في جميع البلاد الراقية لنشر مبادئها وبث دعوتها تعمل بالحرية التامة ضمن حدود القانون وتحت حمايته .

لما صار العمل السياسي واجباً وطنياً على الافراد لم يعد جديراً باحد منهم ان يقف موقفاً حيادياً حيال ادارة بلاده ، فاذا ابى الاشتغال بالسياسة يكون قد ترك مقدرات البلاد لغيره يتصرف بها بحسب رغبته وربما جاءت نتيجتها خلافاً لما يرضي ، وقد ادركت الشعوب الراقية هذه الحقيقة فنظمت صفوفها وجمعت كلمتها والفت الاحزاب السياسية ذات المناهج المتنوعة فانضم الى كل حزب منها الاشخاص الموحدة آراؤهم والمؤلفة قلوبهم على الخطة التي وضعها الحزب لنفسه ، وصار يتعذر عليك ان تجد شخصاً في تلك البلاد متمتعاً بحقوقه السياسية غير منتسب الى حزب من الاحزاب العاملة في وطنه .

عند ما كانت ادارة البلاد السورية منوطة بالسلطة العسكرية المحتلة منذ اواخر سنة ١٩١٨ لم تكن الاعمال السياسية مباحةً للافراد لان الادارة العسكرية في زمن الحرب والاحتلال تقتضي شيئاً من السرعة والاستئثار ، واما بعد ابرام معاهدة الصلح وتقرير الحالة الراهنة في سورية فلم يبق مسوغ لاستمرار المناعة السياسية على اهل البلاد ، وهكذا اطلق المفوض السامي للاهلين حريتهم في تنظيم الصفوف وتأليف الجمعيات ضمن حدود القانون .

بموجب هذا الحق المؤيد بالنظريات والعمليات تألف حزب الشعب الذي نجتمع اليوم للاحتفال باعلانه وافتتاحه وهو عازم ان يقوم بمهمته بالطرق المشروعة تحت حماية القانون .

لا بد لكل حزب سياسي من خطة يتألف لاجلها وتكون له دستور العمل ، وهذه الخطة تكون اما لتأييد حالة موجودة واما لايجاد حالة مفقودة وفي الاعم الاغلب تتألف الاحزاب لايجاد حالة مفقودة لان تأييد الحالة

الراهنة لا يستدعي عمل الاحزاب الا عند وجود حزب آخر يسعى لتبديلها فينهض الراضون عنها لصيانتها والمحافظة عليها . وقد يكون في خطة الحزب هذان الامران مجتمعين فيقوم بالمحافظة على بعض جهات الحالة الحاضرة التي يراها موافقة لمصلحة الوطن ويسعى لاستبدال الجهات الاخرى بما يعتقده ارفق بالعباد واوفق لمنفعة البلاد .

دستور العمل الذي اتخذه حزب الشعب خطة له يندمج في الاغراض الستة المدرجة في المادة الاولى من قانونه الاساسي ، وها انا اذكرها مع ايضاح موجز لبيان ما يقصد منها .

١ — تحقيق السيادة القومية او الحكم الشعبي على الاساس الجاري اليوم في جميع البلاد المتمدنة ، ان لا تطلق يد شخص او بضعة اشخاص في التحكم بالامة على مقتضى الاهواء ، بل يكون للاقوام حق اختيار الطريقة وسن القوانين التي يحكمون بها وهو حق طبيعي للشعوب لم يبق في هذا الزمان من يجادل به وانما يوجد من يقول بتعليقه على شرط القدرة ولكن هؤلاء انفسهم يعترفون به من جهة الاساس و يرون تأجيل انفاذه بالفعل الى ان يصبح الشعب قادراً على حكم نفسه . والسيادة القومية تنفي حكومة الفرد المطلقة وتؤيد الحكومة الدستورية المقيدة و يختار مجلس المؤسسين احد اشكالها المعروفة .

الامة السورية غير مستحوذة اليوم على هذه السيادة القومية بالمعنى الذي يفهمه منها رجال العلم والعمل وهذه السيادة هي مطمح ابصار الشعب السوري وهدف آماله منذ امد بعيد وقد بذلت الامة لاجلها ضحايا ثمينة في الماضي وهي مستعدة لارخاص كل عزيز في المستقبل ايضاً لبلوغ هذه الامنية المحبوبة .

زعموا ان ذئباً صادق كلباً فشكا اليه مايقاسيه من الم الجوع فدعاه الكلب للعيش معه في حمى سيده ومناه بمافيها من الشحم واللحم فرافقه الذئب حتى اقتربا من الدار ولاحت منه التفاتة فرأى طوقاً في عنق الكلب وسأله عنه فقال هذا موضع الرباط الذي يضعه سيده في عنقه فانقلب الذئب ادراجه منهزماً الى القفر وقال للكلب آكل التراب مطلقاً ولا آكل اللحم موثقاً .

اذا كانت وحوش البرية تعشق الحرية مع الجوع وتهرب من العبودية مع الشبع افلا يعذر الشعب السوري الذي ادرك معنى الحياة و بلغ من الترقي والمدنية درجة لا يستهان بها اذا اشتهى الوصول الى حياة الاستقلال ورغب ان يكون له مالغيره من حق الحياة الممثل بالسيادة القومية؟

ان حزب الشعب بادخال هذا الهدف في دستوره عبر عن رغبة اساسية وامنية قوية راسخة في نفوس السوريين اجمع . وهو يسعى بالوسائل المشروعة لتحقيق هذه الرغبة والوصول اليها بالسرعة الممكنة .

٢— وحدة البلاد السورية بحدودها الطبيعية . وهذه ايضاً حالة مفقودة فان السياسة الحاضرة قد قضت على سوريا بالتقسيم والتجزئة فشطرت منها جزءاً كبيراً في الجنوب ووضعته في ايدٍ اخرى كما بترت منها اقساماً في سائر الجهات وقطعت اوصال الجسم الواحد وهذه الحالة اذا طال عليها الامد جيلاً بعد جيل تفضي الى حل العرى وفك الروابط الموجودة بين افراد الشعب الواحد . ناهيك بالاضرار المادية التي تنزل بالامة من جراء العراقيل التي احدثها هذا التقسيم في المواصلات وفي المبادلات التجارية

حزب الشعب يعتقد ان البلاد السورية ضمن حدودها الطبيعية ماهولة بشعب واحد تجمعه روابط الجنس واللغة والعادات والاخلاق وله ان يتمتع بوحدته ويستفيد من نتائجها المادية والمعنوية وليس للمنافع الاجنبية ان تحول بينه وبين حقوقه المشروعة اوتؤول الى اضعافه وانحلاله فالحزب بوضعه هذا الهدف بين الاهداف التي يرمي اليها قد استقصى حقاً من اصرح حقوق السوريين واعتمد السعي الى غاية يتمناها السوريون كافة بل هي الركن الذي لاتقوم لهم قائمة بدونه :

٣ — ضمان الحرية الشخصية بانواعها . وهذا حق بديهي اجمع عليه العلماء والمؤلفون وكل من كتب اوخطب اوقضى في بلاد الدنيا قاطبة . حتى اصبحت هذه الحرية الشخصية عند الامم الراقية مقرونة بحق الحياة وبمقتضاها لايحبس احد ولا ينفى ولا يعاقب بعقوبة اخرى من اي نوع كانت ولا يؤخذ ماله او شيء منه ولا تنتهك حرمة منزله ولا يمنع عن الكلام او الكتابة او السعي المشروع الا بالشكل الذي عينه القانون ولا يحرم من الاستفادة بما اباحه القانون ولا يكون لغيره ميزة عليه في شيء من الحقوق العامة ولا يسمح بسن قانون او بوضع نظام اوقرار يخل بالحرية الشخصية ولا يجبر احد على الاعتقاد بما لايعتقد في امور الدين والدنيا ولا يستعمل الضرب والتنكيل في تحقيق الجرائم ولا يسخر احد في عمل بدون اجرة الى آخر ما هنالك من القواعد التي ايدتها الثورة الافرنسية الكبرى وصارت اليوم عند الشعوب كانها الآي المنزلة او اللوح المحفوظ .

لااستطيع ان اقول ان هذه الحالة موجودة اليوم في سوريا . فان

الحرية الشخصية بالمعنى الذي نتلقاه منها الامم الدستورية ليست في بلادنا بالدرجة التي ترضي المنصفين . ولذلك وضعها حزب الشعب في برنامجه واخذ على نفسه السعي لتأييدها .

نحن نعلم جيداً ان وجود هذه الحرية شرط اساسي للحكم القانوني وبدونها لا تستطيع الاحزاب السياسية ان تشتغل في البلاد .

الشخص العاقل لا يقدم على عمل الا اذا علم انه عمل مباح في قوانين البلاد وعند ذلك يتقدم اليه بقلب مطمئن ونفس طيبة معتمداً على حماية القانون ويجب ان يكون اعتماده في محله ويكون له من القانون حرز حريز وحاجز منيع يدرأ عنه كل اعتداء مادام لا يرتكب فعلاً ممنوعاً .

البلاد التي حكومتها لا تحترم القانون او يهون عليها اختراق حدوده او تأويل معانيه بما يخالف الحقيقة لا تكون الحرية الشخصية فيها مضمونة ولا يكون العيش فيها هنيئاً وقد قالوا شر الظلام من خافه البريء .

الحكومة التي تجهر بنزع الحرية الشخصية وتمنع الناس علناً عن الكلام والكتابة هي اخف شراً من الحكومة التي تطلق الحرية ثم تنكل بمن يستفيد منها . الست ترى ان من يقول لا تذكروا الي عيوبي خير ممن يطلب للناس ان يهدوا اليه عيوبه ثم ينهال بالضرب على من يذكر فيه عيباً ؟

نحن نطلب ان يكون لنا قوانين تصان فيها الحرية الشخصية وان تكون هذه القوانين نافذة محترمة .

٤ — تدريب البلاد نحو سياسة اجتماعية ديموقراطية مدنية وهو الهدف العملي الذي يرمي اليه حزب الشعب وفي السعي نحوه يؤيد كل مشروع

او نظام يخدم الفكرة الاجتماعية المؤدية الى تأليف العناصر والقلوب بين افراد الشعب السوري وتوحيد الغاية في مساعي الامة ، اوالفكرة الديمقراطية المؤيدة قاعدة المساواة في الحقوق بين جميع الطبقات بدون السماح لطبقة ان تمتاز على غيرها في الحقوق العامة ، اوالفكرة المدنية القاضية بحرية الاعتقاد وتجرد الدولة عن الترجيح بين المذاهب الدينية اوالتقيد بها في ادارة البلاد ويعاكس كل اقتراح يفضي الى الاخلال في الفة العناصر واتحادها او يؤول الى التفرقة او يثلم مبدأ المساواة .

٥ — حماية الصناعة الوطنية وانماء الموارد الاقتصادية . وهذا الغرض لابد منه لتوسيع مرازق الناس وتمكين السوريين من تعلم الصنائع الحديثة وتأسيس المعامل لاصطناع السلع بالطرق الجديدة وهو لا يتيسر بدون وضع قاعدة الحماية المقبولة في فرنسا واميركا واكثر الممالك المتمدنة .

ان الشعوب الضعيفة لاتستطيع الثبات بالمزاحمة الاقتصادية امام الشعوب القوية بمالها وعلمها ، واذا لم تعضدها الحكومة بحماية مصنوعاتها تبقى مساعيها وتشبثاتها عقيمة مشلولة .

المكوس المفروضة اليوم على البضائع الاجنبية في ثغور سوريا ومداخلها غير موضوعة على قاعدة الحماية بل هي رسوم مالية الغرض منها ليس حماية الصناعة والانتاج الوطني بل جباية اموال للخزينة

غرض حزب الشعب السعي لاطلاق يد الحكومة السورية في نظام الجمارك لتفرغه بشكل ينشط الانتاج الوطني ويجعل السوريين يستغنون عن شطر كبير من السلع الاجنبية وبذلك يحفظ للشعب السوري قسم

من الاموال التي يدفعها للخارج بل ربما تمكن فيما بعد ان يصدر شيئاً من مصنوعاته الى البلاد الاجنبية ·

اما انماء الموارد الاقتصادية فيتضمن مع ترقية الصناعة والزراعة الاستفادة من ثروة البلاد الطبيعية كالمعادن ومهابط المياه وخصب الارض وطرق المواصلة والمرافئ وامثالها وهذا لابد له من رؤوس الاموال الكافية لاستنباطه واستثماره ويمكن الاعتماد فيه على رأس المال الاجنبي ضمن قاعدة تبادل المنفعة

٦— توحيد نظام التربية والتعليم في البلاد وجعل التعليم الابتدائي اجبارياً وعاماً · وهذا النظام سواء كان في المدارس الخصوصية ام في المدارس الحكومية تجري وحدته مع مصلحة الامة ونجاحها جنباً الى جنب· واذا شئت ان تعرف مستقبل الامة فانظر الى نظام التربية والتعليم فيها لان رجالها الذين لهم ايامها المقبلة ينشأون على ما اوجبه هذا النظام · فاذا كان متضارباً في مناهجه ومراميه نشأوا هم ايضاً متخالفين في نزعاتهم واهوائهم وانقادوا الى النعر التي تلقنوها فاحتدمت بينهم المنازعات الاهلية وتفرقت مذاهبهم وتمزقت قواهم وفي ذلك اندحارهم وتقهقرهم · واذا كان هذا النظام واحداً في وضعه وتلقينه خرج فتيان اليوم ورجال المستقبل موحدة كلمتهم مؤلفة قلوبهم ينبتون كالبناء المرصوص يشد بعضهم بعضاً تجاه كل كارثة ويعاونون على الخير والاصلاح·

نظام التربية والتعليم في الحاضر لايضمن لنا النتائج التي نريدها منه فان القسم الاعظم من ابناء الامة وبناتها يشبون على الجهل والأمية ،

والمدارس الموجودة في البلاد عاجزة عن سد الحاجة ناهيك باختلاف مناهجها وتغاير برامجها . الاميون في سوريا هم اكثر من ٩٠ في المئة وهذه الحالة هي كارثة اجتماعية لايستقيم معها امر ولا يرجى اصلاح . فلا يزيلها الا التعليم الجبري وجعل التعلم فريضة على كل فتى وفتاة . فلا ينقضي هذا الجيل حتى يصبح افرادالامة كلهم يقرأون ويكتبون ويخلص الشعب السوري من كابوس الجهل المنيخ عليه

هذه هي الغايات التي وضعها حزب الشعب دستوراً لعمله وآلى على نفسه ان يسعى السعي الحثيث لتحقيقها والوصول اليها بالسرعة المستطاعة . وقد اوضح في المادة الثانية من دستوره انه يسعى لتحقيق مبادئه بالطرق القانونية . وهي الوسائل المشروعة التي يجيزها القانون .

ان هذا الحزب قد اتخذ العقل رائده ، فليس لسياسة الطيش والتهويش مخلص اليه ، لا يسترشد الا بالعقل والعلم ولا يتسلح الا بالقانون ، فما دام القانون ضامناً للحرية الشخصية ومحترماً من قبل الجالسين في مواقع الاقتدار يبقى حزب الشعب ساعياً بالقدم الثابتة والعزم المبين نحو غاياته الوطنية . ان حزب الشعب يعتمد في نجاح خطته على يقظة الشعب السوري وحماية القانون فقط وينظر لكل وسيلة غير مشروعة او دسيسة سرية نظر الازدراء والاحتقار فهو يجري على العلانية في اعماله ومساعيه ويعتمد على الاقناع الحر في نشر دعوته وتكثير سواده . ويؤيد كل مشروع مؤتلف مع خطته المسرودة في هذا البيان

على هذه المبادىء وبموجب هذا العهد يدعو الحزب رجال الوطن

الغيورين للانضمام اليه ومشاطرته هذه المهمة الوطنية الواجبة على كل شخص يسر بنجاح سوريا وارتقائها

لو تلي برنامج حزب الشعب بمبادئه الستة على سياسي اوربي يجهل احوال سوريا الحاضرة لوقف موقف الاستغراب تجاه ادخال بعض هذه الاغراض التي ذكرناها في خطة الحزب وساءل نفسه عما حمل مؤسسيه على وضع تحقيق السيادة القومية ووحدة البلاد ضمن حدودها الطبيعية وضمان الحرية الشخصية بين الغايات التي يسعى الحزب لبلوغها لان هذه الامور هي عندهم من الحقوق الطبيعية التي لا يجادلهم احد عليها ولا ينازعهم فيها . وكل شعب من شعوب اوروبا واميركا متمتع بها ولا يوجد احد بين افراد ذلك الشعب يقول بخلافها فلا حاجة عندهم لتاليف الاحزاب لتحقيقها او للمحافظة عليها ولكنه اذا عرف ان الشعب السوري اليوم محروم من هذه الحقوق البديهية التي ما زال منذ امد بعيد يرفع الصوت عالياً بطلبها ويفادي بغواليه في سبيلها يعذر حزب الشعب على افتتاح دستوره بها . ويدرك انه يبدأ اعماله بوضع اساس الدولة وتوفير الاركان التي يقوم عليها البناء وبدون ذلك لا يمكن ان يكون للسوريين كيان شعبي ولا وحدة قومية .
اذا لم يتحقق برنامج حزب الشعب تطفأ بارقة الامل التي تنورها السوريون من خلال مشانق ابطالهم المصلوبين وتصرع الاماني الوطنية عند اقدام المطامع الاستعمارية ويقضى على هذه الامة بخيبة آمالها وتداعي عمرانها وهل يستطيع شعب ان يعيش طويلاً وهو محروم من المزايا القومية اللازمة لحياته واشتراكه في تنازع البقاء ؟ بل هل يوجد في سوريا شخص واحد على غير هذه العقيدة

الاولية التي اخذ حزب الشعب على عاتقه تأييدها وتحقيقها ؟ مهما بلغت الانانية من الاشخاص وتأصلت النفعية في نفوسهم لا يمكنهم ان يخالفوا هذه المباديء الوطنية او يناهضوا الشعب المطالب بحقوقه الاساسية وهم يعلمون علم اليقين انه عند نجاح هذه المباديء التي قام حزب الشعب لتاييدها تخرج الامة السورية من الظلمة الى النور و يكون لها بين الامم المدنية المقام الذي يوءهلها اليه ذكاء ابنائها وموقعها الطبيعي ومن لا يريد لامته حياة بدل الموت ورخاء بدل الشقاء وحرية بدل الاستبداد ؟

حزب الشعب ايها السادة غير قائم بالاشخاص الداخلين فيه بل هو قائم بالمباديء التي يسعى اليها وهي كما رأيتم وسمعتم امنية كل قلب ورغبة كل نفس . هذه هي ضائعتنا المفقودة وضالتنا المنشودة ، على وجدانها اتحدنا وفي تطلابها تعاهدنا . وكل يدٍ تمدّ لمساعدتنا في هذا المسعي نصافحها بالسرور . وكل تدبير مشروع يخدم هذه المباديء التي نعمل لتحقيقها و يعين على سرعة بلوغها نقابله بالارتياح ونرحب بالقائمين به

ان هذا الحزب يودّ الوصول الى اغراضه الوطنية باقصر وقتٍ ممكن فهو اذن يخالف كل خطةٍ تطيل الامد بينه و بين تحقيق مبادئه

حزب الشعب يريد ان يثبت للعالم المتمدن كفاءة السوريين ومقدرتهم على الحكم الذاتي فهو اذن معارض لكل سياسة خرقاء وادارة حمقاء ولتوسيد الامور لغير اهلها ولوجود الايدي العاجزة في الخدم العامة

حزب الشعب تألف لمصلحة الشعب السوري ومن هذا الشعب يستمد قوته و يعتمد في ايصال الامة الى غايتها على قوة الحق التي لا تغالب

خطاب

معالي الدكتور عبد الرحمن بك الشهبندر

من دواعي التفاؤل ان يرى المرء هذا الجمع المبارك ليحيي فيه اول كتلة وطنية انتظمت انتظاماً علنياً لخدمة البلاد وتايدها في جهودها بعد احتلالها.

ان هذه الخطوة الجديدة في حياتنا السياسية هي خطوة واسعة لان البلاد التي ليس فيها تنظيم يجمع كلمة اهل الشأن هي بلاد مشتتة لا رأي لها؛ ومن لا رأي له حري بأن يهمل و يلقى جانبا.

قد حمل علينا كتاب الغرب حملة شعواء بقولهم ان العرب — وهم على جانب عظيم من الذكاء وحسن البنية — عاجزون عن التعاون والعمل المشترك لبلوغ هدف معين. وربما توقع بعضهم جرياً على هذه القاعدة ان يدب الخلاف الى هذه الكتلة وهي في مهدها. بيد ان علينا ان نبرهن لهم ان الحوادث قد علمتنا، وان الضغط الخارجي الذي تلاقيه امتنا لاقوى من ان يسمح باستمرار هذه النقيصة فينا.

يمتاز هذا العصر بميزات جمة اوضحها من الوجهة الاجتماعية تنظيم الجماعات الى كتل متجانسة في مساعيها وغاياتها. فالتجار والصناع واصحاب الحرف مثلا تجمهروا الى نقابات، وحملة العلم واهل الفن ورجال السياسة الى جمعيات واحزاب، والدول الى متفقات واحلاف، كل ذلك في سبيل التعاون وجعل النتائج نافذة لا تضمحل امام الصدمات. ان وقوع الاقدام المزدحمة وقوعاً

منتظماً على قياس زمني مضبوط يهدد الجسور الضخمة بالانهيار لان في التجمع والتنظيم من القوة النافذة ما لا تحلم به الفردية المبعثرة والفوضى المنتشرة . والتابور واحد من الجند المدرب خير من الالوف وعشرات الالوف من اولئك الهمج المشتتين الضاربين في الفيافي الذين لم يتعودوا الانصياع في خيامهم ولا الفوا الانقياد في حركاتهم .

ومن سوء الظن الذي لا مبرر له ان يدّعي المرء ان الامة قد قصرت في تنظيم نفسها حتى الان . ايلام الخنيق اذا لم يتنفس والمكبل اذا لم يتزحزح؟ الا تجعل تلك الكمامات الموضوعة على الافواه والاغلال الملفوفة على الاعناق مثل هذا التنظيم متعذراً ؟ على ان الاعتراف بتأليف حزب علني سداه المطالبة بالسلطان القومي ولحمته تأييد الوحدة في البلاد هو ولا شك طور من الاطوار الجديدة في تاريخ الحياة السياسية في سورية .

تقرير المصير

راجت على الالسنة في غضون الحرب العالمية الفاظ سحرية كثيرة اتخذها المتحاربون احبولة لصيد الامم الواجمة، كقولهم حرب الديموقراطية وحرب التحرير وحرب الاقوام ولا غرم ولا غنم الى آخر ما هنالك من الالفاظ الجذابة والمعاني الخلابة التي لا نريد الخوض في البحث عن اخلاص واضعيها . ومن اجملها وقعاً في النفوس قولهم (تقرير المصير) اذ ارادوا به ان تكون ارادة الشعب باعتباره وحدة حرة ذات كيان خاص هي الحكم الاخير في تقرير مصيره والبت في امره ؛ بدلاً من جعله سلعة تتهاداه الايدي الغاصبة

وبياعة تعرض في اسواق الاستعمار للمساومة والمقايضة .

حقا ان فكرة « تقرير المصير » فكرة سامية تدل على علو كعب الموحين بها ، بيد ان هذا السمو نفسه كان عقبة كوءوداً في سبيل تحقيقها لان السياسة اذا لم تتمش دائماً وراء الابالسة الماكرين فهي قلما تحتذي بالملائكة المطهرين ، ولا نبالغ اذا قلنا ان اتخاذ السمو قاعدة لحل الخلاف في البيئة السياسية المنحطة لا يخلو من الفشل الذي يصيب اتخاذ الشرف ! اساساً لتقسيم الاسلاب بين اللصوص

ليس تعيين المصير بهذا المعنى الكمالي هو ما توخيناه في كلامنا ، بل اننا اردنا ان نقف موقفاً اثبت من ذلك فنطل منه على العوامل الطبيعية الحيوية التي تجري بموجبها الامم رغم انوفها فيتقرر مصيرها كما يتقرر هبوط الاجسام الجامدة وصعود الاجسام الغازية بقاعدة الجذب التي لا تحابي ولا تعرف الرحمة .

وغير نكير ان العلم بشكله الحاضر لا يزال عاجزاً عن البت في احوال المصير بالصورة المفصلة . لكن الا توجد في ايدينا بعض القواعد العامة التي يسترشد بها الباحثون؟ من منا يشك مثلا ان الاستمرار على الاستعداد للحرب بالغواصات والطيارات والدبابات والغازات الخانقة سيوءدي حتماً الى الحرب ؟ هل بقي احد من اهل الحصافة يوءيد تلك البلاهة القائلة ان التسليح هو خير ضمان للسلم ؟ اليس شحذ المدى بايدي العصابات المتوحشة وغمس الحراب بالسموم النباتية برهاناً على قرب وقوع الكارثة ؟ وانه لاسهل على عصبة الامم وهي بعجزها الحاضر ان تحول دون الخصام بين المتوحشين الضعفاء من ان تحقن الدماء بين الذين اتخذوا اسمى آيات العلم والفن وسيلة لاهراقها .



بمثل هذه القواعد التي محصها العلم واثبتها الاختبار اريد ان استرشد في تقرير مصير البلاد التي تغذينا بلبانها وعلى حبها عشنا وفي حبها نموت ٠

العامل الجغرافي

قال لي الدكتور (لاد) وهو من الاساتذة المعروفين في نيو يورك « الستم كمن يناطح الصخر الاصم في مقاومتكم الحال الراهنة في بلادكم ؟ » فقلت له « هلم بنا الى المصور الجغرافي علنا نجد فيه ما ينشطنا » فقمنا الى مكتبته الجميلة وعلى احد جدرانها مصور اسيا الصغرى و بلاد العرب ٠ فاشرت الى سورية بسبابتي وقلت هنا باب الغرب الى الشرق وباب الشرق الى الغرب ٠ وسيكون هذا الممر من الوجهة البرية عند الدول صاحبة الشأن اعظم خطورة من ترعة السويس من الوجهة البحرية ٠ ثم ذكرت له انني قضيت شهرين كريتين في سنة ١٩١٥ في الصحراء قبل ان ابلغ شط العرب ، ولكن بعد اكتشاف طريق السيارات في بادية الشام صار من السهل اجتياز هذه المسافة الشاسعة في اقل من يومين ، وهكذا اصبح المرء بين عشية او ضحاها ينتقل من شواطئ البحر الابيض الى لب بلاد الشرق ٠ والسبيل الوحيد للمساواة في مراعاة المصالح الدولية فيه هي تسليمه لاهله بحيث يكون باباً مفتوحاً للجميع ٠

ثم ان هـذه البلاد يحدها من الشمال والشرق والجنوب دول شرقية مستقلة او شبه مستقلة و بعضها ذات لحمة واتصال بانساب اهلها ٠ افلا يتعذر الدفاع عنها ما لم يكن هؤلاء الاهل عاملاً اصلياً في هذا الدفاع ؟ وما لم يكونوا راضين عن الحال في بلادهم فكيف تستطيع قوة ان تجبرهم على الدفاع عنها

دفاعاً من صميم افئدتهم ؟ الا يجب حينئذ تطبيق نظرية اسماعيل فاضل باشا وخلاصتها تطويق سورية بنطاق من قلاع صغيرة (بلوكهوسات) تقام على ابعاد متقاربة لحمايتها من نفسها ومن جيرانها ؟ اننا نتثاقل في مشيتنا من غير هذه الاحمال الثقيلة فما بالك لو اضفناها ؟

العامل الاجتماعي

يحصل هذا من تماس الشعوب واتصالها بعضها ببعض وهو اشد فعلاً في تطور الامم من العامل الجغرافي .

قد تنجح طريقة الجوازات واقامة السدود على طريقة السد الصيني في منع الغرباء من الدخول الى البلاد التي تأباهم حكوماتها ، ولكن ما من سبيل الى منع الافكار الجديدة من التسرب الى الاذهان المستعدة ، خصوصاً متى بلغت الامة درجة من الوعي العام يتعذر معها اسبال الستائر على الافهام . هل يتوصل الدهاء السياسي يا ترى الى اقامة حاجز صفيق بين العراق والاناضول مثلاً بحيث يتمكن الاذلاء والمأجورون والجواسيس واسيادهم من اقناع العراقيين انهم متمتعون باستقلال تام ناجز كما يتمتع الترك ؟ ان الامراض الاجتماعية التي تنزل بالامة الواحدة كالفوضوية مثلاً يعجز الحجر الصحي عن منعها من الدخول الى الامم الاخرى ، فهل يعقل ان القسر ووسائل الارهاب مع التدجيل تستطيع الوقوف دون تسرب الفضيلة . ولو قدر لبشر ان يقف سداً دون الحرية فما احرى السلطان عبد الحميد الثاني ان يكون ذلك الرجل ، ولكن حنكة رجال المابين ودربة جيش الجواسيس ومن وراء

ذلك دروس ما كيافالي التي كان يلقيها عاهل يلديز على اعوانه مزقتها رياح الحرية لما هبت في سلانيك ·

ان روؤس الاصنام في المعابد هي اول من يهتز لصوت الانبياء، لان الجدران مهما كانت منيعة لاتقوى على صوت الحق ·

العامل الجنسي ·

ان سكان هذه البلاد على اختلاف العشيرة يمتون باصولهم الى الجزيرة العربية · ومهما كانت عيوب هذه الجزيرة فان فضياتها البارزة هي انها تطبع ابناءها على الحرية · فالحرية هي غريزتنا ، ولا هون على البشر ان يخفوا منا ملامحنا و يلاشوا الواننا وتقاطيع وجوهنا وقامتنا وشكل شعورنا من ان يزيلوا هذه الغريزة من انفسنا · وقد رأيت بعض الاذلاء يحاولون غمطنا هذه الفضيلة بضربهم الامثال على استبداد الترك احقاباً في بلادنا ·

ان الترك لولم يستعربوا في عاداتهم وتقاليدهم و يعاملوا الاهلين كما يعاملون سكان الاناطول انفسهم لما استطاعوا ان يؤسسوا لهم في بلاد العرب عرشاً ثابتاً · ومذ خالطوا اروبا ودرسوا طرق استعمارها ودار في خلدهم ان يجعلوا الجزيرة مستملكة والعرب اتباعاً وان يقضوا على اللغة العربية و كنوزها التي لاتفنى — منذ ذلك اليوم نقدم شهداؤنا الاشاوس الى المشانق بروؤس مرفوعة وصدور رحبة ليثبتوا للعالم ان تحت الرماد الذي ذره الترك جمراً يلتهب من غضا الحرية

تكاد تكون جميع الانقلابات التي حدثت في عصر التاريخ ناشئة عن العامل الاقتصادي · فالشقاء الذي اناخ بكلكله على سواد الشعب الفرنسوي في

اواخر القرن الثامن عشر كان مثل البوءس الذي خيم على الفلاح الروسي في اوائل هذا القرن ، وفي كلا البلدين انتج استثمار الطبقة الاريستوقراطية للطبقة العامة نتيجة واحدة هي الثورة ٠

ان كيان اوربا يهدد في يومنا هـذا بحرب عوان تدعى حرب الطبقات ، وخلاصتها ان تسعة اعشار الامم الغربية وهم العمال يشتغلون آناء الليل واطراف النهار لاشباع بطون العشر الباقي واملاء جيوبهم وهم المولون ٠ ان منافع المولين في البلدان المختلفة تتضارب فتنتصر لها الطبقات التي تعيش على فضلاتها ، كالطبقات الملكية مثلا ، مما يوءدي الى نزول الكارثة على روءوس العمال المساكين ، فتراهم يساقون الى المجازر سوق الانعام من غير ذنب اقترفوه ٠ وقد كانت نتيجة الصراع الاوربي الاخير ان نحواً من ثلاثين مليوناً من افتى البشر وجلهم من الطبقة الثالثة ذهبوا على مذابح الاطماع المالية فهل يعادل الشرق الاوسط جميعه ياترى بما فيه الاناطول والاستانة دية هوءلا الراحلين البائسين ؟

لو امسكنا عشرة من المارين في اي شارع من شوارع العواصم الاوربية لرأينا تسعة منهم يستنكرون الحالة الشرسة التي عليها معظم الحكومات الغربية ، وهم اذا ما سمعوا بالمظالم والمغارم التي تجنى باسمهم قالوا ليس بين شعوب الارض شيء من سوء التفاهم وانما هو صراع رأس المال ٠

ومهما كان عذر الفاتحين في احتلالهم البلدان الغربية عنهم ، فان الزيوت ، والانهار ، والشلالات ، والاحجار ، والاتربة ، والمعادن ، والاخشاب ، والحبوب هي (عند التحليل النهائي) وراء الدعوة الفارغة التي يتظاهرون بها ٠ ومعنى

ذلك ان رؤوس الاموال استرخصت الموارد الوطنية فاندفعت تطلب لها مستودعاً في الخارج يدر عليها اللبن والعسل فلم تر خيراً من البلاد البكر واتخاذ سكانها عمالاً بالاجور الرخيصة .

ان تسرب اموال البلاد المغلوبة على امرها من جيوب ابنائها يوماً بعد يوم سينتهي بهم الى الافلاس حتماً . واذا كنت اعتقد ان الشيوعية وضع لا يلتئم مع الغريزة الشرقية فانني لا اعتقد ابداً ان الاشتراكية المعقولة تناقض عقيدة الشرقيين ، وسينتهي الافلاس بالبلاد المستعمرة الى حشرها في صف العمال ليتعاون الجميع على تحرير الانسانية البائسة من مخالب الاصفر الرنان .

هذه هي العوامل الاربعة الكبرى ، ولا ينكر ان لكل واحد منها على انفراده علاجاً مؤثراً ، فللعامل الجغرافي الحرس والسدود والقلاع ؛ وللعامل الاجتماعي الارهاب والسجون وكم الافواه وعقل الاقلام ، وللعامل الجنسي رشوة العلم وبناء المدارس الفاسدة ونشر التربية الذليلة . وللعامل الاقتصادي استئجار الصحف النفعية وبث الدعوة الكاذبة . غير ان مقاومتها جميعاً تتطلب قوة لا تفي عند الحساب الدقيق مناهضتها .

ولا يظنن احد انني من المغرورين الذين لا يعرفون اوروبا ولا يقدرون قوتها حق قدرها ، او لا يحبطون بالنظم المحكمة التي وضعتها لاستثمار البلاد المستضعفة ، غير ان يقيني بغلبة القواعد العلمية هو يقين كالراسيات لا يتزلزل .

استطاعت شركة السكة الحديدية بين بيروت والشام ان تسير قطرها على ظهور لبنان العاتية بواسطة المسننات رغم انف الجاذبية ، ولكن في اليوم الذي يحفر فيه نفق حمانا يموت ظهر البيدر لان الاستمرار على مقاومة الطبيعة

عناد يكلف اصحابه الكلف الباهظة و يوءدي في آخر الامر الى الفشل ٠

لا يتأتى النجاح من مقاومة الطبيعة ومصارعتها بل من مجاراتها والتكيف بحسبها ٠ فاذا وجد طريقان يوءديان الى الطاحون احدهما سهل حدر والاخر وعر قردد فمن البلاهة ان يرغب الطحان في الوعورة عن السهولة الا اذا كانت وجهته غير المطحنة ٠

ان الليالي حبالى والمستقبل حافل بانواع الاحتمالات فعلى الاقوام المظلومة التي تطلب الهواء الطلق والنور المشرق والحياة الرفيعة ان تجعل لكيانها قيمة مادية في الميزان الدولي، وان تبقي قبس القومية مشتعلاً دائماً اشتعال نار فارس لتستضيء به في الملحمة القادمة اذ يكون الظلام دامساً والدليل حائراً والغلبة يومئذٍ للمتقين



برنامج

حزب الشعب

قانونه الاساسي

المادة الاولى — يعمل حزب الشعب المؤسس في دمشق على تحقيق المبادىء الآتية :

آ — تحقيق السيادة القومية

ب — وحدة البلاد السورية بحدودها الطبيعية

ج — ضمان الحرية الشخصية بانواعها

د — تدريب البلاد نحو سياسة اجتماعية ديمقراطية مدنية

ه حماية الصناعات الوطنية وانماء الموارد الاقتصادية

و — توحيد نظام التربية والتعليم في البلاد وجعل التعليم الابتدائي اجبارياً وعاما .

المادة الثانية — يسعى الحزب لتحقيق مبادئه بالطرق القانونية

المادة الثالثة — مركز الحزب دمشق ويؤسس له فروع في جميع البلاد السورية

النظام الداخلي لحزب الشعب

١ — تأسس حزب الشعب في دمشق يوم الاثنين الواقع في ٩ شباط سنة ٩٢٥

٢ — يتألف الحزب من هيئة عاملة وهيئة ادارية واعضاء شرف

٣ — تتألف الهيئة العاملة من مجموع اعضاء الحزب العاملين

٤ — تنتخب الهيئة الادارية من الهيئة العاملة بالاقتراع السري وتتألف من كاتم سر وخازن وخمسة اعضاء عاملين

٥ — تقبل الهيئة الادارية الاعضاء العاملين على طريقة تقديم طلب خطي اليها يتضمن موافقة الطالب على مبادئ الحزب الاساسية وللهيئة الادارية وحدها حق قبوله باكثرية الآراء عضواً عاملاً او عضو شرف

٦ — يعتبر عضو شرف كل من آزر الحزب موآزرة ادبية او مادية

٧ — وظيفة الهيئة الادارية

ا — تنفيذ المقررات التي تضعها لتحقيق مبادىء الحزب

ب — تنفيذ المقررات التي تضعها الهيئة العاملة في اجتماعها العام

ج — مخابرة جميع فروع الحزب المؤسسة في البلاد السورية

د — دعوة الهيئة العاملة الى عقد اجتماع في كل ستة اشهر او لمسائل اخرى حسب اللزوم

وظيفة الهيئة العاملة

٨ — الاجتماع في كل ستة اشهر مرة بدعوة من الهيئه الادارية وحين اللزوم للنظر في اعمال هيئة الادارة وتفتيش حساباتها

تاليف الفروع ووظائفها

٩ — تتألف هيآت فروع الحزب من امين سر وخازن واعضاء يتناسب عددهم مع اهمية مركز الفرع

١٠ — تنفيذ القرارات العامة التي تتخذها هيئة ادارة الحزب المركزية لتحقيق مبادئ الحزب الاساسية

١١ = تنظيم المخابرات مع المركز بواسطة امين السر

مالية الحزب

١٢ = تتألف مالية الحزب من رسوم الدخول والمرتبات الشهرية والتبرعات وواردات الحفلات العامة التي تقيمها

١٣ — يؤخذ نصف ليرة ذهبية او ما يعادلها ورقاً سورياً من كل من يطلب الانضمام الى الحزب عند قبوله

١٤ = يدفع كل عضو من اعضاء الحزب راتباً شهرياً قدره مجيدي واحد او مايعادله ورقاً سورياً

١٥ — يقبل الحزب التبرعات والهبات المقدمة اليه

١٦ — تجبى المرتبات والتبرعات وغيرها بواسطة جاب يعينه الخازن ويسئل عنه امام الهيئة الادارية

١٧ = تعطى وصولات بالمرتبات والتبرعات موقعة من الخازن وكاتم السر وعضو اداري منتخب بقرار من هيئة الادارة

١٨ — لا يجوز انفاق شيء من المال الا بقرار من هيئة الادارة

وظيفة الخازن

١٩ — تنظيم دفاتر الحسابات على اصول الدوبيا

٢٠ — حفظ الاموال وتقديم اقتراحات بطريقة استثمارها

* * *

وظيفة امين السر

٢١ — تسجيل قرارات الهيئة الادارية

٢٢ = دعوة هيئة الادارة الى الاجتماعات التي يرى ضرورة لعقدها

٢٣ = مخابرة فروع الحزب وتنظيم سجلات لها

٢٤ -- تسجيل اسماء اعضاء الحزب العاملين واعضاء الشرف

٢٥ = حفظ خاتم الحزب الرسمي

المؤتمر العام

٢٦ — يعقد الحزب موءتمراً حين الاقتضاء يدعى اليه اعضاء الفروع اللذين تنتخبهم هيآتها الادارية للبحث في شؤون الحزب العامة



الدولة العثمانية

في

البلاد العربية

حكم أربعة قرون

١٥١٧ — ١٩١٦

بقلم

« المعروف »

سنة ١٩١٦

الدولة العثمانية

في لبنان وسورية

حكم اربعة قرون (١٥١٧ — ١٩١٦)

تمهيد

تنطوي صفحة هذا العام وبها تنطوي آخر صفحة من تاريخ المئة الرابعة للحكم العثماني في الديار السورية (١٥١٧ — ١٩١٦). فقد دخلت سورية في حيازة بني عثمان في منتصف الربع الاول من القرن السادس عشر بعد انقراض دولة المماليك(١) على يد السلطان سليم الاول الفاتح العثماني الشهير وبعد قرنين ونيف لخروج الصليبيين منها (٢)

وتاريخ سورية في عهد بني عثمان انما هو حلقة من سلسلة البلايا والارزاء التي توالت عليها في عصر المماليك فذهبت بالضرع والزرع واوردت العباد موارد الضنك والشقاء. يتصفح المرء تاريخها في ذلك العصر فيخيل اليه انه يتصفح تاريخ العصور الاولى للبشرية. فيقف مبهوتاً حائراً ازاء ما يقع عليه نظره في ذلك السفر الضخم من اخبار تلك الحقبة الطويلة التي اجتازتها الديار الشامية وهي تتعثر باذيال الحطة

---

(١) يعرف هؤلاء المماليك بالبرجية أو الجركسية. أسس دولتهم الملك الظاهر برقوق المعروف بيلبغا الكبير سنة ١٣٨١ م وحكمت سورية الى سنة ١٥١٧ حيث دانت هذه البلاد لصولجان بني عثمان. وقد تخلل حكمهم لها فتن وحروب شديدة مزقتها تمزيقاً وقضت على البقية الباقية من مجدها. ودخلت هذه الفتن في القرن الرابع عشر وما يليه في دور مخيف محزن حتى فترت همم اهلها وفلّ عزائمهم الماضية ما توالى عليها من الكوارث والنكبات وباتوا لايشعرون بضغط الحكام وتحكمهم برقابهم لان المصائب الفادحة التي نزلت بهم افقدتهم حاسة التأثر. وزادت حالة سوريا سوءاً على اثر غزوة تيمورلنك الطاغية المغولي الشهير لها سنة ١٤٠٠ وفتحه دمشق ودكها من اساسها وسبيه علماءها وصناعها الى آخر ما هو معلوم من اخبار تلك الغزوة

(٢) دخل الصليبيون الى سورية سنة ١٠٩٩ م وتملكوها زهاء قرنين صرفوهما في محاربة الدول الكردية والتركية ومملكة الروم ومن والى هذه الدول من امراء البلاد واعوانهم وكان عهدهم في الديار الشامية عهد رخاء ورقي بالقياس على ما عانته هذه البلاد في عهد اسلافهم واعقابهم من الشدائد والاهوال

والهوان تمزق احشاءها فتن داخلية لا تخبو نارها وتقطع اوصالها حروب خارجية طاحنة لا يخمد اوارها تفنى الجيوش واحداً بعد آخر وتدمر الاقطار والامصار قطراً بعد قطر ومصراً بعد مصر ووزراء الدولة ونوابها في هذه البلاد التعسة منصرفون الى السلب والنهب وسفك الدماء اشباعاً لمطامعهم الاشعبية وزعماء الاحزاب والانكشارية في قاعدة السلطنة يكيدون المكايد ويعقدون المؤامرات لخلع السلاطين والاستبداد من دونهم بشؤون الدولة على ماتشاء اهواؤهم وتقضي به مآربهم واغراضهم

ظهر الاتراك عند استيلائهم على الديار الشامية والمصرية والعربية بمظهر الخلفاء الاولين فاجروا العدل بين الناس واقاموا دعائم سلطانهم على اساس الحلم والانصاف فاقالوا البلاد من عثرتها وانتشلوها من وهدة الخراب والانحطاط التي كانت دول الاكراد والمماليك والمغول قذفت بها اليها . لكنهم بعد انقضاء زمن الفتح واستتباب الامر لهم في هاتيك الديار فقدوا صفات الخلفاء الاولين لان هذه الصفات لم تكن من خلالهم الفطرية ولم يألفوها في قصور السلاطين الذين تقدموهم وشادوا مجد دولتهم على اسنة الرماح وشفار السيوف ذاهلين عما ينبغي لارباب التيجان ان يتحلوا به من الفضائل الرائعة ليتمكنوا من توطيد اركان الدولة على اساس صحيح ثابت لا تقوى عليه صروف الدهر وكوارث الايام . فلم تتمكن لذلك هذه الصفات من نفوسهم الا على قدر ما كانوا في حاجة اليه لتهدئة الخواطر وذرّ الرماد في العيون حملا للرعية على الاستسلام لمشيئتهم والخضوع لسلطانهم . وعلى هذا لم تكن بلاد الشام تطمئن الى حكم آل عثمان وتذوق طعم الراحة فترة قصيرة وتحمد الله على انقضاء زمن الشدائد والاهوال التي عانت مرارتها ودكّت الى الحضيض معالم مجدها حتى عادت الى اسوأ مما كانت عليه فجار السلاطين وجار نوابهم وعمالهم فيها فرجعت القهقرى وغرقت في لجة عميقة من الضنك والشقاء وفني الشعب السوري في الفتن والحروب الاهلية وحال اعتساف الحكام ووشاياتهم بعضهم ببعض وتحاسد الزعماء وتنابذهم دون سدّ ثلمتها واصلاح ما فسد من امورها . وجرى ذكر الحكام الذين تفوّقوا على غيرهم بالجور والاعتساف مجرى الامثال الى يومنا هذا نظير قراقوش والي حلب واحمد الجزار والي صيداء ويوسف باشا سيفا والي طرابلس وبني حمادة حكام المنيطره وبلاد جبيل وغيرهم ممن سنأتي على ذكرهم في ما يلي من فصول هذه النبذة

وقد ظلت سورية الى ايامنا هذه خاضعة للدولة العثمانية . الا انه تخلل عصر

كلمة للمؤلف

في هذه النبذة صورة جليَّـة لماضي البلاد السورية . والماضي مرآة الحاضر . فللبصير اللبيب من مواطنيّ الاعزاء الذين يلتمسون الخير لوطنهم ان يسترشد بالعبر التي تتجلَّى له في هذه المرآة الى النهج القويم الذي ينبغي له ان ينتهجه لابلاغ امته الى حيث تأمن تجدّد النكبات التي توالت عليها في الدور الاخير من تاريخها

ولنا في روح الوفاق الذي سرى اليوم في جسم الامة السورية ما يمهد للصادقي الوطنية من السوريين واللبنانيين سبيل الخروج بها من المأزق الحرج الذي حشرها فيه اعداؤها ولاسيما اذا ما عرفوا ان يستخرجوا من ثنايا قضية الحلفاء الشريفة المشتركة موعظة لهم ترشدهم الى اصدقاء امتهم الحقيقيين

العثمانيين فيما فتن وحروب اخرجتها من حكمهم الى حين ثم استرجعوا سيادتهم عليها كما سنبين ذلك فيما بعد

على ان في الشعب السوري نزعة شديدة الى الاستقلال كامنة فيه من أقدم أزمنة التاريخ ورثها من الآراميين والفينيقيين اجداده الاولين مع ما ورثه من ميزاتهم وفضائلهم واحتفظ بها احتفاظه بدمه بحيث باتت خلقاً فيه فتأصلت وشائجها في نفسه ونمت جرثومتها في صدره على رغم ما توالى عليه من النكبات الماحقة لكيان الشعوب والمميتة لمادة الحياة فيها فلم يستطع لذلك الوزراء والنواب الذين تداولوا ولاية سورية في عهد بني عثمان ان يستأصلوا من نفس الشعب السوري هذا العامل الحيوي العظيم الذي هو في اعتبار علماء الاجتماع اساس الحياة القومية . فظلت سلطة الامراء والحكام المحليين ولا سيما في لبنان على ما كانت عليه قبلا فكانوا مستقلين في شؤونهم الداخلية على تمام حريتهم لا يرجعون الى الدولة الا في الامور الكلية الكبرى ولا سيما في عهد الامراء التوخيين والمعنيين والشهابيين واللمعيين وبني عساف وسيفا وغيرهم فكان اولئك الامراء والمقدمون والمشايخ من ورائهم يقضون بين الناس بحسب مشيئتهم ومنازعهم والناس بين هولاء واولئك فرق واحزاب مختلفة المشارب متباينة الانحراض والمآرب

على ان ما كان سائداً بين هولاء الحكام من التقاطع والتحاسد وما كان يجري بسبب ذلك من الفتن الداخلية كان من اكبر البواعث على تداخل الدولة في شؤونهم وتوطيد سلطتها في هاتيك الربوع . ومن البلية ان الحكام كانوا يعلمون حق العلم ان المال في الدولة عماد الحق ودعامته الكبرى فكانوا يقدمونه في الاعتبار على حقوقهم الموروثة في الولاية فيتنافسون في احراز النصيب الاوفر منه واستمالة رجال الدولة بما ينفحونهم به منه طمعاً في الظفر بمساعدتهم لهم على بلوغ مناصب الحكم . وكان هولاء الطغاة السفاحون يتفننون في اساليب النهب والسلب اشباعاً لمطامعهم واملاء لجيوبهم من مال الرعية على يد اولئك الحكام . وقلما كان يستتب الامر لواحد منهم بغير المال . وكانت ولاياتهم واقطاعاتهم ودوائر حكمهم ونفوذهم تتسع او تضيق بنسبة الهدايا المالية التي كانوا ينفحون بها زمرة الوزراء والنواب . وكانت مباراتهم وبذلهم في هذا السبيل باعثاً لهم على ظلم الرعية وارهاقها بالضرائب الفادحة والرعية تئن تحت هذا النير الثقيل . وكثيراً ما كانت تنتقض على حكامها فيقاسون الشدائد في ردها الى الطاعة . واذا لم يكن لها قبل بمناهضتهم هجرت

104.

اوطانها الى حيث تأمن ببورثم وتتقي نقمتهم وهو ما يعلل به انتقال جماعات كبيرة من جهة الى جهة اخرى من لبنان وسورية واستيطانهم لها الى اليوم . ومن نكد الطالع ان هذه العادة تأصلت في الديار الشامية الى عهدنا هذا مع ان اهلها يعلمون يقيناً انها في مقدمة البواعث الرئيسية على تقهقر بلادهم وبلوغها من الفوضى السياسية والانحطاط الادبي درجة ليس بعدها زيادة لمستزيد

ولو اتفق امراء سورية ومقدموها ومشايخها وعرفوا ان يستفيدوا من الاستقلال الداخلي الذي كانوا يستمتعون به في ذلك الحين لكان شأنهم مع الدولة السائدة فيهم غيره في ذلك العهد ولا سيما انهم وَرثوا السيادة في بلادهم وعشائرهم اباً عن جدّ . ومن احرزها منهم بنفسه فانما احرزها بسيفه وقوة ساعده وفطنته وذكاء فؤاده . فلم يكن ينقصهم للاحتفاظ بها وتركها ارثاً ثميناً لاعقابهم الاّ شيء من التفاهم والاتفاق وهو لسوء الحظ ما لم يدركوه الى اليوم

على أن التاريخ والتقليد حفظا لنا من الآثار الطيبة التي خلفتها فئة كبيرة من أولئك الحكام ما يجمل بالابناء الذين ورثوا السيادة عنهم ان ينسجوا على منوالهم فيه . ولهذه الفئة من الفضل في بثها روح الوطنية الصادقة في صدور الابناء وبذرها في نفوسهم بذور الفضائل الرائعة والصفات الممتازة ما لا يسع المنصف جحده واغماطه . غير أن سيئات ذلك الحكم البائد الذي كان قائماً على شفار السيوف حطت من قدر تلك الفئة وطمست معالم فضلها واضاعت في ذلك التيّار الجارف فضائلها . فاختلط الحابل بالنابل. ولم يعد بالامكان تمييزها عن غيرها من الفئات الفاسدة الضالّة التي افسدت على الناس امورهم واغمطت فضل نوابغهم وفضلائهم وهي تؤلف الاكثرية المطلقة . ولهذا كان حكم المؤرخين الناقدين على ذلك العصر الذي نشأت فيه تلك الفئة عاماً شاملاً اخذ فيه البريء بجريرة المذنب

ومن الذين حكموا الديار الشامية في عصر العثمانيين الامراء التنوخيون والمعنيون وآل علم الدين اليمنيون والشهابيون واللمعيون وآل ارسلان وعساف وسيفا والمقدمون كبني المشروقي او الحصروني والعناحلة وبني الشاعر والمشايخ بنو جنبلاط وبنو حماده والخازن وحبيش والعازار وتلحوق ودحداح ونكد والضاهر والخوري والاعيان كآل العظم والمطرجي والعمر وبربر والاسعد وغيرهم . ولكثير من هؤلاء الامراء والمقدمين والمشايخ والاعيان حروب شهيرة مع وزراء الدولة ونوابها وعمّالها. وكثيراً

ما كانوا يعصونها فيقاسي الشدائد في خضد شوكتهم واخضاعهم كالامير فخر الدين المعني وجنبلاط باشا والي حلب والامير بشير الشهابي الكبير ويوسف بك كرم وغيرهم ممن سنأتي على ذكرهم في ما يلي . ولا يزال خلفاؤهم الى اليوم يقاومون النفوذ التركي في الديار الشامية ويصدون تياره الجارف . الا ان مقاومتهم للدولة خرجت عن طورها القديم وافرغت في قالب ادبي سياسي وهو ما كان اشدّ خطراً على نفوذها وسيادتها من المقاومة الحربية . ولنا في الثورة الفكرية الحاضرة التي نشأت عن المظالم والموبقات التي يرتكبها رجالها اليوم في الديار الشامية وألفت بين مختلف العناصر السورية في الداخل والخارج ما يحمل على الرجاء بان هذه البلاد داخلة قريباً في دور جديد ينسيها مساوىء هذا العصر الذي حملت نيره الثقيل على عاتقها سحابة اربعة قرون كاملة

سورية في القرن السادس عشر

﴿ الفتح العثماني ﴾ لما جلس السلطان سليم الفاتح العثماني الشهير على سرير السلطنة [١] كانت القوتان المادية والمعنوية في الجيش العثماني من الوهن والانحطاط لما ناله من الخسائر الفادحة في الحروب التي خاض غمارها والفتن التي قمعها بحيث لم يكن يستطاع التعويل عليه كثيراً لتدويخ الامصار وفتح الممالك التي كان هذا الفاتح العظيم يطمع باخضاعها لصولجانه . وكان الغازي شجاعاً باسلاً صادق العزيمة قوي الشكيمة مشغفاً كاسلافه بالفتح فانصرف الى تنظيم الجيش وتعزيزه واذكاء نار الحمية في صدور قادته . ثم زحف به لمقاتلة الفرس وملكهم يومئذ شاه اسمعيل الشيعي — وكان فاتحاً عظيماً شديد البأس قوي المراس . فقاتله الفاتح العثماني سنة ١٥١٥ ودوخ بلاده واضعفه حتى أمن شره . ولم يكد يفرغ من قتال الفرس ويستتب له الامر في ولاياته البلقانية والاوربية حتى طمحت نفسه الى فتح الديار الشامية

---

(١) هو ثالث أبناء السلطان بايزيد الثاني . ولاه ابوه على طرابزون فلم يقنع بها وعصاه وزحف بجيش من التتر الموالين له على الروملي فدانت له وسمى نفسه سلطاناً على ادرنه. وما انفك حاكماً على اضعاف سلطة ابيه حتى قوي عليه واستمال الانكشارية اليه. فشدوا ازره في ما وقع بينهما من النزاع وأفضى به الامر الى انتزاع الصولجان من يده وارغامه على الخروج من عاصمة ملكه شريداً طريداً (سنة ١٥١٢) الى حيث قضى نحبه . ونازعه اخواه العرش فقمع فتنتهما وأمن شرهما وفتك بمن وقع تحت يده من آل عثمان ليأمن غدرهم ويستبد بالدولة من دونهم

والمصرية . وكان ما آل اليه هذان القطران الشقيقان في عهد المماليك من الضعف والانحطاط باعثاً له على استصغار شأنهما والتعجيل في اجتياحهما ولا سيما انه شعر بعدم انتظام امور هؤلاء المماليك فيهما وعجزهم عن الاحتفاظ بسيادتهم عليهما . فزحف على سورية بجيش عظيم (١٥١٦ — ١٥١٧) فالتقاه الملك الاشرف قانصوه الغوري من مماليك مصر — وهو يومئذ سلطان مصر والشام — في مرج دابق شمالي حلب ومعه الغزالي نائبه في دمشق والامير فخر الدين المعني الاول امير لبنان . فتسعرت نار الحرب واستمال الغـازي ابن معن والغزالي اليه . فانحازا الى جانبه ورجحت كفته . فدحر جيش المماليك واعمل السيف في رقابهم ولقي الغوري حتفه في هذه الوقعة وخلفه ابن أخيه الملك الاشرف طومان باي [1] . ثم احتشدت جيوش الجراكسة عند غزّة . فتأثرها الظافر وكسرها شرّ كسرة . ففرّ طومان باي الى البلاد المصرية ووقف هناك بفلول جيشه يستعد لمقاومة عدوه . فاستأنف الغازي العثماني زحفه وادركه . وكان في طليعة الجيش المصري خير بك أحد امراء المماليك ونائب الغوري في حلب . فاستماله السلطان سليم اليه ووعده بان يوليه على مصر ان هو خان مولاه . فانحاز برجاله الى الغازي وقاتل في صفوف جيشه . فظفر بجيش الجراكسة ونكل به واستأسر الملك طومان وشنقه (١٥١٧) وبه انقرضت دولة المماليك البرجية او الجركسية وتمّ للسلطان سليم ما منى النفس به من التسلط على مصر والشام

على ان السلطان لم ينزع الحكم من أيدي الأمراء والحكام الذين كانوا يتولون البلاد المصرية والشاميـة لئلا ينتقضوا عليه فيجرعونه الغصص قبل ان يقمع ثورتهم ويردهم الى طاعتـه . فأقر اكثرهم في ولاياتهم واقطاعاتهم بعد ان فرض عليهم جزية قليلة . فترك للمماليك في مصر بيكاتهم الاربعة والعشرين وهي الاقطاعات التي كانوا يحكمونها بأمر ملوكهم . الا انه وضع لها نظاماً مماثلا لنظام الولايات العثمانية واطلق عليها اسم سناجق . ولم يقض في وادي النيل الا على سلطة المماليك العليا . وجعل خير بك نائباً له في مصر مكافأة له على انحيازه اليه في حربه مع طومان بك .

---

(١) هو السابع والاربعون من ملوك الترك والثاني والعشرون والاخير من ملوك الجراكسة في مصر والشام

وتخلى له المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين في مصر عن الخلافة العربية(١) واقتدى به شريف مكة فبايع السلطان في السنة التالية وبذلك دانت الامة العربية لصولجانه

وعاد الغازي الى سورية مستصحباً المتوكل على الله فدخل دمشق وأقرّ الغزالي في ولايتها وألحق بها القدس وغزّة وصفد والكرك . ونصب العمال على حلب وحمص وطرابلس وغيرها من المدن الساحلية . وجاءه امراء لبنان وفي مقدمتهم الامير فخر الدين وابنه الامير قرقاس (٢) ودخل عليه ابن معن وهيبة الامارة تحفّ به والأنفة تلوح على محياه وتلا بين يديه دعاء مستطاباً استرعى نظره فسأل عنه فقيل له انه سلطان البر فقال الغازي « نعم اللقب والملقب به » ومن ذلك الحين لقب فخر الدين بسلطان البرّ وبأمير لبنان . وأقرّه الغازي على ولاية الشوف وولى الامير عساف منصور التركماني على كسروان وبلاد جبيل وترك لبقية الحكام اقطاعاتهم وفرض على بلادهم مالاً قليلاً وأوصاهم بالسعي في تعمير البلاد واجراء العدل في اهلها . أما الامراء التنوخيون أصحاب الغرب — وهو ما يلي بيروت شرقاً الى سفح لبنان وجنوباً الى الدامور — فتخلفوا عن المثول بين يدي السلطان لانهم كانوا من اعوان المماليك فانتزع الولاية من يدهم وعهد بها الى الامير جمال الدين اليمني . وسمع الناس بعدل السلطان وحلمه فتقاطروا الى لبنان من كل صوب ولا سيما من بلاد بعلبك حيث

---

(١) لما شاخت دولة بني العباس وانصرف الخلفاء الى ملاذهم وشؤونهم الخصوصية عن شؤون الدولة والامة ضعفت دولتهم وتضعضعت أمورها وطمحت ابصار الفاتحين من الدول التركية والكردية اليها واشتد تنازعهم على السلطة السياسية فيها . وأعظم هذه الدول شوكة يومئذ دولة التتر أو المغول . فاستولت على بغداد عاصمتهم وطاردتهم فارتحلوا الى مصر وليس بين ايديهم الا السلطة الدينية . فكان فيها منهم خمسة عشر خليفة آخرهم المتوكل على الله وبه انقرضت دولتهم بعد ان حكمت ٧٦٧ سنة (٧٥٠ — ١٥١٧)

(٢) يذهب بعض المؤرخين الى أن الامير قرقاس هو ابن الامير يونس بن معن وأن قرقاس هذا هو الذي مثل بين يدي السلطان سليم فولاه السلطان على بلاد الشوف . والحقيقة أن الذي مثل بين يدي السلطان ودعا له فولاه على الشوف هو فخر الدين الاول بن يونس ابن معن . وقرقاس هو ابنه وهو الذي خلفه على ولاية الشوف ومات في مغارة جزين وله ولدان فخر الدين الثاني ويونس . وهما اللذان اويا الى كسروان فحماهما المشايخ الخوازنة ثم استعادا ولايتهما على بلاد الشوف .

(٢) ١٠٤

كانوا يسامون خسفاً وظلماً (١) . وبعد ان فرغ السلطان من تدبير شؤون سورية الجنوبية سار الى حلب فنظم شؤونها وعاد الى القسطنطينية . وما لبث أن نفض عنه غبار السفر حتى طمحت نفسه الى فتوحات جديدة وصحت عزيمته على فتح جزيرة رودس واجتياح بلاد الفرس ثانية فعاجلته منيته سنة ١٥٢٠ قبل ان يدرك أمنيته

﴿ ولاية الامراء المعنيين وبني عساف وسيفا ﴾ بعد انقضاء زمن الفتح وعودة السلطان سليم الى عاصمة ملكه رجع الامراء والحكام في لبنان وسورية الى ما كانوا عليه من الانقسام وتنازع السلطة وعادت الفتن فيهما الى عهدها السابق . فساءت حالهما وقُضي على ما كان علقه الناس على العهد الجديد الذي دخلا فيه من الآمال البعيدة والاماني العلية

وأول من ذكره المؤرخون من الامراء الذين عاصروا السلطان سليم وخلفاءه الاولين الامراء بنو عساف وبنو معن وبنو سيفا . ولذلك رأينا ان نقدم اخبارهم على اخبار غيرهم من الامراء الذين تداولوا الحكم في لبنان وسورية :

كان الامير عساف منصور التركماني يصطاف في عين شقيق احدى مزارع صرود كسروان ويصرف الشتاء في عين طوره . وجماعته ينزلون الازواق (زوق مكايل وزوق مصبح وزوق الخراب) على ساحل البحر . وولايته تتناول البقعة الواقعة بين نهر الموت بقرب بيروت والنهر البارد على مدى قريب من طرابلس (٢) . فلما اقرّه السلطان سليم على ولايته اتخذ بلدة غزير قاعدة لها وابتنى له فيها داراً فخمة وبجانبها

---

(١) كان في جملة الذين لجأوا الى لبنان في ذلك العهد قوم من متاولة بعلبك. جاءوا الى كسروان واستوطنوا فاريا وحراجل وبقعاتة عشقوت . ثم تكاثر عددهم حتى ملأوا صرود كسروان ولا سيما جبة المنيطرة وتملكوها . وانتقل جماعة من المسلمين السنيين الى فتقا وساحل علما وفقيع وعرامون وجديدة غزير وفيطرون حيث يوجد الى اليوم جماعة منهم . ونزح دروز الصرود الى برمانا وبعض مزارع كسروان الجنوبية . وانتقل فريق من نصارى الجدل وطرابلس الى عرامون . ونزح غيرهم من قرية بانوح الى فتوح كسروان فاستوطن قسم منهم قرية الكفور وحل القسم الآخر في غزير ومنه الشيخ حبيش بن موسى مخايل الذي كان لذريته شأن يذكر في عهد امراء لبنان ولا سيما في عهد بني عساف وبني سيفا وبني معن

(٢) ينتسب امراء بنو عساف الى قبائل كردية أقامها سلاطين الشام في ساحل لبنان لصد غزوات الافرنج عن الديار الشامية وقد حكموا ٢٨٤ سنة (١٣٠٦ — ١٥٩٠) وخلفهم في ولاية غزير الامراء بنو سيفا الاكراد سنة ١٥٩٣ كما سيجيء

طامعاً وحماماً لا تزال آثارها باقية الى اليوم . غير انه لم يكد يستقر هناك حتى وافته منيته في السنة التالية « ١٥١٨ » وله ثلاثة بنين حسن وحسين وقيتبيه . فولى نائب السلطان في دمشق مكانه ابنه حسن فوقع تعيينه هذا من نفس حسين موقعاً حسناً . اما قيتبيه فلم يرضه ذلك لانه كان طامعاً في الولاية فاضمر لاخويه الشر وتربص لهما حتى سنحت له الفرصة فغدر بهما وحكم البلاد وسجن يوسف وسليمان ابني الشيخ حبيش انتقاماً منهما على موالاتهما لاخويه ثم نفاهما الى مصر . ولم يطل حكمه فمات سنة ١٥٢٣ وخلفه الامير منصور ابن اخيه حسن وهو أشهر بني عساف . انبسط رواق ولايته حتى امتدت الى حمص وحماة فكان ينصب العمال على المدن والاقطاعات على تمام حريته وبلغ سلطانه ولا سيما في عهد السلطان سليم الثاني حيث بلغ اوج مجده والغاية القصوى من شهرته

وخلف السلطان سليم ابنه سليمان الاول وهو حديث السن . فاستضعفه الغزالي والي دمشق وحدثته نفسه بالاستقلال بالولاية من دونه . فنشر راية العصيان عليه واستولى على قلعة الفيحاء وبعث بجيش الى بيروت فاحتلها . وحاول استمالة خير بك نائب السلطان في مصر الى غرضه فاخفق سعيه ووشى به هذا الى السلطان فانفذ اليه وزيره فرحات باشا بجيش كبير . وكان الغزالي زحف على حلب وحاصرها . فلما شعر بدنو جيش السلطان رفع الحصار عنها وتقهقر الى دمشق فتأثره الوزير وحاصره فيها وحاول العاصي ان يفرّ من وجهه فوقع في كمين نصبه له احد اعوانه وسلمه الى فرحات باشا فقتله وارسل رأسه الى مولاه في القسطنطينية

وافنى السلطان سليمان سني ملكه في الحروب والفتوحات كاسيه . فحارب النمسا والمجر وحاصر فينا مرتين وحارب الفرس واستفتح بغداد ومعظم جزر الروم وفي جملتها رودس . وعقد مع جمهورية البندقية وفرنسوا الاول ملك فرنسا حلفتين كانتا اساساً لما اقره خلفاؤه للاجانب في السلطنة العثمانية من الحقوق والامتيازات [1] ومات

---

(١) اهم ما اشتهر به السلطان سليمان الاول انه حاصر جزيرة رودس وأصحابها يومئذ فرسان القديس يوحنا الاورشليمي فسلموا له وخرجوا منها الى مالطة بعد ان ابلوا في دفاعهم عنها بمعاونة اللبنانيين الذين كانوا صحبوا الفرسان اليها واستوطنوها بلاء حسناً كان لصداه في تاريخها رنة عظيمة رددتها الاجيال التالية بمنتهى الفخر والاعجاب . ثم حارب المجر وخضد شوكتهم وحاصر فينا مرتين (١٥٢٨ ، ١٥٣١) وطال النزاع بينه وبين ملوك النمسا على سيادة بلادهم الى حين وفاته . وقد حارب الفرس وقهرهم (١٥٣٤) واستفتح بغداد . وعقد

سنة ١٥٦٦ وخلفه ابنه سليم الثاني . ويعد السلطان سليمان من أعظم سلاطين آل عثمان

واظهر ما اشتهر به عهد السلطان سليمان في الديار الشامية انه في سنة ١٥٢٨ وقعت بين بني شعيب أصحاب عرقا وبني سيفا امراء عكار [1] نفرة افضت الى اقتتالهم فاستنجد بنو سيفا على اعدائهم الامير قرقماز المعني امير الشوف [2] وانجدهم الامير منصور عساف برجاله فنكلوا ببني شعيب وعادوا الى عكار . وكان والي طرابلس يومئذ محمد آغا شعيب فساءه انتصار الامير منصور لبني سيفا على قومه وعشيرته وهم بالانتقام منه . فانفذ اليه ابن عساف الامير عبد المنعم ابن عمه والشيخين يوسف وسليمان حبيش اللذين كان استعادهما من منفاهما في مصر وأغدق عليهما نعمه وعطاياه. فقتلوا ابن شعيب شر قتلة وامن الامير العسافي غدره . على ان ذلك لم يكن كافياً لالقاء الرعب في قلوب اعوانه وحملهم على الاخلاد الى السكينة فعصاه منهم حاكما جبيل والبترون ففتك بهما وعين مكانهما حاكمين من قومه وبذلك استتم نقمته من بني شعيب واعوانهم وقضى على سطوتهم قضاء مبرماً .

مع فرنسا والبندقية الحالفتين اللتين ذكرناهما في المتن . وزادت حلفته مع فرنسا احكاماً على عهد هنري الثاني بن فرنسوا الاول وحاربت جيوشهما معاً تحت راية واحدة

(١) ينتسب آل سيفا كبني عساف الى قبائل كردية اسكنها سلاطين الشام في ساحل لبنان من صيداء الى طرابلس لترد عن البلاد غزوات الصليبيين . وكان بنو سيفا يحكمون في بدء امرهم بلاد عكار . ولما انقرضت سلالة بني عساف افضى الحكم في كسروان اليهم (١٥٩٣) . وأشهر رجال هذه الاسرة يوسف باشا سيفا وهو اول من تولى طرابلس من الباشوات

(٢) الامراء المعنيون بطن من بني ربيعة ويعرفون بالعرب الايوبية نسبة الى زعيم منهم يدعى ايوب كان فارساً مغواراً . فاخرجه سادة ربيعة حسداً من بينهم واضطروه الى الرحيل عن بلاد نجد وديار ربيعة حيثما كانوا ينزلون بعشائرهم فحل في الجزيرة الفراتية وتكاثر نسله هنالك وانتقل امير من سلالته الى جهات حلب ومات بعد ان خلف ولداً سماه معناً وهو أصل الامراء المعنيين واليه ينتسبون . ولما اجتاح الافرنج سورية الشمالية أخذ الامير معن يغزوهم بعرب الايوبية حتى عظم أمره . ثم ظفر الافرنج به فارتحل بعشائره وقومه الى سهل البقاع واتصلت شهرته بطفتكين صاحب دمشق فخلع عليه وصادقه وانزله جبل الشوف لحماية البلاد من غارات الافرنج وكان الجبل مقفراً خاليا من السكان فجاءه الامير معن (١١١٨ م) واستعمره بمساعدة آل تنوخ أمراء الغرب وعميدهم يومئذ الامير بحتر جد الامير زهر الدين فاتخذه الامير معن حليفاً له وعضداً على الافرنج فاشتركا في شن الغارة عليهم حتى احرجاهم وسدا عليهم سبل الهناء . وأرسل الامير زهر الدين الى الامير معن عمالا اقاموا له ولخاصته الابنية الحجرية فسكنوها واعتزلوا المضارب والخيام وذاع أمره في البلاد فتقاطر الناس الى جبل الشوف من كل فج وغص بالسكان وحكمه زهاء ثلاثين سنة وأقام الامير معن اولا في بعقلين ثم انتقل خلفاؤه الى دير القمر وجعلوها قاعدة لولايتهم . وخلفه ابنه الامير يونس وخلف هذا ابنه الامير فخر الدين الاول ابو الامير قرقماس المعني الذي سبقت الاشارة اليه .

وفي سنة ١٥٣٣ شبت بين اليمنية والقيسية في بلاد جبيل وجبة المنيطرة فتنة كبيرة أنجلت عن فوز الاولين وقتل في هذه الفتنة مالك بن غيث اليمني شيخ العاقوره . وكان للحزبين فيها انصار واعوان يتنازعون السلطة والنفوذ . فذعر أهلها وخرجوا منها لا يلوون على شيء ففرّ اليمنية الى دمشق يستغيثون بنائبها . وفرّ القيسية الى طرابلس . وخلت العاقورة من السكان سبع سنين الى ان استعمرها الشيخان ايوب وفضول ابنا الشماس توما العاقوري بامر نائب دمشق واعادا اهلها اليها وتوليا امرها (١) . ولجأ هاشم العجمي القيسي حاكم جبيل بفريق من جماعته القيسية الى بعلبك واصحابها اذ ذاك الامراء بنو الحرفوش فامنوه على حياته . وبعث نائب دمشق فعهد الى الامير منصور عساف بمعاقبة قاتلي مالك اليمني . فانفذ هذا عبد المنعم ابن عم هاشم العجمي واخا مالك القبض على هاشم وجماعته . وكان بنو الحرفوش ناقمين على الامير منصور يتحينون الفرص لاهلاكه والقضاء على سطوته . فعاهدهم عبد المنعم على الايقاع به ان هم قتلوا هاشما . ففتك الحرافشة بهاشم ورموا بجثته الى بئر هناك تعرف الى اليوم ببئر هاشم . اما عبد المنعم فادرك الامير منصور مأربه قبل ان ينفذه فيه . فاحبط مسعاه بان امر الشيخين الحبيشيين ففتكا به واوقعا بجماعته واراحا الامير من شره . وطاب خاطر الامير فعهد اليهما بتدبير شؤون حكومتـه وجعلهما كاخيين له مكافأة لهما على صدقهما في خدمته . على ان مكائد حساد الامير العسافي لم تكن لتقف عند هذا الحد . ففي سنة ١٥٤١ تآمر المقدم مخائيل حاكم زوق مكائيل وبنو حنش حكام فتقا على الايقاع به فاحبط مسعاهم وفتك بهم

جلس السلطان سليم الثاني على عرش بني عثمان (١٥٦٤ — ١٥٧٤) وفي

وتعاقب الامراء المعنيون من بعده على حكم بلاد الشوف وعظمت شوكتهم حتى تناولت ولايتهم جبل لبنان وما جاوره من البلاد شمالاً وجنوباً من حدود حلب الى صيداء . وكان لهم منزلة رفيعة عند سلاطين آل عثمان فيخاطبون حكامهم كما يخاطبون الوزراء ورجال الدولة العظام . وقد عظم امرهم في حروبهم مع الافرنج وولاة سورية ولبنان وهم فيما نعلم أعظم أمراء الديار الشامية في عهد بني عثمان . وانقرضت دولتهم سنة ١٦٩٧ بموت الامير احمد المعني لانه لم يرزق ذكوراً بعد ان حكمت في لبنان ٥٧٩ سنة (١١١٨ — ١٦٩٧)

(١) يعرف المنتسبون الى هذين الشيخين من اهل العاقورة ببني الهاشم نسبة الى هاشم ابن الشيخ ايوب بن الشماس توما البكر لان هاشما هذا كان أعز منزلة وأكبر شأناً من اخويه ضاهر ورعد

نفسه من سوء التأثير مما عاناه والده من الشدائد في الحروب التي خاض غمارها ما حمله على الجنوح الى السلم . ثم تاقت نفسه الى الفتح وكانت قبرص أول هدف لمطامعه فاستفتحها سنة ١٥٧٠ عنوة بعد ان هلك في سبيل الدفاع عنها ٧٠ الفاً من حماتها الابطال في جملتهم ٣٠ الف (وقيل ١٨ الفاً) لبناني . وشعر بعجزه عن قهر النمسا بمن سلم من جيشه في فتحه هذا فصالحها على شروط جاءت في مصلحته . وحالف فرنسا اسوة بابيه . وانبرى لمنازلة البنادقة فقهروه وسحقوا اسطوله بمعاونة اسطولي اسبانيا ومالطة . ثم اعاد الكرة عليهم فاجتنبوا القتال وصالحوه سنة ١٥٧٤ وتخلوا له عن قبرص . وارغم الاسبان على الجلاء عن تونس بعد ان مثّل في اهلها تمثيلا فظيعاً كان خاتمة سيئة للملكة

﴿ سطوة بني عساف ﴾ وفي عهد هذا السلطان سادت السكينة النسبية انحاء لبنان وسورية . فاراد ان يريح باله من شرّ الفتن التي كان وزراء الدولة وعمالها في هذه الديار يضرمون نارها جرّاً للمغانم لينصرف الى الحروب التي اصلاها عليه البنادقة والاسبان وغيرهم. فاوصد دونهم باب السعايات وأمنت البلاد شرّهم ردحاً من الزمن. وفي أيامه عظمت شوكة الامير منصور عساف وتوطدت أركان سيادته فتهيّبه الامراء والحكام خوفاً من بطشه واجتنب الولاة التحرش به اشفاقاً على سلطتهم من سطوته . فتوافرت في هذه الفترة لمعظم اهل البلاد السورية اسباب الراحة والهناء ولم يقع فيها مما وقع في عهد السلطان سليمان من الحوادث المشؤومة الا ما كان ينشأ عادة عن جباية الاموال كما حصل سنة ١٥٧٢ في جبة بشري حيث هجر اهل سبع قرى اوطانهم على أثر فرض الامير منصور عساف عليهم ضريبة باهظة أثقلت كواهلهم ولم يكن له بدّ منها لدفع المال المطلوب للخزينة السلطانية ولنواب السلطان

أما في عهد خلفه السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٤) فعادت الدولة العثمانية الى شر ما كانت عليه من الاضطراب. فقد جلس على العرش وريح الفتن تهب في انحاء شتى من السلطنة فاضطر ان يسالم اوربا حباً في اراحة نفسه من مشاغل الحروب وويلاتها . فهادن النمسا وابرم مع فرنسا والبندقية عهدتين اعترف لهما فيهما بحقوق جديدة في سلطنته وألحقهما بعهدة اخرى ابرمها مع انكلترا . فعد الانكشارية جنوحه هذا الى السلم ضعفاً منه فعصوه مراراً وعظمت شوكتهم واحدثوا في السلطنة كثيراً من المشاغب والفتن التي ضعضعت احوالها وافضت بالسلطان الى صرف اذهانهم الى

حرب خارجية بدأ بها شرهم عن العرش . فحارب العجم واستفتح عاصمة الشاه وظلت الحرب سجالاً بينهما الى سنة ١٥٨٥ اذ عقد الصلح في مصلحة الدولة . ثم حارب النمسا سنة ١٥٩٣ وتراوحت كفة النصر بين الجانبين الى ان خلع طاعته الفلاخ والبغدان وترنسلفانيا فغلب على امره واضاع قسماً كبيراً من ممالكه الاوربية والبلقانية (١)

ولم تكن سورية في عهد هذا السلطان باحسن حظاً من سواها . فقد تفشى فيها داء الطاعون سنة ١٥٧٩ وحلّ الضيق باهلها واشتدت وطأة الغلاء حتى بلغ ثمن اردب القمح ١٥٠ فرشاً وهو ثمن فاحش جداً اذا قسناه على حالة البلاد في ذلك العصر وازى في قيمته النسبية ما بلغه في هذه الايام من الارتفاع في الديار السورية

﴿ تعاظم نفوذ بني سيفا وتضاؤل سطوة آل عساف ﴾ وكانت ايامه شؤماً على الامير منصور عساف فتذرع نوابه في سورية بما فعله باعدائه للحط من قدره لديه . ورأى السلطان ان يجعل طرابلس ولاية ويرفع شأن حاكمها بحيث لا يكون دون الامير منزلة ومقاماً فيضعف بهذا التكافؤ نفوذه وينحط شأنه فيأمن جانبه . فولى عليها يوسف باشا سيفا التركماني واوعز اليه بلسان نوابه أن يعمل على الحط من قدر ابن عساف جهد طاقته . فاضطهد ابن سيفا اعوان الامير ولا سيما الشدياق خاطر الحصروني مقدم جبة بشري وشريكه المقدم مقلد المعروف بالحسيناتي من المقدمين العناحلة وكانا من خاصة هؤلاء الاعوان وأعظمهم شأناً في ولاية ابن عساف . ففرّ مقلد الى بلاد الشوف ومات هناك . ولجأ المقدم خاطر الى بعلبك وظل فيها الى أن اضطر سيفا باشا ازاء ما شهده من سطوة عشيرته وانصاره الى استرضائهم برده الى ولاية الجبة وجعل الشدياق باخوس بن صادر الحدشيتي شريكا له فيها (٢)

---

(١) ان المعاهدات التي ابرمها سلاطين آل عثمان مع ملوك اوربا في القرن السادس عشر كانت أساساً لما احرزته الدول الاوربية في الممالك العثمانية من السطوة والنفوذ اللذين احتفظت بهما الى ايامنا هذه . وقد أحرزت الدولة الفرنساوية منهما ما عجزت دونه غيرها بدليل ما جاء في شروط العهدة التي ابرمها السلطان مراد الثالث مع ايزابل ملكة انكلترا من انه سمح للسفن الانكليزية برفع العلم الانكليزي عند دخولها المرافىء العثمانية بعد ان كانت لا تدخلها إلا وعليها العلم الفرنساوي

(٢) ان المقدمين في لبنان بلغوا من بسطة الجاه والنفوذ ولا سيما في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ما كان يضطر الوزراء والامراء أن يحسبوا لهم حساباً كبيراً . وقد اشتهر

﴿ نكبة بني معن الاولى ﴾ ولم تطل بعد ذلك أيام الامير منصور عساف فتوفي سنة ١٥٨٠ وخلفه ابنه الامير محمد . اما يوسف باشا سيفا فلم يكد يبسم له الدهر حتى عزل عن ولاية طرابلس وعاد الى عكار . وحدث بعد ذلك أن عصابة من اللصوص سطت على خزينة السلطان في جون عكار ونهبتها . ونمي الخبر الى السلطان على وجه يوهم ان العصابة فعلت ذلك باشارة امراء الدروز وغيرهم من حكام البلاد وفي جملتهم الامير محمد عساف . فامر نوابه في مصر ودمشق وحلب بحشد جيش كبير لتأديبهم . فاجتاح جعفر باشا الطواشي بلاد عكار . وسد ابراهيم باشا والي مصر سبل النجاة على الدروز . فاشفق الامراء على سلطتهم من بطش ابراهيم باشا واستسلموا له . ولم يتخلف الا الامير قرقماس المعني فلجأ الى مغارة جزين الشهيرة ودهمه وهو فيها مرض اودى بحياته . وكان له ابنان فخر الدين ويونس . ففرّ بهما الشيخ كيوان الديراني مدبر ولاية ابيهما الى كسروان حيث آواهما الشيخ ابو صقر ابراهيم الخازن الى ان انفرجت حلقات الازمة عن بني معن فعادا الى عبيه ونزلا على خالهما الامير سيف

منهم في هذه الحقبة المقدم يعقوب بن أيوب الذي ولاه على جبة بشري الملك الظاهر برقوق فحكم ٦٢ سنة. وتعاقب اولاده واحفاده على ولايتها وهم المقدمون سيفا وقمر ومزهر وعبد المنعم الاول وعبد المنعم الثاني الذي توفي سنة ١٤٩٤ تاركا الحكم لابنه يوسف ابي المقدم الياس الذي دانت البلاد في عهده لصولجان بني عثمان (١٥١٧) وخلفه ابنه يوحنا المعروف بعبد المنعم الثالث فنازعه الولاية كمال الدين المعروف بابي عجرمه ففتك به عبد المنعم سنة ١٥٣٧ لكنه لم يستتب له الامر طويلا فانتقم منه الحمادية وبنو قمر من نصارى عين حليا وقتلوه غيلة مع اولاده وبذلك انقرضت ذرية المقدم سيفا وانتقلت الولاية الى آل قمر وسمي مقدموهم عناحله . واول من تولى منهم المقدم رزق الله ولاه على الجبة الامير منصور عساف فانصرف الى تعمير البلاد ووقعت بينه وبين اخيه عاشينا نفرة افضت به الى قتله ثم قتل رزق الله هذا بامر قاضي طرابلس سنة ١٥٧٣ فاقام الامير منصور عساف اخاه داغراً وعسافاً ابن اخيهما موسى مقدمين على الجبة . ثم قتل المقدم داغر بامر والي طرابلس وقتل المقدم عساف بامر الامير منصور وتولى البلاد أبو سلهب القريبي وأساء التصرف فعزله الامير وولى مكانه المقدمين مقلد الحسيناتي من العناحلة والشدياق يوسف أبا رعد المعروف بخاطر ابن الشدياق شاهين الحصروني بن الشدياق شاهين المشروقي الكبير الجد الاصلي لبني المشروقي الذين جاءوا من صدد الشرق الى جبة بشري في ولاية المقدمين سنة ١٤٧٠ وارتقوا الى منصب الحكم وهم خمسة فروع أصلية نشأ عنها كثير من الفروع الثانوية اتخذت اسماء مختلفة كبني الشدياق وعواد والسمعاني ومطر وفرحات وثابت ومسعد وبركات . وكان لهم شأن خطير في تاريخ لبنان . وقد تولى المقدم خاطر الى سنة ١٦١٢

الدين التنوخي (١) . ولما بلغا أشدهما استعادا ولاية الشوف وذكرا جميل الشيخ ابرهيم الخازن عليهما فجعله الامير فخر الدين مدبراً لحكومته وجعل اخاه رباحاً دهقاناً لاملاكه (١٦٠٠) وكان ذلك منشأ نجاح الخوازنة (٢)

وحكم بالاشتراك مع الشدياق باخوس الحدشيتي جد آل باخوس في كسروان ثم مع ابنه الشدياق فرج . وخلفه ابنه المقدم رعد فحكم بالاشتراك مع فرج هذا وخلف هذين المقدمين ابو عاشينا شاهوب الذي قتله الامير فخر الدين الثاني المعني مع ابيه عاشينا بعد ان ملأ البلاد فساداً وجوراً ومني بنو المشرقي على يده ويد سيفا باشا والي طرابلس بخطب جسيم ذهب باموالهم وارزاقهم واودى بحياة ثلاثة من ابناء المقدم خاطر

(١) يرتقي التنوخيون بنسبهم الى النعمان بن المنذر بن ماء السماء اللخمي ملك الحيرة . وهم ينتسبون الى تنوخ اشهر أمرائهم الذي ارتحل بهم الى الجزيرة الفراتية واطلق اسمه على السكان الذي نزلوه هناك . ثم انتقل قسم منهم الى بر حلب . قال ابن العبري في النسخة السريانية من تاريخه ما مؤداه انه لما جاء الهادي الخليفة العباسي المعروف الى حلب خفوا لاستقباله في موكب عظيم استرعى نظره وشق عليه أن يظهروا بهذا المظهر البديع وهم نصارى وعددهم يناهز خمسة آلاف فارس فاكرههم على الاسلام وأباه الليث أحد ابطالهم فقتله . وحدث بعد ذلك ان جابي اموال حلب انتهك عرضهم ففتك به تبا أحد امرائهم وارتحل بقبيلته الى لبنان حيث اختار لاقامته مكاناً يعرف الى اليوم ببرج تبا . وخاف الذين تخلفوا عنه انتقام والي حلب وكانوا عشر قبائل فلحقوا به الى لبنان وتفرقوا بين سواحل بيروت وبلاد الغرب والمتن وكانت مقفرة فاستعمروها . وأشهر بني تنوخ علي باشا التنوخي الذي كان آغا الانكشارية في الاستانة وقد نبغ منهم الامير بحتر الذي حالف الامير معن وساعده على استعمار الشوف . وهو أبو الامير زهير التنوخي الذي عاصر الملك نور الدين زنكي صاحب دمشق وحالفه وحارب الافرنج ففتكوا بابنائه الثلاثة في حصن سرحمول . ومنهم الامير جحى الملقب بجمال الدين وقد افنى سني حكمه في محاربة هؤلاء الافرنج ومات سنة ١٢٠٤ . وتعاقب آل تنوخ على حكم بلاد الغرب وفي جملتها بيروت الى سنة ١٣٠٩ حيث فتك صهرهم الامير علي حفيد الامير علم الدين معن الرصطوني باولادهم في صبيه على اثر انحيازه الى حزب اليمنية وكان ذلك آخر عهدهم بحكم الغرب . وينتسب الى التنوخيين الامراء الارسلانيون من أصحاب الشوف وبنوا فوارس وهم الامراء اللمعيون اصحاب المتن وسيأتي ذكرهم

(٢) ان الشيخين ابا صقر ابراهيم وابا صافي رباحا هما ابنا الشدياق سركيس الخازن الذي انتقل سنة ١٥٤٥ من قرية جاج في بلاد جبيل الى البوار في الفتوح على عهد الامير منصور عساف . ثم انتقل الى بلونه ومات سنة ١٥٧٠ . وقد نبغ من سلالة ابراهيم ابنه خازن المعروف بابي نادر ولاه الامير فخر الدين على كسروان وجبيل وجعلهما ارثاً لذريته من بعده وخلفه ابنه نادر المعروف بابي نوفل فاشتهر بالحكمة والوقار وتوقد الذهن والغيرة وعاصر الامير ملحم المعني ابن أخي فخر الدين وابنيه أحمد وقرقماس وكان له عندهم منزلة سامية . وهو الذي

اما ابراهيم باشا والي حلب فسار الى عين صوفر وقتل من عقال الدروز ومشائخهم خمسمائة نفس . ثم واصل السير الى حلب مستصحباً الامراء الذين استسلموا له وفي جملتهم الامير محمد عساف ومضى بهم الى الاستانة فاكرمهم السلطان مراد واقرّهم على ولاياتهم

﴿ انقراض بني عساف وانتقال ولاية كسروان الى بني سيفا ﴾ وسنحت للامير محمد عساف فرصة للثأر لابيه من يوسف باشا سيفا فسار لقتاله سنة ١٥٩٠ . وكان ابن سيفا يرقب حركاته لئلا يأخذه على غرّة فاوقعه في كمين نصبه له بين البترون وعقبة المسيلحة وفتك به وبدد رجاله . وبموت هذا الامير انقرضت سلالة بني عساف وانقضت ولايتهم بعد ان حكموا ٢٨٤ سنة . وضبط يوسف باشا املاكهم وتزوج « أو الامير محمد سيفا » ارملة القتيل وفتك باعوانهم وفي مقدمتهم سليمان ومنصور حبيش فلجأ ابناهما يونس وحبيش الى الامير محمد بن جمال الدين اليمني في الشويفات وولي ابن سيفا مكانهما على غزير المشايخ الحمادية واستصحبهم الى طرابلس لبعض الشؤون وهناك أوجس شراً منهم فرأى ان يشغلهم عنه والقى بينهم وبين انسبائهم بني المستراح في جبة المنيطرة فتنة كبيرة أفضت الى قتل الشيخ قانصوه حماده وتبدد رجاله وبذلك تمّ لابن سيفا ما اراده من كسر شوكة الحمادية والتخلص من شرهم الى حين

وفي سنة ١٥٩٤ مات السلطان مراد الثالث وخلفه ابنه السلطان محمد الثالث (١٥٩٤ — ١٦٠٣) والسلطنة في اضطراب عظيم تحدق بها المخاطر من كل جانب والامر فيها للانكشارية وأعوانهم . فرأى ان خير ما يصنعه لدرء الخطر عن تاجه ان

وهب اليسوعيين في عين طوره ارضاً أقاموا عليها ديرهم الشهير الذي افضى فيما بعد الى الرهبان الفازاريين وبلغ من النفوذ وبسطة الجاه ما لم يبلغه سواه من الحكام الذين عاصروه . وقد انعم عليه البابا اسكندر السابع بلقب كافليير وجعله لويس الرابع عشر قنصلا لدولته في بيروت « ١٦٥٩ » وتوارث ابناؤه هذه القنصلية من أبي قانصوه فياض الى ابنه حصن الذي لقبه هذا الملك في البراءة التي اصدرها له بامير الموارنة الى ابنه الشيخ نوفل وهو آخر من تولى هذه القنصلية من بني الخازن . وقسم ولاية كسروان بين ابنائه الثمانية فتولوها من بعده وتركوها ارثاً لاعقابهم واخص ما امتاز به المشايخ الخوازنة حسن دفاعهم عن طائفتهم وشدة غيرتهم على مصلحتها وفي قيام حارسين منهم شاهري السيوف على باب الكنيسة عند انتخاب بطريرك الموارنة اشارة صريحة الى هذه الغيرة التي لاجلها لقبهم احبار رومية بحماة النصرانية في الديار الشرقية

يقتدي بابيه فيشغلهم بالحرب . فحارب النمسا والفلاخ وجرت له معهما معارك هائلة لكنها لم تكن فاصلة . وانتقض عليه الجيش فردّه الى طاعته . واضطرمت نار الفتن في انحاء شتى من المملكة فعانى الشدائد في قمعها ومات وهي على هذه الحال من الفوضى والاضطراب (١)

﴿ الامير فخر الدين المعني الثاني ﴾ أما في سورية فظلت الفتن في عهد هذا السلطان على سابق عهدها من الشدة . وأشهر ما وقع فيها من الحوادث ان الامير فخر الدين المعني أوجس شراً من انتشار نفوذ بن سيفا واستفحال أمره وأشفق ان يناله من غدره وطغيانه ما نال الاميرين منصور ومحمد عساف . فنازعه ولاية كسروان وكسره سنة ١٥٩٨ عند نهر الكلب وانتزعها من يده ثم استرضاه ابن سيفا فردها اليه في السنة التالية وعاد الى الشوف . ثم عاد يوسف باشا سيفا الى التحرش بفخر الدين فقاتله ابن معن سنة ١٦٠٥ في جونيه وكسره شرّ كسرة وطرده من غزير وعهد بولاية كسروان الى الشيخ يوسف الاسلامي

﴿ نكبة الحرافشة ﴾ وفي سنة ١٦٠٣ اجتاح الامير موسى الحرفوش صاحب بعلبك جبة بشري ونهبها وهي يومئذ في عهدة يوسف باشا سيفا والي طرابلس فسار هذا الى بعلبك بخمسة آلاف مقاتل من رجاله ورجال الجبة ففر فريق من اهلها وتحصن الحرافشة في القلعة مع جماعة من أعوانهم ففتك ابن سيفا بمن بقي من السكان وأضرم النار في قرية الحدث وحاصر القلعة خمسين يوماً الى ان فتحها عنوة

سورية في القرن السابع عشر

انقضى القرن السادس عشر وتلاه القرن السابع عشر وعواصف الفتن والحروب تهبّ على عرش محمد الثالث من كل جانب . فكان عهده خاتمة سيئة للقرن الاول . وفاتحة مشؤومة للقرن الثاني . وخلفه ابنه السلطان احمد الاول (١٦٠٣—١٦١٧) وله من العمر خمس عشرة سنة والسلطنة في هذه الحال من الفوضى والاضطراب وشاه العجم يتهددها من الشرق وملك النمسا من الغرب . فانصرف أولاً الى قمع الفتن

(١) مما زاد موقف هذا السلطان تحرجاً وحال دون ظفره باعدائه طغيان الانكشارية واستبدادهم بالسلطة وشبوب نار الفتن في انحاء السلطنة ولا سيما في ولايتي قرمان والقرم وفي عاصمة السلطنة نفسها حيث استعان بالانكشارية انفسهم على رد العصاة الى طاعته . فكان عهده حافلا بالفتن والحروب التي لم تخمد جذوتها حتى النفس الاخير من حياته.

التي كانت ناشبة في أنحاء شتى من المملكة وظفر ببغيته . ثم حارب النمسا وقهرها ولكنه غلب على أمره في حرب الفرس فاضطر أن يصالحهم على شروط مجحفة بحقوقه . واجتمعت اسبانيا وأمارات ايطاليا ومالطة على محاربته فحطمت أسطوله . وجدّد حلفة الدولة مع فرنسا وبولونيا وابرم حلفة مع دولة الفلمنك فصان بهذه الحلفات ملكه وعزز دولته ولهذا كان اسعد حظاً من أبيه وجده (١)

أما في سورية فقد جرت الحوادث في عهد هذا السلطان وسلفه على وتيرة واحدة . فجاءت فاتحة القرن الثاني لحكم بني عثمان فيها أشد خطراً وأوخم عاقبة من خاتمة القرن الاول حيث بدا للناظر في مفتتح هذا الفصل من المأساة التاريخية المفجعة التي لم يُرخ الستار عليها الى الآن أفظع مشهد دموي مثل على مرسح الشرق في تلك الحقبة من الدهر

واول ما يسترعي الانظار من الحوادث التي جرت في عهد السلطان احمد الاول انه في سنة ١٦٠٦ غزا نائب دمشق بلاد بعلبك وصاحبها يومئذ الامير يونس الحرفوش . فانجده الامير فخر الدين المعنيّ برجاله وانقذه من شر الوزير وجنده . على أن الدرس الذي تلقاه نائب السلطان من ابن معن لم يكن كافياً فيما يظهر لارعوائه عن غيه فدهم الامير احمد الشهابي صديق المعنيين في وادي التيم فقاتله فخر الدين وهزمه الى دمشق

﴿ نكبة بني جنبلاط ﴾ وفي خلال ذلك كان علي باشا جنبلاط الكردي صاحب حلب (٢) بلغ من سعة النفوذ وبسطة الجاه ما جعل سلطته في شمالي سورية فوق كل سلطة . وقد عصا السلطان واستأسر بالحكم المطلق من دونه . فعهد السلطان الى يوسف باشا سيفا والي طرابلس برده الى طاعته . وكان الامير فخر الدين المعني صديقاً حميماً لابن جنبلاط فهبّ لنجدته وكسرا عساكر ابن سيفا في جوار حماه شرّ

---

(١) ان السلطان احمد الاول تخلى للفرس في الحرب التي شهروها عليه عن جميع الاصقاع التي افتتحها السلطان سليم الاول وخلفاؤه (١٦١٢) وهذا ماجرأ النمسا على محاربته وكان كسره لها سبباً في اجتماع اسبانيا ومالطة وامارات ايطاليا على تحطيم اسطوله وقهره . ولولا المعاهدات التي ابرمها مع الدول الاخرى (١٦٠٤و١٦٠٩و١٦١٢) لما استطاع وقاية عرشه من السقوط . ولترك العرش لخلفه مزعزع الاركان متداعي البنيان

(٢) يعرف علي باشا جنبلاط الكردي بجان بولاد . وهو ينتسب الى قبيلة كردية تلقب بقبيلة التفكجية . وهو جد آل جنبلاط في لبنان واليه ينتسبون . فان احد ابنائه فرّ على اثر تلك



الامير فخر الدين

المعني الثاني

كسره . وعظم شأن الصديقين في الديار السورية حتى غلاّ أيدي الامراء ووزراء الدولة فيها والقيا الرعب في قلوبهم . فاشفق السلطان ان يقضي نفوذهما واتفاقهما هذا على البقية الباقية من سيادته في البلاد فوطن النفس على محاربتهما لخضد شوكتهما واسترجاع السلطة منهما . غير ان الفتن التي عصفت ريحها في القسم الشرقي من السلطنة صرفت هم السلطان عن حوادث سورية الى حين . فعمد الى قمعها وعهـد بهذه المهمة الى وزيره مراد باشا المعروف بقبوجي باشا . فزحف بجيش كثيف الى آسيا وكبح جماح العصاة ثم عاد سنة ١٦٠٧ الى سورية لاخضاع علي باشا جنبلاط فحاصر الشهباء وفتحها خدعة وأعمل السيف فيمن لم يستطع الفرار من أعوان العاصي وقهر جيشه وبدده ايدي سبا وعدده يناهز ٨٠ الفاً . وأمر الوزير بآل جنبلاط وفي جملتهم والدته وجواريه فبيعوا بيع السلع ثم لجأ هو الى الاستانة طائعاً فعفا السلطان عنه وولاه على احدى مقاطعات المغرب . وبعد ان أتم مراد باشا مهمته في حلب وأمن على سلطة الدولة في هاتيك الربوع من سطوة ابن جنبلاط عمد الى خضد شوكة صديقه الامير فخر الدين . واضطرته الفتنة الناشبة في الاناضول الى التعجيل في قمعها خوفاً من ان يندلع لسانها الى البـلاد المجاورة فزحف بجيشه اليها سنة ١٦٠٨ . وانتهز ابن معن هذه الفرصة فنفحه بهدية مالية عظيمة القدر حملها اليه ابنه الامير علي فطاب الوزير نفساً وخلع على الامير الشاب وأنعم عليه بولاية صيداء بعد ان ألحق بها ولايتي بيروت وغزير وهما ولايتا الغرب وكسروان

﴿ سفر الامير فخر الدين الى اوربا ﴾ على ان الايام لم تصفُ طويلاً لابن معن . ففي سنة ١٦١١ توفي مراد باشا وخلفه في الصدارة نصوحي باشا . فبعث اليه الامير بهدية مالية أردفها بهديتين من الصابون والانسجة اللبنانية الفاخرة . فاستقلّ الوزير ذلك بازاء هديته الى سلفه وأضمر له الشر

وكان ابن معن نصر الامير يونس الحرفوش والامير احمد شهاب على احمد باشا والي دمشق لدن اجتياحه بلاد بعلبك ووادي التيم ومحاولته رفع ولايتهما عنهما . وكان هـذا الوالي من جهة أخرى عزل عمال عجلون ونابلس وحوران فثـاروا

النكبة الى لبنان حيث لجأ الى صديق أبيه الامير فخر الدين المعني وصرف بقية حياته في الجبل وأقامت ذريته فيه الى اليوم وتولت الزعامة في احد حزبي الدروز الكبيرين (الجنبلاطية واليزبكية) اللذين تنازعا السيادة والنفوذ حقبة طويلة من الدهر

113

ومدهم فخر الدين بثلاثة آلاف مقاتل أوقعوا بعساكر احمد باشا وأعادوا الى هؤلاء العمال اقطاعاتهم هذه . فنقم الوالي على الامير وأوغر صدر نصوحي باشا عليه وكان الوزير يتحين الفرص لصب جام نقمته على ابن معن . فصادفت وشاية الوالي هوى من فؤاده وزحف على سورية بجيش عظيم . وانضوى تحت لوائه ولاة الاناضول وحلب وطرابلس بعساكرهم واعوانهم . واذ بلغ الى دمشق استسلم له الامير يونس الحرفوش والامير احمد شهاب وابنه حاكم وادي التيم . أما الامير فخر الدين فلم يركن الى الوزير وآنس من نفسه عجزاً عن مقاومة جيش السلطان . فالتمس العزلة في البرية . فاعترضه الامير احمد شهاب متناسياً فضله عليه وقطع الطريق على ابنه الامير علي وبدد رجاله . فجمع الامير فخر الدين أعوانه في الدامور واستفزهم للقتال فلم يفلح . واذ سدت في وجهه أبواب الظفر أتى بعياله الى قلعة نيحا « شقيف تيرون » وحشد رجاله وأنصاره في قلعتي بانياس وشقيف ارنون بعد ان حصنهما أعظم تحصين . وعهد بحماية ابنه الى الشيخ عمر حاكم حوران وهو أحد العمال الذين استنصروه على والي دمشق يوم طردهم هذا الوالي من اقطاعاتهم على نحو ما قدمنا . ثم جمع مشائخ الشوف والمشائخ الخوازنة وغيرهم من أعوانه وفي جملتهم شقيقه الامير يونس وكاشفهم بعزمه على الرحيل الى اوربا ونصح لهم بالا يركنوا الى وزير السلطان ولا يغتروا بمواعيده وحثهم على الاتحاد والتآزر ليقووا على دفع الملمات عن بلادهم . ثم أبحر الى ايطاليا وبرفقته احدى زوجاته ومدبره الشيخ كيوان الديراني والشيخ ابو صقر الخازن (١) وانتقل الامير يونس بجماعته المعنيين من بعقلين الى دير القمر

﴿ نكبة بني معن الثانية ﴾ على ان ارتحال ابن معن عن لبنان لم يثن احمد باشا والي دمشق عن عزمه بل زاده قحة وجرأة على الاسترسال في غيه وتنفيذ غرضه

---

(١) قصد الامير فخر الدين الى توسكانا وكانت في ذلك العهد تحت ولاية ملوك فرنسا وبينه وبين دوقها مودة يرجع عهدها الى الوقت الذي كان تجار هذه الدوقية يرتادون فيه الديار السورية للاتجار فيلقون من حفاوة الامير بهم وترويجه لمتاجرهم ما احكم صلات المودة بينه وبين اميرهم . فبالغ لذلك دوق توسكانا ورجال دولته في اكرام امير لبنان وعين له مرتباً وانزله في اجل قصور ليفورنو ووقف على خدمته حاشية كبيرة . ثم ام مقاطعة مسينا فاسبانيا فرحب به سلطانها واقام سنة في ضيافته ثم عاد الى توسكانا وسنحت له فرصة فركب البحر الى سورية لمشاهدة اهله ثم رجع الى توسكانا وبعد مدة عاد الى لبنان بعد ان اقام في بلاد الافرنج خمس سنين

في آله وأعوانه بمبادرتهم بضربة لاتقوم لهم بعدها قائمة . فولى حسين باشا سيفا على بيروت وشيخ مظفر عميد اليمنية على بلاد الشوف وابن البستنجي على صيداء — وهم ألد أعداء المعنيين . ثم زحف بمئة الف مقاتل على بلاد الشوف ليستتم نقمته منهم . وحصر قلعتي شقيف ارنون وبانياس مدة خمسين يوماً . فاستقتل حماتهما في الدفاع وأرغموه على رفع الحصار عنهما من غير ان يظفر منهما بطائل . فاذكى فشله هذا نار الغضب في صدره وأباح لعساكره اجتياح الشوف والتنكيل بسكانها . فهال ذلك الامير يونس المعني واسترضى الوزير بالمال فجلا بعساكره عن البلاد بعد ان ارتهن والدته ونفراً من خاصته ضماناً للمال الذي تعهد له به . غير انه لم يكد يهدأ روع الامير حتى اجتاح هذا الطاغية بلاد الشوف ثانية وأحرق دور المعنيين في دير القمر وفتك بمن كان هناك من اعوان ابن معن . فاعتصم الامير يونس بقلعة بانياس مع اربعمئة من وجهاء الشوف . وغزا الوزير وادي بسرة بقسم من جيشه فظفر الشوفيون به . ثم اعاد الكرة عليهم بجيش كبير فكالوا له ضربة اشد من الاولى فاشتد حنقه على بني معن وانصارهم وأطلق ايدي عساكره الى النهب والسلب واباح لهم اموال العباد وارزاقهم ودماءهم . فكانت مجزرة مريعة هائلة استمرت اربعة ايام متتابعة . ولولا مفاجئة هذا الطاغية نبأ اغتيال نصوحي باشا الصدر الاعظم وخوفه شر العاقبة لما رجع عن بلاد الشوف وفيها نسمة حية . وقد كان ما قدّره لنفسه من العقاب فعزل وجوزي على ما جنت يداه الاثيمتان

﴿ رجوع فخر الدين واسترجاع المعنيين لسيادتهم ﴾ خلف احمد باشا على ولاية دمشق جركس احمد باشا (١٦١٣) فأمّن أهل الشوف على أرواحهم وأرزاقهم وولى عليهم الشيخ يوسف المسلماني من أعوان المعنيين . وطيب خاطر الامير يونس واطلق سبيل والدته ومن كان اعتقلهم سلفه من خاصته . وعهد الى الشيخين أبي نادر الخازن أوفى أصدقاء آل معن وضاهر حبيش بجباية مال الاشجار . واستدعى الامير فخر الدين من منفاه فعاد سنة ١٦١٧ الى لبنان بعد ان تغيب عنه خمس سنين . وذكر الامير يونس ما للمال من الشأن العظيم عند رجال الدولة فنفح الوزير بهدية مالية عظيمة القدر وعاهده على مثلها مسانهة . ودكّ قلعتي الشقيف وأرنون الحصينتين الى الحضيض حملاً له على الركون اليه والوثوق بصدق ولائه . فانعم عليه الوزير بولايتي صيداء وبيروت وعلى الامير علي ابن أخيه بولاية صفد . وقد حافظ جركس باشا على

العهد الذي قطعه مع آل معن فامر حسين باشا سيفا بالتخلي للامير يونس عن ولايتي بيروت وكسروان فأبى واتفق مع الامير شلهوب الحرفوش وأمراء رأس نحاش على المقاومة . فقاتلهم المعنيون على عين الناعمة وهزموهم وهبّ اليمنية في أعبيه وأغميد وعين دارا لمقاومة القيسية أعوان آل معن . فقاتلهم هؤلاء وظفروا بهم ودخل الامير يونس بيروت فعاهده أعيانها على الولاء . ثم أنفذ رجاله الى بلاد الغرب والجرد والمتن فنهبوا القرى وحرقوها انتقاماً من أهلها لما اقترفوه من الموبقات في بلاد الشوف لدن اجتياح احمد باشا لها على نحو ما تقدم . ورأى الشيخ مظفر والي الشوف وابن سيفا أن لا قبل لهما بمناصبة المعنيين فانهزما باهلهما الى بلاد عكار ولم تطل أيام ابن سيفا بعد هذه النكبة فاغتاله قراقوش والي حلب سنة ١٦١٦ . وبذلك دانت البلاد لسلطة الامير يونس فولى على كسروان الشيخ أبا نادر الخازن ومملوكه ذا الفقار فاقاما في غزير ونصب العمال على بقية الاعمال

اما جركس باشا فعزل بعد تلك الحوادث المشؤومة بوقت قصير وتولى دمشق مكانه احمد باشا الجوخدار . فانتزع ولاية صفد من الامير علي المعني لتقصيره في نفحه بالهدية المالية التي يتقضاها الولاة عادة لدى قدومهم الى سورية . وولى عليها حسين اليازجي (١٦١٧) فعظم الامر على ابن معن — وكان أبوه الامير فخر الدين عاد من توسكانا واسترجع ولاية الشوف وعزز مركز نجله . فحشد الامير الشاب رجاله وسار الى صفد فدخلها عنوة واسترجعها من اليازجي بعد ان فتك به وأعمل السيف في رقاب رجاله واسترضى وزير الشام بالمال فاستصدر هذا له أمراً من الاستانة بتوليته على صفد وصيداء وبيروت

هذا في الجنوب أما في الشمال فخلف المقدم خاطر الحصروني على ولاية جبة بشري ابنه المقدم رعد (١٦١٢) فحكم بالاشتراك مع المقدم فرج بن باخوس الحدشيتي . وخلفهما أبو عاشينا شلهوب من أنسباء العناحلة الذين كانت انقرضت سلالتهم بموت جمال الدين بن المقدم مقلد . فجار وبغى ونازعه الولاية نعمة وداود وجرجس اخوة المقدم رعد فتغلب عليهم بمعونة يوسف باشا سيفا وفتك بهم ونزح ذووهم الى جبة المنيطرة وخلا له الجو فحكم تسع سنوات

وفي اثناء ذلك شعر السلطان احمد الاول بدنو اجله وابنه عثمان حديث السن . فخالف العادة المرعية في وراثة العرش واوصى بالخلافة الى اخيه مصطفى . على ان

هذا السلطان لم يملك الا ثلاثة اشهر فتآمر عليه الانكشارية وخلعوه (١٦١٨) ونادوا بعثمان سلطاناً وسمي عثمان الثاني . وكان عمه أوغر صدر ملك فرنسا عليه لسوء تصرفه مع سفيره فاسترضاه وصادقه . وطمحت نفسه الى الفتح وكانت بولونيا نازعته سياده البغدان فحاربها وعجز عن خضد شوكتها فارغمه الانكشارية على مصالحتها سنة ١٦٢٠ . وحاول انتزاع السلطة منهم فاحبطوا مسعاه وخلعوه في السنة التالية واغتالوه واعادوا عمه السلطان مصطفى الى العرش فالقى مقاليد الامر اليهم مكرهاً فجاروا وبغوا واضطربت احوال السلطنة واستبد الولاة بالحكم فساءت حال الرعية وتولاها الجزع والقنوط فخاف اقطاب الدولة سوء المصير وخلعوا السلطان في السنة التالية لجلوسه على العرش ونودي بالسلطان مراد الرابع

﴿ نكبة آل سيفا الاولى ﴾ أما سورية في عهد هذين السلطانين فلم تكن اسعد حظاً من غيرها . ففي سنة ١٦١٨ تولى طرابلس عمر باشا الكتبجي وحاكمها يومئذ يوسف باشا سيفا فتخلى له عنها مرغماً واستبقى لنفسه ملحقاتها وقلب له ظهر المجن . فاستجار الوزير بالامير فخر الدين المعني . فزحف الامير برجاله الى اميون ومعه الشيخ ابو نادر الخازن حاكم كسروان . وفر ابن سيفا الى عكار فجدّ فخر الدين في اثره حتى ادركه وحصره في حصنها . غيران شفاعة وزيري حلب ودمشق به واشفاق ابن معن أن تؤدي مقاومته لجيشهما الذي كان مرابطاً في حمص الى ما لا تحمد عقباه حملاه على رفع الحصار عنه بعد ان فرض عليه الجزية وتركه وشأنه . غير انه عاد بجيشه الى جبيل وكانت في عهدة ابن سيفا هذا فدك قلعتها الى الحضيض على عظم منعتها والحقها بولاية كسروان. ثم فتح قلعة اسمرجبيل وولى على بلاد البترون المقدم يوسف الشاعر . أما يوسف باشا سيفا فتمكن بالمال من استرجاع ولاية طرابلس . لكنه اضطر بعد حين الى التخلي عنها بامر وزير دمشق الى حسين باشا الجلالي . وعُهد الى كتخداه مصطفى أغا بحكم ملحقاتها وفي جملتها جبلة واللاذقية وبدك حصونها وقلاعها وضبط املاك ابن سيفا وارزاقه . فضاقت الحيل بهذا الطاغية ورأى أن لا مناص له من استرضاء ابن معن وخطب مودته فبعث اليه بابنه الامير حسن وكان الامير السيفي حسن الطلعة ذكي الفؤاد فانعطف فخر الدين اليه وازوج ابنه الامير علي المعني بنته — وقيل بشقيقته . وكان هذا الزواج سبباً في عقد الصلح بين ابن معن وابن سيفا وامن هذا

١١٦

بطش فخر الدين فاطمأن باله وتفرغ لاصلاح شأنه مع الدولة فظفر ببغيته واسترجع ولاية طرابلس

غير ان حرص الدولة على قاعدة التفريق التي جرت عليها في سيادة ممالكها واستعباد رعاياها حال دون اتفاق الاميرين الى امد بعيد . ذلك ان الصدر الاعظم بعث سنة ١٦٢٠ يسأل الامير فخر الدين تحصيل المال السلطاني من يوسف باشا سيفا فسار ابن معن برجاله الى برج البحصاص لمطالبة ابن سيفا بالمال فولى مدبراً الى جبلة وحاول ارضاءه على يد ابنه حسن باملاك بني عساف في بيروت وانطلياس وغزير فلم يفلح . وشدد الامير في طلب المال منه فابى واستغاث بسليمان باشا والي دمشق وعرب حمص والبقيعة وتركمانها فشدوا ازره وقاتلوا ابن معن على النهر البارد فدحرهم وحاصر قلعة طرابلس فعجز دونها . وفي اثناء ذلك ارسل اليه الباب العالي خلعة وسأله الكف عن مطاردة ابن سيفا فرفع الحصار عن طرابلس وقفل راجعاً الى قاعدة ولايته

وكأن ما مرّ بابن سيفا من عبر الدهر وعظاته لم يكن كافياً لاثابته الى رشده . فعاد الى اسوأ مما كان عليه من مشاكسة ولاة البلاد وحكامها وانزال البلايا السود بسكانها . على ان الايام لم تصف له طويلا بعد تلك الضربة التي كالها له ابن معن . ذلك انه في سنة ١٦٢١ تولى طرابلس عمر باشا الكتنجي واشفق على سلطته من سطوة يوسف باشا سيفا فاستنجد عليه الامير فخر الدين . ولم يكن الامير الكردي نسي ما ناله من الذل على يد ابن معن فاعتزل الولاية مكرهاً ومضى باهله الى عكار . وبعث الامير المعني فطرد اعوانه من جبة بشري وولى عليها الشيخ أبا صافي الخازن وعلى عجلون ابنه الامير حسين وعلى حمص عمر بك سيفا . ولم يخلد ابن سيفا الى السكون فاوعز محمد باشا الكرجي الصدر الاعظم الى والي دمشق والامير المعني أن يقضيا على سطوته ويضبطا املاكه تسديداً لما كان مطلوباً منه للخزينة من الاموال الاميرية . واراد والي طرابلس أن يستوثق من ولاء ابن معن فتخلى له عن بلاد جبيل والبترون وجبة بشري والضنية وعكار . فزحف فخر الدين بجيشه الى طرابلس وبرفقته الامير محمد شهاب فرحب به عمر باشا اعظم ترحيب . واراد ان يستأنف السير الى عكار لمعاقبة ابن سيفا . ففوجئ بنبأ تولي قراحسين باشا الصدارة واسناده ولاية طرابلس الى عهدة عدوه هذا . فاضطر أن يعود من حيث اتى . وقد استعاد يوسف باشا سيفا ولايته وجدّ في جباية الضرائب تسديداً للاموال المطلوبة منه للخزينة واتى من ضروب الجور

والاعتساف ما حمل جماعات كثيرة من اهل جبة بشري على التماس النجاة في المهاجرة الى دمشق وحلب وغيرها . وكان عاشينا بن شاهوب مقدم هذه المقاطعة قد أمعن في البغي والتحكم في الرقاب وبلغت به الفحة الى نهب دير القديس توما في حصرون وقتل راهب من رهبانه . وكان الشيخ ابو صافي صاحب الكلمة النافذة فيها فقبض عليه وساقه الى فخر الدين فقتله ثم ألحق به والده (١٦٢١)

﴿ قهر فخر الدين لبني الحرفوش وطربيه وافنائه جيش دمشق ﴾ غير ان الامير فخر الدين لم يأمن على سمو منزلته وعظم شأنه وسلطانه دسائس حساده ومزاحميه من أمراء البلاد وحكامها . ذلك ان الامير يونس الحرفوش صاحب بعلبك وشي سنة ١٦٢٢ بعمال نابلس وعجلون الى والي دمشق فعزلهم — وكانوا يحكمون البلاد باسم فخر الدين . فنقم الامير المعني على ابن الحرفوش ونهب مزارعه في البقاع . فاستغاث هذا بوالي دمشق وعرض عليه ضعف المال المرتب على اقطاعي صفد وعجلون . فولاه على أولهما وولى صديقه الامير بشير قانصوه عميد بني طربيه على عجلون . ووالاهم الامير احمد طربيه والشيخ احمد الكناني من حكام تلك البلاد فاشتد ساعدهما . وأوجس فخر الدين شراً من هذه العصابة فاوعز الى أعوانه بإضرام النار في قرى عجلون والكرمل وزحف برجاله لمعاقبة آل طربيه. فانبرى له العرب عند نهر العوجاء وانتزعوا منه ما كان غنمه من اسلاب أعدائه فتقهقر الى خان جلجولية بعد ان مني بخسارة جسيمة . غير انه لم يطل به الامر حتى استصدر أمراً من الاستانة بتولية ابنه الامير علي على صفد . وحاول الامير يونس الحرفوش الوقوف في سبيله فهزمه ابن معن وأضرم النار في قراه وفي جملتها الكرك وسرعين وقتك بجماعة من أعوانه . فشق الامر على وزير دمشق وزحف في السنة التالية بعشرة آلاف مقاتل للانتقام من المعنيين . وانضوى تحت رايته الامراء الحرافشة وبنو سيفا . فالتقاهم فخر الدين وحليفاه الاميران علي واحمد الشهابيان صاحبي وادي التيم [1] برجالهم وأعوانهم عند

(١) الامراء الشهابيون بطن من بني قريش . وهم ينتسبون الى مالك الملقب بشهاب من بني مرة بن كعب . وقد تولى مالك هذا امارة حوران في خلافة عمر بن الخطاب . وتعاقب ابناؤه عليها الى اواخر القرن الثاني عشر حيث ارتحل بهم عميدهم الامير منقذ صديق السلطان صلاح الدين الايوبي الى وادي التيم (١١٧٢ — ١١٧٣) . وكان الافرنج انتزعوها من يد الامير زهير الدين التنوخي فاجلوهم عنها بعد معارك شديدة أسفرت عن اندحار الافرنج واعتصامهم بالجبال العالية . فعظم بذلك شأن الشهابيين لدى الملوك والامراء ولا سيا لدى نور

نبع غنجر في لبنان الشرقي . ودارت رحى الحرب . فاحرز بن معن فوزاً مبيناً وأفنى جيش دمشق عن بكرة أبيه واستأسر الوزير وعامله معاملة حسنة تليق بكرامة الامراء وقعت من نفسه أحسن موقع . فخلع الوزير عليه واقره على سناجق عجلون وصفد ونابلس والبقاع العزيز . وزحفا معاً على بعلبك لمعاقبة الامير يونس الحرفوش . ففرّ هذا الى معرّة النعمان حيث قبض عليه مراد باشا وزير حلب واعتقله في قلعة سلمية . وعاد الامير فخر الدين الى بلاده بعد ان فتح قلعة بعلبك الشهيرة ودمر قسماً منها . ثم غزا ابن معن وحليفاه المتقدمان بلاد عجلون ونابلس . فانبرى لهم عرب بني طربيه وحاربوهم وردوهم عنها الى صيداء وامعنوا في بلاد ابن معن قتلاً وسلباً وبلغوا في غزوتهم هذه الى ساحل عكاء . فحشد الامير المعني جيشه لرد الغزاة وارغم الامير بشير قانصوه وامراء العرب الموالين له على الدخول في طاعته

* * *

تبوأ السلطان مراد الرابع عرش بني عثمان سنة ١٦٢٣ وهو شاب ضعيف الارادة فاستأسر الانكشارية بالسلطة من دونه عشر سنوات متتابعة الى ان أتيح له ان يستردها منهم ويكبح جماحهم . وقد حارب العجم واستفتح بغداد ثم انتزعها منه الشاه عباس بخيانة بكير أغا رئيس شرطتها . فلم يطق صبراً على خروجها من يده وحاول استرجاعها فاخفق لخروج الانكشارية عليه وانصراف قسم من جيشه الى قمع ثورة اباظه باشا والي ارضروم (١٦٣٨) . على انه ظل يمني النفس بادماجها في سلطنته الى ان مات الشاه وخلفه ابنه مرزا خان وهو حديث السن . فاستضعفه السلطان واستولى

الدين ملك دمشق وبني معن امراء الشوف . فحالفوهم وشاطروهم فخر الانتصار ومذلة الانكسار في الحروب التي خاضوا غمارها تحت راية واحدة . وصاهروهم وبهذه المصاهرة افضت ولاية لبنان الى الشهابيين من بعدهم (١٦٩٧) . وقد حكموا في انحاء شتى من الديار الشامية زهاء ثلاثة عشر قرناً تخللتها فترات قصيرة خرج فيها الحكم من يدهم . وجاء الفتح العثماني موطداً لدعائم سلطانهم حيث اقرهم السلطان سليم على اقطاعهم في وادي التيم مكافأة لحالفه الامير منصور الشهابي على انحيازه مع الغزالي نائب الغوري في دمشق الى جانبه في وقعة مرج دابق الشهيرة التي كانت بدء القضاء على سلطة المماليك في الديار الشامية والمصرية على نحو ما تقدم . وآخر من نبغ منهم الامير بشير قاسم الكبير البطل اللبناني الشهير . وكان الشهابيون يدينون بالاسلام ثم اعتنقوا النصرانية فكانوا من اكبر انصارها في القرنين الماضيين وظلوا عليها الى اليوم . وقد افقدهم نظام لبنان الاخير (١٨٦١) امتيازاتهم القديمة ففقدوا شيئاً كثيراً من نفوذهم وثروتهم .

على همذان سنة ١٦٣٠ وحاول استرجاع بغداد فعجز دونها وثار عليه الانكشارية في سنة ١٦٣٢ فقمع ثورتهم وقتل زعيمهم خسرو باشا وانتقم منهم على وجه تقشعر له الابدان . فاستتب له الامر وامن الناس في انحاء السلطنة على ارواحهم وارزاقهم الى حين . ثم استأنف محاربة العجم واستفتح بعض مدنهم وحاصر بغداد سنة ١٦٣٨ وفتحها وارغم الشاه على التخلي له عنها في معاهدة الصلح التي ابرمت بينهما سنة ١٦٣٩ بعد تلك الحروب الهائلة التي استنفدت قوى الدولتين الشرقيتين واوردتهما موارد الهلكة والدمار . على انه لم يكد يهنأ بهذا الفتح المبين حتى وافته منيته في السنة التالية على حين كان يمني النفس باطيب الاماني وابعد الامال . وخلفه اخوه السلطان ابراهيم (١٦٤٠ — ١٦٤٨)

﴿ نكبة بني سيفا الثانية وتقلص نفوذ الحرافشة ﴾ أما السوريون فقد نالهم في عهد السلطان مراد من البلايا والويلات ما لم ينلهم في عهد اسلافه . وكانت خلافته شؤماً على بني معن واعوانهم . فاحاطت بهم الارزاء احاطة السوار بالمعصم وقضت على سطوتهم في ديار الشام قضاء مبرماً . ذلك انه بعد ان امن الامير فخر الدين على سلطته في جنوب سوريا زحف بجيشه على بعلبك للقضاء على سطوة الحرافشة . ثم استأنف السير بطريق جبة بشري الى طرابلس . وكان قد افضى الحكم فيها الى الامير قاسم بن يوسف باشا سيفا (١) الدّ أعداء المعنيين . فدخلها ابن معن عنوة وأمعن رجاله فيها قتلاً ونهباً . ثم جلا عنها وولّى الباب العالي عليها مصطفى باشا اسكندر فجار وبغى وولى على عكار الامير سلمان سيفا

وفي سنة ١٦٢٥ اقرّت الدولة الامير فخر الدين على ولاية بعلبك . فشق ذلك على الامير حسين بن يونس الحرفوش وسعى في استرجاعها بمساعدة والي حلب فاخفق مسعاه . وحاول الاميرقاسم سيفا استرجاع ولايته على طرابلس فلم يفلح وقهره مصطفى باشا واراد أن يقضي على سطوة آل سيفا وأنجده فخر الدين بجيش كبير سار فيه الى بلاد عكار بطريق البقاع ففر الامير سلمان سيفا من وجهه الى سلميه حيث قبض عليه صاحبها الامير مدلج وألقاه في الفرات . فوقع الرعب في قلوب بني

(١) توفي يوسف باشا سيفا سنة ١٦٢٤ بعد ان حكم طرابلس ٤٥ سنة (١٥٧٩ — ١٦٢٤) تخللتها فترات قصيرة خرجت فيها من يده وخلفه على ولايتها ابنه الامير قاسم حاكم جبله . وكان له ابنان آخران الامير محمود حاكم حصن الاكراد والامير بلك حاكم بلاد عكار

117

سيفا وألقوا امرهم بين يدي ابن معن فعفا عنهم بعد أن عاهدوه على الولاء وتخلوا عن قلعتي المرقب وحصن الاكراد وهما أمنع حصونهم

﴿ اتساع ولاية فخر الدين وتعاظم امر المعنيين ﴾ وكان قد اتصل بالباب العالي ما كان من اجتياح فخر الدين لمدينة طرابلس . فزحف خليل باشا الصدر الاعظم بجيش عظيم على سوريا لمحاربة الامير . فاسترضاه وهو في حلب بالمال وتخلى له عن بعض الحصون في شمال سوريا . وكان فخر الدين على أتم وفاق مع عمر باشا الدفتردار الذي كان خلف مصطفى باشا على ولاية طرابلس . فاوجس الوزير شراً من اتفاقهما هذا وعزل الوالي لكنه ارضى ابن معن بفتكه بالامير يونس الحرفوش عدوه الالد . وانصرف بجيشه الى بغداد لمحاربة شاه العجم . فكان ذلك سبباً في تعاظم نفوذ فخر الدين وانبساط رواق مجده واتساع ولايته الى ما وراء طرابلس وملحقاتها حتى انطاكية (١٦٢٧) شمالا وتدمر (١٦٣٠) شرقاً . وتعاظم امر ابنه الامير علي في الجنوب ولا سيما بعد ظفره سنة ١٦٣٢ بالامير احمد قانصوه أحد كبار امراء العرب في بلاد صفد .

﴿ نكبة بني معن الثالثة الكبرى ﴾ وكأن الاقدار أبت على عميد آل معن الاكبر الاستمتاع طويلاً بثمرة جهاده المتواصل في سبيل المجد الذي احرز منه في تلك الحقبة شأو الوزراء العظام . فمنذ سنة ١٦٣٣ اخذ نجم سعده بالافول . ذلك ان وشايات حساده ومزاحميه به بعثت كجك احمد وزير دمشق على السعي بامر السلطان مراد الى خضد شوكته . فزحف على لبنان بجيش كبير ومر على وادي التيم فعاث فيها ونكب اهلها . فهب اصحابها الامراء الشهابيون للدفاع عنها بمعاونة الامير علي ابن فخر الدين وبطشوا بجيشه . واستقتل الامير المعني في هذه الوقعة فلقي حتفه — وفي رأي بعض المؤرخين ان كجك احمد قتل في هذه الحرب وهو غير صحيح . واتصل خبر هذه النكبة بالسلطان فأمر باهلاك بني معن عن بكرة ابيهم . فابحر جعفر باشا من الاستانة بجيش عظيم . وانضوى تحت لوائه في بيروت آل سيفا وآل علم الدين ووافاه وزير دمشق بجيشه الى صيداء . فانهزم المعنيون من المدينتين واعتصموا بحصونهم . فجدّ جعفر باشا في اثرهم وفتح قلعة المرقب . ووقع الامير حسين ابن فخر الدين وصديقه الشيخ ابو نوفل الخازن في الاسر فارسلهما الى الصدر الاعظم في حلب . ثم فر ابو نوفل متنكراً وفتك وزير دمشق بالامير يونس اخي فخر الدين .

الا انه عجز عن ادراك ابنه الامير ملحم وظل طليقاً . واباح لعسكره دماء الشوفيين وارزاقهم وولى على بلادهم الامير علم الدين اليمني. ثم حاصر فخر الدين في قلعة شقيف تيرون فافلت من يده واعتصم بقلعة جزين — وكانت غاية في المنعة . فتمكن الوزير بخيانة احد خدمة بني معن من نقبها واستأسره مع أولاده واعوانه وفي جملتهم الشيخ ابو نادر الخازن وعمه ومضى بهم الى دمشق حيث اطلق سبيل الشيخين الخازنيين . أما فخر الدين واولاده فارسلوا الى الاستانة واعتذروا للسلطان مراد فعفا عنهم وانزلهم في ضيافته . وانتهز الامير علي علم الدين هذه الفرصة للانتقام من المعنيين وانصارهم فقتل بكبارهم وضبط املاكهم ولم ينج من نقمته الا الشيخان ابو نادر الخازن وابنه ابو نوفل وعدد قليل من انصار بني معن. الا ان الخوازنة لم يأمنوا غدره بهم فالتمسوا النجاة بالسفر الى توسكانا (١٦٣٥) حيث نزلوا في ضيافة دوقها ثلاث سنين . على ان ذلك لم يكن كافياً لتسكين سورة غضبه فاغتال الامراء التنوخيين في عبيه وهو في ضيافتهم عملا بقاعدة سادته الترك وفي جملتهم ثلاثة اطفال انقرضت بهم سلالة بني تنوخ امراء الغرب

على انه لم يكد يستتب الامر لابن علم الدين في ولايته حتى نهض الامير ملحم المعني للاخذ بثأر عشيرته وقومه . واجتاح بلاد الشوف بجمع كبير من اعوانه القيسيين. ونشبت بينه وبين عدوه في ارض المقيرط بجوار مجدل معوش معركة هائلة اسفرت عن اندحار اليمنية وفرار عميدهم ابن علم الدين الى دمشق وفشل الجيش العثماني الذي انفذه كجك احمد لانجاده بعد ان قتل قائده شر قتلة . ثم استأنف الامير علي علم الدين الكرة على ابن معن بمعاونة جيش دمشق واستظهر على فرقة من رجاله لكنه عجز بن القضاء على نفوذه وسطوته . واستغاث كجك احمد بالسلطان مراد فكبر عيه عطش الامير ملحم بجيشه ولم يرَ وسيلة للانتقام منه الا بقتل عمه الامير فخر الدين واولاده الثلاثة . وكان الصدر الاعظم اتى بابن فخر الدين الرابع الامير حسين ملن حلب الى الاستانة فلم تتناوله نقمة السلطان ونجا بنفسه . وعلى ذلك لم يبق من كبار آل معن بعد مصرع فخر الدين الا ابنه هذا والامير ملحم ابن اخيه يونس

وفي عهد الامير فخر الدين عظم شان المسيحيين في الديار الشامية فشيدوا المعابد ومارسوا الفروض الدينيـة على تمام حريتهم وركبوا الخيل المسرجة وتعمموا بعمائم بيضاء وحملوا الاسلحة المجوهرة خلافاً لما كانوا عليه في عهد سلفائه . وراجت في البلاد

متاجر الامريين من البنادقة وغيرهم وكثرت فيها رسالاتهم الدينية . وكان على قصر قامته ونحول جسمه شجاعاً باسلا مقداماً ذا نفس أبية لا يلتوي لها عود وسياسياً محنكاً جمع الى الحلم وكرم الخلق الفطنة والدهاء والرصانة وذكاء الفؤاد . وقد بلغ من بسطة الجاه واتساع النفوذ والسلطان ما لم يبلغه وزير أو امير في الديار الشامية فهو لذلك في اعتبار المؤرخين اعظم امراء لبنان

﴿ بنو علم الدين وبنو سيفا ﴾ لما قضي على الامير فخر الدين عميد آل معن الاكبر وانحط شأنهم في بلاد الشام خلا الجو لمزاحميهم وحسادهم من امراء البلاد وحكامها وامنوا على سلامتهم وسيادتهم فانتعشوا وطابت نفوسهم . وكان الامير علي علم الدين في مقدمةهؤلاء المزاحمين فوطد سلطته في البلاد وجار على انصار المعنيين ولا سيما على المشايخ الخوازنة حتى اضطر كبراؤهم أن يفروا من وجهه الى توسكانا على نحو ما تقدم . واستعاد قاسم باشا سيفا ولاية طرابلس (١٦٣٤) لكنه لم يلبث ان استوى على منصة الحكم حتى صدر له الامر باللحاق بجيش الدولة في العجم فتظاهر بالجنون واعتزل الولاية وتقلد الحكم مكانه ابن اخته الامير علي بن محمد سيفا فنازعه الولاية خاله الثاني الامير عساف وقهره . ثم عاد الامير علي فقاتل خصمه هذا واستولى بمعاونة حسن آغا مدبر خاله الامير قاسم والامير علي علم الدين على بلاد جبيل وجبة المنيطرة . وهب الحمادية لانجاد الامير عساف فاجتاح جبة المنيطرة واضرم النار فيها وفتك بجماعة من بني المستراح . وانحاز المقدم زين الدين الصواف الى جانب الامير علي سيفا فاشتد ساعده وسطا على زاوية طرابلس وهناك ظفر بعدوه وامعن في رجاله قتلاً وجرحاً وضم الى طرابلس ولايتي جبيل والبترون . واوغل في الجور والبغي فانتزع الباب العالي الولاية منه (١٦٣٥) وعهد بها الى مصطفى باشا النيشانجي فسالمه هذا وتخلى له عن ولايتي جبيل والبترون وألحق بهما الضنية وولى جماعة من ذويه على عكار وحصن الاكراد وصافيتا ارضاء له . وعهد بولاية جبة بشري الى الشيخ ابي كرم يعقوب الحدثي والشيخ ابي جبرائيل يوسف الاهدني . ثم سار مصطفى باشا لمحاربة شاه العجم بعد ان عهد بمحافظة طرابلس الى الامير عساف سيفا . فشق ذلك على الامير علي وسطا على اميون ومعه المقدم محمد ابن علي الصوّاف فقهرهما الامير عساف في أرض عرقا واستولى على جبيل واستتم

نقمته من ابن أخته وحليفه الأمير علي علم الدين في وقعة عنازبلاد الحصن

﴿ نكبة اليمنية ﴾ لم يطل بين الامير علي علم الدين ووزير دمشق عهد الوفاق فتمرّد عميد اليمنية عليه (١٦٣٦) لكنه عجز عن مقاومة جيشه وجيوش الامراء والحكام الذين شدوا ازره كالاميرين عساف سيفا ومراد اللمعي وحاكمي صفد وبيروت . وانهزم بعشر اليمنية الى كسروان فكسره القيسية في مرحاتا والمريج وطاردوه الى النهر البارد واعملوا السيف في رقاب اليمنية على رغم انضمام الامير علي سيفا برجاله اليهم ثم استتموا نقمتهم منهم في جون عكار حيث سبوا نساءهم وغنموا ما كانوا يحملونه من متاع ومال . ورأى ابن علم الدين ان يصلح بين صديقه الامير علي سيفا وخاله الامير عساف فيجتمعان على الاخذ بناصره نخاب مسعاه ولم يحل اتفاقهما دون اجتياح الامير ملحم المعني لبلاد الشوف على اثر نكبة اليمنية هذه وانتزاعه الولاية من ابن علم الدين

﴿ نكبة بني سيفا الثالثة وعود الولاية الى آل علم الدين ﴾ وتلا ذلك جنوح التيشانجي والي طرابلس الى العصيان وفشله على اثر خذل آل سيفا له ونكثهم عهده ومحاولة استرجاع الحرافشة ولاية بعلبك واخفاقهم وايقاع وزير دمشق برجالهم واقتتال الحمادية وأمراء رأس نحاس وعود الاميرين علي وعساف سيفا الى تنازع الحكم والسيادة وانحياز الامير ملحم المعني الى جانب الاميرعساف واستظهارهما على الاميرعلي وصديقه ابن علم الدين (١٦٣٧) . ثم أسندت ولاية طرابلس الى شاهين باشا وهاله ما منيت البلاد به من البلايا على أيدي بني سيفا فاراد ان يريحها من شرهم ويأمن على سلطته من غدرهم فشنق الامير عسافاً وأوقع بكبار عشيرته على ايدي امراء رأس نحاش وبني حماده . ولم ينج منهم الا الامير علي فاستجار بصديقه ابن علم الدين . وكان عميد اليمنية هذا استعاد ولاية الشوف والقى الرعب في قلوب القيسية وانصارهم ولاسيما الخوازنة والحبيشية . غير ان تغلب الامير ملحم المعني عليه اثر انهزامه من وجه السلطان مراد الى بلاد بشاره (١٦٣٨) وانتزاعه الولاية منه هدأ روعهم واسكن ثائر خوفهم فترة قصيرة انقضت باسترجاع عميد اليمنية زمام الحكم وطرده القيسية من الشوف واسترجاعه ولاية بيروت . وفي السنة التالية تولى طرابلس محمد باشا الارناؤوطي فعصاه بنو سيفا والشيخ ابو كرم الحدثي فانتقم منهم شر انتقام

أما السلطان ابراهيم الذي خلف اخاه مراد الرابع (١٦٤٠ — ١٦٤٨) فقد

جنح لدى تبوئه العرش الى مسالمة الدول فخاب فأله وقضى عليه سوء الطالع بان يفني سني ملكه في حروب دموية هائلة ختمت بفتنة اهليـة ذهبت بتاجه واودت بحياته ونودي بابنه السلطان محمد الرابع خلفاً له (١)

﴿ نكبة بني سيفا الرابعة وظلم ولاة طرابلس ﴾ وفي عهد هذا السلطان ظلت الامور في الديار الشامية جارية في مجراها المعتاد . ففي اول سنة من خلافته اجتاح عسكر الارناؤوطي والي طرابلس جبة بشري لالقاء القبض على حاكمها الشيخ ابي كرم وأمعن فيها قتلاً وسلباً حتى اضطر هذا الى افتداء بلاده بنفسه فسام له وعرض الوالي عليه الاسلام فابى واماته شر ميتة . ثم دهم الامير سلمان عميد آل سيفا في عكار . ورابه أمر الحمادية فاجتاح بلادهم والحقها بولاية الامير علي علم الدين فلم يخلص له الامير وانتقض عليه لانتزاعه ولايتي بيروت وصيداء منه . وخلفه حسن باشا (١٦٤٤) فاقتفى اثره في البغي والجور حتى اضطر كثيرون الى هجر اوطانهم. ثم استعاد الارناؤوطي الولاية (١٦٤٦) وأوغل في الظلم فازداد البلاء شدة واحكاماً واشتد تيار المهاجرة. فاستبدله السلطان بمحمد باشا الصوفي. وبعد فترة قصيرة أعاده اليها (١٦٤٧) فعاد الى شر مما كان عليه من التضييق على الرعية وسد منافذ الهناء في وجهها .

وهكذا كان عهد السلطان ابراهيم حافلاً بالمكاره والارزاء كعهد سلفه . وخلفه ابنه السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ ١٦٨٧) فطال حكمه غير انه كان سيئ الطالع نظيره . جلس على سرير السلطنة وهو حديث السن والدولة في حرب مع البنادقة . فافضت السلطة فيها الى زمرة من اصحاب المطامع والاهواء افسدت على الدولة أمورها حتى تناولت انحاءها فوضى عظيمة كانت عوناً للبنادقة على الظفر بها وحشرها في مأزق شديد الخطر عليها لم تجد لها مخرجاً منه الا لتدخل مأزقاً أشد منه خطراً على كيانها . فكانت حرب البنادقة مقدمة لحروب أخرى أعظم شاناً واكثر هولاً

(١) حارب السلطان ابراهيم القوزاق . ثم شهر الحرب على البنادقة سنة ١٦٤٥ لاسرهم شقيقه وعمته في طريقهما الى الحج (وفي رواية ان شقيقه هـذا عاش في اوربا ومات راهباً) وانتزع منهم جزيرة كريت ما عدا عاصمتها كنديا . فشنوا الغارة على بلاد اليونان واضرموا النار في معظم مدنها . فهاج ذلك سخطه وامر باهلاك النصارى في سلطنته فحال مفتي الاستانة دون تنفيذ الامر . وامعن البنادقة في فتوحاتهم وحصر اسطولهم مضيق الدردنيل وتحفزت روسيا للاستيلاء على رومانيا واضرم الانكشارية نار الثورة في الاستانة فحاول اغتيال السلطان زعمائهم فاحبطوا مسعاه وخلعوه سنة ١٦٤٨

خاضت الدولة العثمانية غمارها ضد النمسا وفرنسا وكريت وبولونيا وروسيا وقاست فيها من الشدائد والاهوال ما انهك قواها فخرجت منها مقطعة الاوصال ممزقة الاحشاء. ومما زاد الخطب تفاقماً ان الجيش انتقض عليها وعصفت ريح الفتن في انحائها . ولولا مبادرة اقطابها وعلمائها الى خلع السلطان والمناداة باخيه السلطان سليمان الثاني لجل الخطب وذهب باستقلالها (١)

﴿ خاتمة حياة الامير ملحم المعني واخبار بني البشعلاني ﴾ وفي عهد السلطان محمد الرابع نال الديار السورية النصيب الاوفر من البلايا والارزاء التي توالت على السلطنة . ذلك انه لما افضى اليه تاج آل عثمان كانت البلاد رازحة تحت عبء المظالم والنكبات التي انزلها بها نواب الدولة وعمالها ولا سيما محمد باشا الارناؤوطي والي طرابلس إذ كان قد امعن في البغي والاعتساف الى اقصى حد مستطاع . وخلفه عمر باشا (١٦٤٩) فاسترضى آل البشعلاني . وآنس من الامير ملحم المعني جنوحاً الى عصيان بشير باشا وزير دمشق فتوسم في ذلك خيراً وتخلى له من ولاية البترون طمعاً في انحيازه الى جانبه . فكان ذلك باعثاً على اجتماع بشير باشا والامير علي علم الدين على مداهمة ابن معن في وادي التيم غير أنه دحر جيشهما وكفى البلاد شرهما . ثم اعادا عليه الكرة فاستظهر عليهما بمعاونة صديقيه الاميرين قاسم وحسين الشهابيين وكال

---

(١) استفتح السلطان محمد الرابع ملكه بمحاربة البنادقة فاستظهروا عليه سنة ١٦٤٩ وحطموا اسطوله وحصروا الاستانة فاستحكمت حلقات الضيق فيها . وازدادت الازمة شدة لاستفحال امر الانكشارية فقمع الكوبرلي باشا الصدر الاعظم ثورتهم . ثم انبرى لمنازلة البنادقة فكسر الاسطول البندقي في الدردنيل سنة ١٦٥٦ وانتزع منهم ما كانوا احتلوه من الجزر والثغور العثمانية . وتلا ذلك خروج ترنسلفانيا والفلاخ عن طاعة السلطان سنة ١٦٥٨ . وحربه مع فرنسا والنمسا سنة ١٦٦٣ . واستيلاء فرنسا على تونس والجزائر. وثورة اهل كريت بتحريض هذه الدولة وظفر السلطان بهم بعد حروب طويلة افضت الى تخلي البنادقة له عن هذه الجزيرة سنة ١٦٧٠ . وعقده في السنة التالية مع لويس الرابع عشر معاهدة اعترف بمقتضاها لفرنسا بحق حماية الاماكن المقدسة في السلطنة العثمانية كما كانت الحال في عهد السلطان سليمان الاول . ثم حارب السلطان بولونيا وقهرها سنة ١٦٧٢ وطالت الحرب بينه وبين ملكها سوبيسكي البطل البولوني الشهير الى سنة ١٦٧٦ . ثم عادت الدولة الى محاربة النمسا سنة ١٦٨١ وكسرتها وحاصرت فينا سنة ١٦٨٣ فردها ملك بولونيا عنها ونكل بجيوشها . وابرمت على اثر ذلك بين النمسا وبولونيا وروسيا والبندقية الحلفة المقدسة الشهيرة التي اجتمعت هذه الدول عملاً باحكامها على محاربة الدولة فدوخت بلادها ومزقت جيوشها تمزيقاً سنة ١٦٨٥ حتى افضت الحال الى ثورة داخلية عظيمة قضت بخلع السلطان

لهما ضربة أشد من الاولى وطارد ابن علم الدين الى أبواب دمشق . ولم تطل بعد ذلك أيام الامير ملحم فادركته منيته سنة ١٦٥٨ وهو في صيداء . فكان ذلك النصر الذي أحرزه على أعدائه خاتمة جميلة لحياته المجيدة التي كانت حافلة بالمكارم والمآثر الغراء . ففقد القيسية به اكبر عميد تولى أمرهم بعد عمه فخر الدين . وعدّ النصارى موته خسارة كبيرة عليهم لانه اقتفى أثر عمه في حبه لهم والاخذ بناصرهم . وهذا ما حمل زعماءهم على اخلاص الود له وتأييد ولديه الاميرين أحمد وقرقماس في ما توالى عليهما من الحوادث . وقد امتاز بعدله وحلمه وشدة غيرته على وطنه وعنايته بشؤون البلاد والعباد الى درجة ليس بعدها زيادة لمستزيد

وفي اثناء ذلك تقلد زمام الحكم في طرابلس حسن باشا (١٦٥١) . وفي عهده انحط شأن بني البشعلاني وانتزع مزاحموهم منهم ولاية جبة بشري . ثم استعادوا نفوذهم في السنة الثانية اذ استرجع الارناؤوطي باشا ولاية طرابلس وعهد في تدبير شؤونها الى عميدهم أبي رزق كما كان أولا ولقبه بشيخ المشايخ وعزفت له الموسيقى السلطانية . فاستنكر المسلمون ذلك—وهو لا يدين بدينهم . واتهموه زوراً بانه تامر مع الامير المعني على الوالي . فزجه الارناؤوطي في السجن مع ذويه وانصاره . ثم تولى طرابلس قره حسن باشا فاطلق سبيله واكرهه على التظاهر بالاسلام لئلا يضطر الى قطع رأسه عملا بامر الباب العالي . ثم التزم اموال جبلة واللاذقية وأقام هناك فانصرفت اذهان حساده عنه ولا سيما بعد ان لاذ أقاربه بحمى ابن معن . وخلف قره حسن محمد باشا الكوبرلي (١٦٥٤) فولى الحمادية على جبة بشري وأقرّ بقية الحكام على اقطاعاتهم . وعقبه علي أغا الطباخ (١٦٥٦) وفي عهده التزم الامير فارس ابن مراد اللمعي اموال الجبة ثم تولى بلاد عكار (١٦٥٨) . ثم خلفه قبلان باشا واراد معاقبة الحمادية لوفرة ما اقترفوه من الموبقات ففروا من وجهه واجتاح وادي علمات ودمر دورهم وقراهم

﴿ نكبة القيسية الكبرى ﴾ أما دمشق فتقلد زمام الحكم فيها بعد بشير باشا محمد باشا الكوبرلي (١٦٦٠) . ولم يكد يطأ أرض الشام حتى تحفز للانتقام من الشهابيين لتنكيلهم بجيش دمشق على عهد سلفه . فزحف بجيش عظيم على وادي التيم ومعه الولاة والحكام وفي جملتهم الامير علي علم الدين . ففر الشهابيون الى قهمز في كسروان . ودك الكوبرلي دورهم في حاصبيا وراشيا وولى على بلادهم الاميرين محمد ومنصور ابني الامير علي علم الدين . وابي الاميران احمد وقرقماس ابني الامير احمد

المعني انجاد الوزير وتأهبا لمقاومته فاضطر ان يقتنع منهما بنفقة جيشه . واستقل غنيمته من هذه الغزوة فاستنزف أموال جماعة من الزعماء الذين قاتلوا تحت رايته . وحاول الامير اسمعيل الكردي الافلات من الشرك الذي نصبه له فاخفق وأماته الوزير شرّ ميتة . بمثل ذلك كان يكافئ نواب الدولة التركية انصارهم ومحازبيهم على بذلهم ارواحهم وأموالهم في تأييدهم ونصرهم على مزاحميهم واعدائهم . ثم استأنف هذا الطاغية مطاردة الشهابيين وانصارهم المعنيين والخوازنة والحمادية . ورأى هؤلاء ان لا قبل لهم بمقاومته بمن التف حولهم من القيسية فتفرقوا في البلاد وانقطعت اخبار زعمائهم. فجلا الوزير عن البلاد بعد ان قاست من وطأته الشدائد وعهد بولاية الشوف الى الشيخ سرحال العماد ونصب عمالا من اعوانه على بقية الاقطاعات وفرض عليهم خراجاً سنوياً . ثم ظهر الشهابيون والمعنيون في كسروان فعاد الوزير الى مطاردتهم وعاث جيشه فيها ونكب اهلها واضرم النار في دور زعماء القيسيين واتلف املاكهم . ولما اعيته الحيل في القضاء عليهم عمد الى الغدر جرياً على القاعدة المتبعة في الدولة . فاستقدم بحيلة تركية على يد والي صيداء الاميرين احمد وقرقماس المعنيين الى عين مزبود (١٦٦٢) وهو يمنيهما باحسن الامال . وادركا الخطر بعد فوات الفرصة وهمّا بالفرار فاطبق عليهما الجند واصابت ضربة مقتلا من الامير قرقماس فخر صريعاً . أما شقيقه فتمكن من الهرب بعد ان أُصيب بجرح بالغ في عنقه وقتل معظم رجاله وتوارى عن الانظار وظل مختفياً زهاء سنتين متواليتين حتى عزل والي صيداء (١٦٦٤) فظهر من مخبأه وانتقم من اليمنية شر انتقام فقاتلهم سنتين متواليتين وانهك قواهم واستتم نقمته منهم في وقعة بيروت سنة ١٦٦٧ . فانهزم عميدهم ابن علم الدين بجماعة منهم الى دمشق واسترجع الامير المعني ولاية الشوف وألحق بها بلاد الغرب والمتن وكسروان . واستعاد صديقاه الاميران منصور وعلي الشهابيان ولايتهما على وادي التيم . وتلا ذلك تنازع الحرافشة على ولاية بعلبك (١٦٧١) الى ان افضت الى أحدهم الامير علي . ومحاولة الشهابيين الانتقام من بني حيمور أصحاب البقاع لاشتراكهم في الحرب التي أصلى الكوبرلي نارها عليهم في وادي التيم

﴿ استفحال امر الحمادية ونكبتهم الكبرى ﴾ وفي السنة التالية تولى طرابلس حسن باشا فاعاد الحمادية الى اقطاعاتهم فجاروا وبغوا . فانتزع الحكم منهم وقاتلهم عند افقا (١٦٧٥) . فاجتاحوا بلاد جبيل والبترون واستفحل امرهم. فاجتمع ولاة سورية

على مقاتلتهم . وحال توسط الامير احمد المعني دون مطاردة الولاة لهم . واطلق والي طرابلس رهائنهم بعد ان دفع اليه الامير ما كان متأخراً عليهم من الاموال . ثم انتهز الحمادية فرصة انصراف هذا الوالي الى قتال التركمان واضرموا نار الفتن في بلاد جبيل والبترون (١٦٧٦) . فاستأنف الكرة عليهم واضرم النار في قرى عامات . فثاروا لانفسهم بتدميرهم قرى كثيرة في بلاد جبيل . فاضطر خلفه الى استرضائهم واعاد اليهم اقطاعاتهم فاخلدوا الى السكون

وتلا ذلك تنازع الامير فارس شهاب والامير عمر الحرفوش ولاية بعلبك . واوقع ابن الحرفوش بخصمه في نيحا . فارغمه الامير احمد المعني صديق الشهابيين على دفع ديته وتركه وشأنه . فاستأثر بالحكم ولم يهنأ به طويلا فطرد الى جبيل حيث ادركته منيته (١٦٨٣) . وخيل الى الشهابيين انه لم يعد في استطاعة الحرافشة انتزاع ولاية بعلبك منم فخاب فألهم وافضت بعد فترة قصيرة الى الامير شديد ابن اخي الامير عمر الحرفوش

أما الحمادية فلم يطب لهم العيش في السكون الذي لزموه على اثر رد والي طرابلس اقطاعاتهم اليهم . فاتخذوا عزله في السنة التالية وسيلة لاخراج رهائنهم من قلعتها عنوةً (١٦٨٤) . وعرجوا في عودهم الى جبة المنيطرة على عشقوت وحاولوا نهبها . فقاومهم اهلها وقتل منهم احد عشر نفساً (١) . فانتقم منهم والي طرابلس الجديد على يد الامير احمد المعني اذ اجتاح جيش الامير جبة المنيطره ومعه رجال الخوازنة والحبيشية ودك دورهم وقراهم هناك بعد ان اضرم النار فيها . فلاذوا بالفرار الى بعلبك وعرض الوالي على ابن معن الحاق بلادهم بولايته فابى . ثم عادوا فجمعوا شملهم وجاهروا بالعصيان فقمع وكيل الوالي ثورتهم وامات اثني عشر عميداً من انصارهم على الخازوق (١٦٨٦) . ولم يكن ذلك كافياً لكبح جماحهم فنصروا الامير شديد الحرفوش على الوالي في قتال نشب بينهما. فانتقم الوالي منهم واضرم النار في اربعين قرية من قراهم

(١) كان بين الحمادية وآل ثابت في عشقوت ضغائن يرجع عهدها الى سنة ١٦٥٠ اذ فتك خاطر (حفيد المقدم خاطر الحصروني حاكم جبة بشري) ابو ثابت برجل من بني المستراح انسباء الحمادية على اثر اختصامه مع اخيه شمعون الذي قتل في هذا الخصام وفر خاطر هذا الى عشقوت واستوطنها . ولهذا كان بنو ثابت اول من هب لمقاومة الحمادية عند محاولتهم نهب وطنهم الجديد . ولم يلبث الحمادية ان لهنوا بطش الامير المعني حتى اعادوا الكرة على عشقوت انتقاماً من اهلها لما نالهم يسببهم من المضار لدن اجتياح هذا الامير بلادهم

وفي جملتها العاقوره . فدهموه على عين الباطية في صرود تورين وبددوا عسكره واقتفوا اثره الى جبيل واحرقوا قلعتها

وعقب حوادث الحمادية نكبة آل البشعلاني . ذلك ان حسّاد آل البشعلاني ومزاحميهم هالهم ما رأوا من تعاظم شأن عميدهم الشيخ يونس فوشوا به الى ارسلان باشا المطرجي والي طرابلس فزجه في السجن مع ذويه وانصاره . فتظاهر بالاسلام ليأمن غدره وانس منه غفلة ففرّ باهله الى بلاد معن

***

لما تبوأ السلطان سليمان الثاني عرش أجداده (١٦٨٧ — ١٦٩١) رأى ان يأخذ الانكشارية باللين فتمردوا عليه وسادت الفوضى عاصمة السلطنة. فتحين اعداء الدولة هذه الفرصة لاجتياح املاكها فاحتل البنادقة ثغور اليونان وساحل دلماسيا (١٦٨٧) واستولى النمساويون على قسم من سربيا (١٦٨٨ — ١٦٨٩) ثم استردها منهم مصطفى باشا الكوبرلي الصدر الاعظم (١٦٩٠) بعد ان اصلح شؤون الدولة وبث في الجيش روح النظام. واستمال النصارى الى الدولة واخصهم اهل المورة

وخلف هذا السلطان اخوه احمد الثاني (١٦٩١ — ١٦٩٥) ولم يكد يستقر على العرش حتى عاجلت المنية الصدر الاعظم وهو قائم على محاربة النمسا . فكانت وفاته نكبة على الدولة حيث اضاعت ما كان تمّ لها على يده من السطوة والنفوذ . واستولى البنادقة على جزيرة صاقس (١٦٩٤) ومات هذا السلطان سنة ١٦٩٥ وخلفه السلطان مصطفى الثاني

اما سورية فلم تكن في عهد هذين السلطانين اسعد حظاً منها في عهد من تقدمهما من السلاطين . فظلت الفتن والنكبات تتوالى وتتعاقب في انحائها على نحو ما كانت عليه سابقاً . ذلك ان استظهار الحمادية على والي طرابلس الاخير شدد عزائمهم . ومما زادهم قحة مجاراة الوالي الذي خلفه لهم واقرارهم على اقطاعاتهم (١٦٩١) وجاء موت الشيخ ابي قانصوه فياض الخازن واخيه الشيخ ابي نادر في سنة واحدة موطداً لسلطتهم ومعززاً لسطوتهم . فعادوا الى سابق عهدهم من ارهاق الناس بالمظالم واوغلوا في النهب والسلب . وتلا ذلك انتقال ولاية طرابلس الى علي باشا اللقيس (١٦٩٢) فاقرهم على اقطاعاتهم . ثم انتزع الحكم منهم وعهد به الى عمال من بني دندش والحسامي والشاعر ونحلوس . واستعان بالامير احمد المعني عليهم فكسر

الامير شوكتهم على ايدي الخوازنة وطاردهم هؤلاء الى بعلبك ففتك حاكمها بجماعة منهم واجهز العمال الذين تولوا اقطاعاتهم على جماعة آخرين منهم بين قهمز ولاسا. وحسن ما فعله اللقيس بهم في عيني السلطان فرقاه الى منصب الصدارة

﴿ خاتمة حكم المعنيين وانقراض سلالتهم ﴾ ثم تولى طرابلس ارسلان باشا المطرجي (١٦٩٣) فعرض اقطاعات الحمادية على الامير احمد المعني ليأمن شرهم فابى . وولى المطرجي عليها امراء الاكراد وبني الشاعر وعهد اليهم بالقضاء على سطوتهم ففشلوا وكسرهم الحمادية شر كسرة في عين قبعل بالفتوح . فحنق الوالي على الامير المعني واتهمه بممالئة الحمادية عليه واستصدر امراً من السلطان بعزله من ولايته وتقليد عدوه الامير موسى علم الدين زمامها . وحشد جيشاً عظيماً في وطا عرموش بالبقاع لمقاتلته . وعلم الامير المعني ان بين الذين انضموا الى جيش الدولة جماعة من انصاره القيسية كالخوازنة بقيادة عميدهم الشيخ حصن والنكدية والعيدية وبعض اليزبكية . فوجد ان مقاومته لهذا الجيش الضخم — وقد تخلى عنه معظم حلفائه — ضرب من الحماقة والجهل . فآثر الاعتزال في وادي التيم ريثما يستجمع شتات قواته . ثم زحف على الشوف ومعه الاميران نجم وبشير الشهابيان فاستجار ابن علم الدين بمصطفى باشا والي صيداء فخذله لان الامير المعني حذره من غدره وتمكن ابن معن بالمال وحسن السياسة من اكتساب ثقته وحمله على استصدار ارادة سلطانية باقراره على ولايته

جلس السلطان مصطفى الثاني على العرش (١٦٩٥ — ١٧٠٣) وأعداء الدولة يتحفزون للاجهاز عليها . وكان شجاعاً مشغفاً بالفتح . فحارب بولونيا وقاد الجيش بنفسه فقهرها . وحارب بطرس الاكبر قيصر الروس . وأطال بما ابتكره من أساليب الدفاع وقوف الجيش الروسي أمام أزوف سنة كاملة قبل ان يفتحها القيصر (١٦٩٦) . وتحرشت به النمسا فقهرها أولاً . ثم كسرته في حرب البشناق (١٦٩٧) فاستجمع قواته وأجلاها عنها . واستردّ جزيرة صاقس من البنادقة . غيران معاهدة الصلح التي أبرمها مع أعدائه على يد لويس الرابع عشر (١٦٩٩) أخرجت معظم الولايات البلقانية من يده . ثم انصرف الى تنظيم شؤون الدولة فتعرض له الانكشارية وقاموا بفتنة عظيمة أفضت الى خلعه والمناداة باخيه السلطان احمد الثالث

أما سوريا فكان عهد هذا السلطان شؤماً عليها اذ حلّ بها القحط والغلاء في

السنة الثانية للملكه (١٦٩٦) . وجاءت مضاعفة أموال التكاليف ضغثاً على ابالة فاضطر عدد كبير من أهلها الى هجر أوطانهم . وتلا ذلك فتك المطرجي والي طرابلس بالشيخ يونس البشعلاني الشهير [١]. وانقراض سلالة بني معن وافضاء الولاية الى الشهابيين

﴿ ولاية الامراء الشهابيين ﴾ انقضت سنة ١٦٩٧ وبها انقضى حكم الامراء المعنيين على اثر موت الامير احمد المعني . فكانت مدة ولايتهم ٥٧٩ سنة (١١١٨ — ١٦٩٧) . فاختار أعيان البلاد خلفاً له ابن اخته الامير بشير حسين الشهابي امير راشيا [٢] . غير ان الامير حسين بن فخر الدين المعني كان لا يزال في الاستانة فتمكن من حمل السلطان على تولية الامير حيدر بن الامير موسى شهاب لانه حفيد الامير احمد المعني لبنته . وكان الامير حيدر لا يزال قاصراً فتقلد الامير بشير زمام الولاية ريثما يبلغ الامير القاصر سن الرشد . وبذلك تم انتقال ولاية آل معن الى الشهابيين (١٦٩٧ — ١٨٤٢)

﴿ ولاية الامير بشير الاول الشهابي ﴾ استوى الامير بشير حسين الشهابي على منصّة الامارة والفوضى ضاربة أطنابها في الديار الشامية . فاعدّ للنضال عدّته . ولم يكد يستتب له الامر حتى عصفت ريح الثورة في بلاد بشارة فقمعها وكال للشيخ مشرف اليمني مضرم نارها ضربة شديدة قاضية . فتخلى له قبلان باشا والي صيداء عن هذه البلاد مكافأة له . فولى عليها الامير منصور بن أخيه وأناب عنه في تدبير شؤونها عمر بن أبي زيدان أبا ضاهر العمر الشهير لانه كان قيسيًّا من أنصاره . وعلى اثر ذلك

(١) قال ده لاروك في تاريخ رحلته الى لبنان ما يؤخذ منه ان الشيخ يونس كان عظيم النفوذ واسع الثروة ذكي الفؤاد حكيماً . وكان له عند وزراء الدولة وأقطابها من سمو المكانة ما أوغر صدور حساده حقداً عليه . فسجنه ارسلان باشا المطرجي مع ذويه عملا باشارتهم . ثم تظاهر بالاسلام ليتجو من شرهم . فافتى مفتي الاستانة ان اسلامه باطل لانه اكره عليه اكراهاً . فجاهر بنصرانيته وتولى برية طرابلس خمس سنوات الى أن تولى طرابلس قبلان باشا المطرجي (١٦٩٥) فحمله حساد الشيخ يونس على زجه في السجن سنتين متواليتين حاول فيهما مراراً ان يستميله الى الاسلام فاخفق واماته على الخازوق (١٦٩٧). ومن ذلك الحين انحط شأن آل البشعلاني ولم يحل عطف ملك فرنسا وتفاصله عليهم دون ما حل بهم على أثر هذه النكبة من البؤس والشقاء

(٢) ان انتقال ولاية آل معن الى الشهابيين انما كان باختيار أهل البلاد أنفسهم عملا بعادات اللبنانيين وتقاليدهم الموروثة من ازمنة عريقة في القدم . وفي ذلك ما يكفي للدلالة على ان استقلال لبنان التام في شؤونه الداخلية يرتقي الى اقدم أزمنة التاريخ

مجاهر الحمادية بالعصيان واسترسلوا في البغي والفجور . فردَّ والي طرابلس كيدهم الى نحرهم وألحق اقطاعاتهم بولاية الامير الشهابي لينجو من شرّهم . وبذلك امتدت ولايته من صفد الى حدود طرابلس . وهاج فوز ابن شهاب كوامن الحسد والحقد في صدر عدوّه الامير موسى علم الدين فتذرع بما كان بين خصمه هذا وبين والي طرابلس وصيداء الاخوين من الولاء المتبادل للوشاية بهم الى السلطان بانهم تآمروا على خلع طاعته . وأمَّ الاستانة في هـذه المهمة نخاب مسعاه (١٧٠٠) . وتعاظم نفوذ الامير الشهابي وانبسط رواق مجـده وسلطانه . ولولا اشتداد وطأة الاوبئة وحلول الضنك والشقاء في تلك السنة لجاءت فاتحة ولاية الشهابيين خاتمة حسنة جميـلة لتاريخ القرن السابع عشر في الديار الشامية

سورية في القرن الثامن عشر

بزغت شمس القرن الثامن عشر وزوابع الحروب تهب على السلطنة العثمانية . فجلس السلطان احمد الثالث على العرش (١٧٠٣ — ١٧٣٠) وهو مزعزع الاركان . وقد طالت خلافته ولـكنها كانت حافلة بالـكوارث والنكبات . استهل ملكه بالضرب على أيدي الانكشارية . ثم حارب الروس وملـكهم يومئذ بطرس الاكبر . وتلا ذلك حربه مع بولونيا وقهره لها وانحياز النمسا الى جانبها واستظهارها على الترك . وحارب الفرس وقهرهم ثم مال الى مسالمتهم . فشق ذلك على الانكشارية وخلعوه ونادوا باخيـه السلطان محمود (١)

﴿ ولاية الامير حيدر الشهابي ﴾ أما في سورية فكان عهد هذا السلطان حافلاً

---

(١) كان بطرس الاكبر أشد قياصرة الروس رغبة في تجزئة تركيا كما يستجلى من وصيته الشهيرة . وقد حاربه السلطان احمد الثالث وتمكن بعد حروب هائلة من حصره ومعشوقته كاترينا في مدينة أزوف (١٧١٠) وأرغمه على الصلح (١٧١١). ثم استؤنفت الحرب بينهما وعقبتها معاهدة ادرنة (١٧١٣) فجاءت في مصلحة تركيا . ثم قضت عليهما المصلحة المشتركة بابرام حلفة مجحفة بحقوق بولونيا والنمسا جاءت على اثر انتصار الثانية للاولى في حربها مع الترك وقهرها لهم (١٧١٦ — ١٧١٧) . فصان بذلك عرشه ومملكته . ثم اتفق مع القيصر على اقتسام جانب من مملكة الفرس فـكان هـذا الاتفاق قاضياً على عرشه اذ حاربه الفرس وغلبوا على أمرهم (١٧٢٥). ثم اجتاحوا املاك الدولة فاحجم السلطان عن محاربتهم . وهاج احجامه غضب الانكشارية فخلعوه . ومن حسناته انه أنشأ في الاستانة داراً للطباعة . وكان ذلك أول عهد الدولة بهذا الفن

بالفتن والحروب كعهد سلفه . انقضى في مفتتح ملكه حكم الامير بشير الشهابي (١٧٠٧) واستوى على منصة الامارة الامير حيدر شهاب . فاستهل حكمه بفتح بلاد بشارة وكسر شوكة مشايخها بني علي الصغير وآل منكر وصعب . وولى عليها الشيخ محمود أباهرموش (١٧٠٨) فلم يحفظ هذا الشيخ ذمامه وانحاز الى عدوه الامير يوسف علم الدين وحارباه فاستظهرا عليه بمعاونة آل ارسلان وبشير باشا والي صيداء وطارداه الى غزير . وهناك دارت رحى الحرب واحرز ابن شهاب وانصاره القيسية نصراً مبيناً . الا انه أحجم عن تعقب اليمنية لتكاثر عددهم وآثر الاعتصام في مغارة عذرائيل بالهرمل . واتهم الجيشيون بني الخازن بممالئة الامير حيدر . وصادف تنصل هؤلاء من هذه التهمة هوى من نفس الامير يوسف علم الدين فنكب بني حبيش وأضرم النار في غزير انتقاماً منهم

﴿ نكبة اليمنية الكبرى وانقضاء ولاية آل علم الدين ﴾ عاد الامير اليمني الى بلاد الشوف وعهد فى تدبير شؤونها الى ابي هرموش . فجار وبغى واشتدت وطأته على القيسية . فقلق الامير حيدر على مصير قومه وهب من مخبأه لاتقاذهم من شره وطغيانه . وتمكن بمعاونة من شد ازره من امراء القيسية ومشايخهم كاللمعيين والعمادية والخوازنة من حشد جيش كبير والتنكيل باليمنية في يوم عين دارا الشهير وانتزاع الولاية منهم . وقتل في هذه الحرب ثلاثة من آل علم الدين . ووقع ثلاثة آخرون فى الاسر وهم الامراء يوسف ومنصور واحمد . فقطع الامير الشهابي رؤوسهم . وبذلك انقرضت سلالتهم وانقضى حكمهم . وكافأ من خاض في جانبه غمار هذه الحرب من اللمعيين وآل عماد والقاضي ونكد وتلحوق وعبد الملك وجنبلاط فاقطعهم الاقطاعات . ووقع حسن بلاء اللمعيين فيها ولاسيما الامير عبد الله من نفسه وقعاً جميلا . فبالغ في اكرامهم وصاهرهم وأقرهم على القابهم . وصرف آخر سني حكمه بالغبطة والهناء . ووافته منيته سنة ١٧٣٢ وله تسعة اولاد (١) . وكان عادلاً حليماً كريماً . وفي عهده ارتفع شأن القيسية وذل الحزب اليمني . وقد ارضى البلاد وأحرز ثقة الدولة

تبوأ السلطان محمود الاول عرش بني عثمان (١٧٣٠ — ١٧٥٤) والسلطة في العاصمة لزعيم الثوار . ففتك به وانصرف الى حرب الفرس فقهرهم (١٧٣٢—١٧٣٦) .

---

(١) رزق الامير حيدر اولاده من اربع زوجات : الامراء ملحم واحمد ومنصور ويونس وعلي ومعن وحسين من بنتي عمه الشقيقتين . وعمر من والدة الامير مراد اللمعي . وبشير من بنت الامير حسين اللمعي عميد اللمعيين

124

وتحرشت به روسيا والنمسا فحاربهما وصالحهما على شروط في مصلحته (١٧٣٩) . ولكي يأمن جانبهما حالف فرنسا واسوج . ومات حتف انفه . وخلفه السلطان عثمان الثالث . وقد احرز السلطان محمود بحلمه وعدله وحبه للمساواة بين رعاياه مكانة رفيعة قلّ من احرزها بين سلاطين آل عثمان . وفي عهده اتسع نطاق السلطنة وعظم شأنها

على ان عدل السلطان محمود لم يتعدَّ دائرة عاصمته . فكان صداه في الولايات ولا سيما في سورية ضعيفاً خافتاً لم يقوَ على شق حجب الضمائر المتصلبة . وظل عمال الدولة يسومون الناس خسفاً وظلماً ويبذرون بذور الفتن بين احزابها المتنافرة . وقد افضى الحكم في ولاياتها الثلاثة دمشق وصيداء وطرابلس الى ولاة وطنيين من آل العظم (١٧٣٤) وعظمت شوكتهم وانبسط رواق سلطانهم . أما امارة لبنان فكانت قد آلت بموافقة سعد الدين باشا العظم والي صيداء(١٧٣٢) الى الامير ملحم بن الامير حيدر شهاب . فافتتح حكمه بقمع ثورة بني علي الصغير اصحاب بلاد بشارة . فتهيبه الناس وتعاظمت سطوته . غير ان ولاءه لسعد الدين كان قذى في عيني اخيه اسعد باشا والي دمشق . فاضمر له الشر ولكنه عجز عن كسر شوكته . وتعقبه الامير الى ابواب دمشق (١٧٤١) . وازداد بن العظم حنقاً على الامير ولا سيما بعد تنكيله ببني منكر وبني صعب اصحاب جبل عامل (١٧٤٣) تأييداً لسلطة صديقه سعد الدين باشا . وانتهز فرصة الحاق بعلبك بولاية الامير الشهابي (١٧٤٧) لاغراء الامير حيدر الحرفوش صاحب هذا الاقطاع بمحاربته . فقضى ابن شهاب على امنيته بكسره لهما في قبّ الياس شر كسرة وعهد الى اخيه الامير حسين في ولاية بعلبك . وابت الاقدار الا معاندة اسعد باشا العظم فضرب السلطان عنقه قبل أن يتاح له ان ينتقم من الامير ملحم . وخلفه في ولاية دمشق ابن عمه سليمان باشا العظم والي طرابلس . ثم خلت ولاية صيداء بموت سعد الدين باشا فخلفه عثمان باشا المحصّل واراد اذلال الامير الشهابي ففشل . أما سليمان باشا فسالم الامير ملحم وتودد اليه . فشد ازره في استئصال الانكشارية والقضاء على من نصرهم من بني تلحوق وعبد الملك (١٧٤٨) . على ان ولاء الامير لابن العظم لم يحل دون رجوع هذا الى القاعدة التي ألفها ولاة سورية في معاملة امراء لبنان ولا سيما بعد ان الحقت بيروت بولاية ابن شهاب ووفق الى قمع ثورة بني منكر وتعاظم شأنه . فكان ذلك باعثاً على تحرش سليمان باشا به والتحفز لمحاربته (١٧٥٠) .

وتلا ذلك خروج النكدية عن طاعة الاميرفكسر شوكتهم (١٧٥١) . غير انه لم يكد يطمئن على امارته حتى ألمّ بصحته انحراف شغله عن شؤون البلاد (١٧٥٤) . فاكرهه اعيانها على التخلي عن الولاية الى اخويه الاميرين احمد ومنصور . وصرف آخر سني حياته في بيروت حيث انقطع الى درس الفقه . وادركته منيته سنة ١٧٦١ وله ستة اولاد (١) . وكان حازماً مقداماً . ويذكر المؤرخون له من المآثر الجليلة ما رفعه الى مصاف اكبر امراء لبنان

اما السلطان عثمان الثالث (١٧٥٤ — ١٧٥٧) فلم يقع في عهده ما هو خليق بالاعتبار سوى ما اشتهر به من الخروج متنكراً لتفقد احوال رعيته بنفسه وهو ما يعدّ من مفاخر الخلفاء الاولين

وخلفه السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧—١٧٧٤) . فامتاز بميله الى الاصلاح . وتمَّ له بعض ما كان يمني النفس به منه على يد وزيره الحازم راغب باشا المصلح الشهير . غير ان موت هذا الوزير وحرب الدولة مع الروس حالا دون بلوغه الحد الاقصى من أمانيه . وقضت ثورة اليونان وخروج علي بك المصري عن طاعته على البقية الباقية من آماله . ومات والحرب على اشدّها بين الدولة وروسيا وخلفه عبد الحميد الاول (٢)

﴿ تنازع الشهابيين الولاية ﴾ اول ما يسترعي الابصار من الحوادث التي افتتح بها عهد هذين السلطانين في الديار الشامية فتنة نشبت في دمشق وكان لدروز لبنان شأن فيها اذ نصروا الانكشارية على القباقول وقاسى الوالي الشدائد في اعادة الامن الى نصابه (١٧٥٥ — ١٧٥٧) . وتخلل هذه الثورة انتقاض الامير قاسم عمر على

---

(١) كان للامير ملحم ستة اولاد . محمد ويوسف وقاسم وسيد احمد وافندي وحيدر . وكان الشيخ سعد الخوري صالح مدبراً لولايته . وعند دنو اجله أقامه وصياً عليهم فكان ذلك باعثاً على تعزيز مركز الشيخ سعد وارتفاع شأن بيته من بعده .

(٢) كان راغب باشا أول من فكر في انشاء خليج عظيم بين البوسفور ودجلة . فحال موته دون انشائه ومهد السبيل لتحرش كاترينا الثانية قيصرة روسيا الشهيرة بالدولة وشهرها الحرب عليها واستيلاء الروس على ولاياتها البلقانية واغراق أسطولهم للاسطول العثماني بعد ان اضرم النار فيه خدعة (١٧٧٠) . وتلا ذلك احتلال الروس لبلاد القرم وانتصار الجيش العثماني على نهر الدانوب (١٧٧٢) وخروج الامير علي المصري على الدولة باغراء الروس واكتساحه جنوب سورية بمعاونة ظاهر العمر والي عكاء الشهير وغير ذلك من النكبات التي نغصت عيش السلطان مصطفى الى النفس الاخير من حياته

125

عميه الاميرين احمد ومنصور الواليين الشهابيين وتآمره مع اخيهما الامير ملحم الوالي السابق على خلعهما واقتسام ولايتهما . وابحر الامير قاسم الى الاستانة في هذه المهمة (١٧٥٨) . ففشل اولاً واضطر الى مصالحة عميه . ثم ظفر بالولاية واستولى على بيروت فجأة . فتعرض له اعيان البلاد واعادوا الولاية الى صاحبيها فارضياه باقطاع عين دارا وازوجه احدهما الامير منصور بنته (١٧٦٢) . فاخلد الى السكون . وتوفي في غزير سنة ١٦٦٧ وولداه الاميران حسن وبشير « الكبير » في سن الطفولة

﴿ اليزبكية والجنبلاطية وولاية الامير يوسف ﴾ كان خروج الامير قاسم من ساحة النضال فاتحــة عهد النزاع بين الواليين الاخوين وانقسام اللبنانيين الى حزبين كبيرين : حزب اليزبكية وعميده الامير احمد . وحزب الجنبلاطية وعميده الامير منصور. ثم اتفق الحزبان على شد ازر الامير منصور ولا سيما بعد ان رجحت كفته على أثر تحيز محمد باشا العظم والي صيداء له . واضطر الامير احمد أن يتخلى لاخيه عن حقه في الولاية . فتركه وشأنه ولـكنه انتقم من صديقه الامير يوسف ابن الامير ملحم أخيه ومن محازبيه النكدية . فافضى ذلك الى تآمر الشيخ سعد الخوري والشيخ علي جنبلاط زعيم اليزبكية والشيخ كليب النكدي على خلع الامير منصور وتوليـة الامير يوسف مكانه . وأيدهم والي دمشق وابنــه والي طرابلس وقلداه ولاية جبيل (١٧٦٣) . وأحسن الامير يوسف سياسة البلاد وانجد والي دمشق في حصار قلعة سانور (١٧٦٤) فابلى بلاءً حسناً . ونازعه الحمادية اصحاب جبيل والبترون ولاية اقطاعاتهم فاستظهر عليهم في أميون على رغم مساعدة والي طرابلس لهم (١٧٦٦) . فتعاظم أمره وكثر انصاره . أما الامير منصور فحاول ايقاع الشقاق بين زعماء اليزبكية اضعافاً لشأنهم فخاب مسعاه وكادت ولاية الشوف تفضي الى الامير يوسف لولا أنه لم يبادر الى استرضائهم .

﴿ الامير علي المصري والشيخ ضاهر العمر ﴾ وفي خلال ذلك وقعت بين الشيخ ضاهر العمر والي عكاء وبين عثمان باشا الصادق والي دمشق نفرة افضت الى القتال . وانحاز الامير منصور شهاب الى جانب عثمان باشا فقوي ساعده . وكان ابن العمر يدرك مقاصد الامير علي المصري ومطامعه فاستماله اليه . ومده هذا بعشرة آلاف مقاتل بقيادة اسماعيل بك . فتقهقر عثمان باشا بجيشه الى المزيريب . غير أن القائد المصري أحجم عن مقاتلته حرمة للدولة . وكان علي بك المصري خبر كفاءة محمد بك ابي الذهب عند اكتساحه الحجاز بتحريض روسيا وطرده الشريف منها . فعهد اليه

في قيادة حملة جديدة سيرها على سورية . فحقق ظنه به واوقع بجيش عثمان باشا ودخل دمشق ظافراً (١٧٧٠) فانهزم الوالي الى حمص وتخلف الامير منصور عنه بتحريض ضاهر العمر . على أن اشفاق اسماعيل بك من تبعة الخروج على الدولة أدى بابي الذهب الى الجلاء بجيشه فجأة عن دمشق . فعاد عثمان باشا اليها وفي أثره الأمير يوسف شهاب الذي كان انحاز الى جانبه . فخلع عليه وسار الامير الى الشوف . فالتف الاعيان حوله واكرهوا الامير منصور على التخلي له عن الولاية . فدانت البلاد لسلطان الامير يوسف من طرابلس الى حدود صيداء . واستوطن خصمه هذا بيروت الى سنة ١٧٧٤ حيث وافته منيته وله اربعة اولاد : موسى ومراد وحمود وحيدر

﴿ مصير الامير علي المصري ﴾ أما ابو الذهب فحاول ان يلقي تبعة جلائه عن سورية على ضاهر العمر ففشل . وأراد الامير علي معاقبته على خيانته . فحاربه وظفر بمعاونة اسمعيل بك بسرير مصر . ففر الامير علي الى عكاء بعشرة آلاف من فرسان الغز . وفي اثناء ذلك انتهز عثمان باشا فرصة جلاء الجيش المصري عن سورية للانتقام من ضاهر العمر وزحف على عكاء بجيش عظيم ومعه ابنه درويش باشا والي صيداء والامير يوسف شهاب. فكسرهم ابن العمر على بحيرة الحولة كسرة عظيمة . ثم تولى دمشق عثمان باشا المصري فاقتفى أثر سلفه في مناجزة الشيخ ضاهر ومعاداته . وحاول بمعاونة الامير يوسف انتزاع ولاية صيداء منه فعجز دونها . وحال الاسطول الروسي دون سقوطها في يده واحتل رجال الاسطول مدينة بيروت ثم جلوا عنها بعد ان انزلوا الويلات باهلها وبمن كان ينزلها من الشهابيين (١٧٧١) . واستفز انتصار ابن العمر علي بك المصري للثأر من أبي الذهب وزحف بجيشه لاسترجاع امارة مصر منه . فالتقاه هذا عند غزة وكسره وأسره وهو مصاب بجرح بالغ فعالجه الى ان اوشك جرحه ان يبرأ فدس له السم فيه ومات (١٧٧٢)

﴿ ظهور الجزار ﴾ وفي خلال ذلك ظهر احمد الجزار في مصر وهو بشناقي الاصل . جاءها في ولاية الامير علي المصري وارتكب من الموبقات ما حمل الحكومة على تعقبه . ففر الى لبنان (١٧٧٠) وأقام في بيروت بامر الامير يوسف شهاب . واشترك في حصار صيداء فابلى فيه بلاء حسناً . وعهد اليه الامير في حماية بيروت من اغارات الروس بثلثمئة مقاتل من المغاربة . فانصرف الى تحصينها وحدثته نفسه بالاستقلال في ولايتها فجاهر بالعصيان على حين غفلة . فحصره الامير فيها وشدّ الاسطول

الروسي أزره حتى سدّا عليه منافذ النجاة واكرهاه على الجلاء عنها بشفاعة ضاهر العمر بعد ان ثبت على الحصار أربعة أشهر . واستعاد الامير يوسف ولايته عليها

﴿ مصير أبي الذهب ونكبة آل العمر ﴾ أما ضاهر العمر فعفا الباب العالي عنه وولاه على صيداء وعكاء وحيفا ويافا والرملة ونابلس وصفد (١٧٧٢) . فانقاد اليه أهل البلاد وتعاظمت سطوته . فهاج ذلك كوامن الحقد والحسد في صدر أبي الذهب أمير مصر . فاكتسح فلسطين بعد استئذان الباب العالي (١٧٧٤) . وفتح يافا عنوة وحاكمها يومئذ الشيخ كريم ابن ضاهر العمر. فاضطر هذا بازاء خذل الامير يوسف له ان يلوذ بالفرار. ونكب الفاتح المصري أهل البلاد وقتك برهبان دير ايليا النبي ودكه من أساسه . غير انه لم يهنأ بفتحه هذا فادركته منيته فجأة وهو يصرخ : « ردوا عني هذا الشيخ المفترس » . ويريد به ايليا النبي . وخيّل الى ضاهر العمر انه أمن بموت هذا الطاغية على حياته وسلطته . فخاب فأله اذ اتفق قائد الاسطول العثماني ومحمد باشا العظم والي القدس على محاصرته في عكاء . فجزع على مصيره وعمد الى الفرار ولا سيما بعد تخلي أعوانه عنه وخذل احمد الدنكزلي والي صيداء له فابتدره أحد المغاربة وهو خارج من المدينة برصاصة أودت بحياته . وسلمت عكاء لقائد الاسطول ففتك بابنه سعيد وأنعم السلطان على ابنيه عثمان واحمد بمنصبين في الدولة تعويضاً عن قتل أبيهما واخيهما . ونهب امير البحر ما كان في خزائن آل العمر من التحف النادرة والاموال الوفيرة بعد قتل ابراهيم الصباغ قيّم بيتهم

﴿ تعاظم شأن الامير يوسف ﴾ وفي أثناء ذلك كان الامير يوسف منصرفاً الى توطيد سلطته في لبنان فنكب الحمادية وطردهم من اقطاعاتهم (١٧٧١) . ثم انتقم من أنصارهم بني رعد أصحاب الضنية . وأراد عثمان باشا والي دمشق انتزاع البقاع من أخيه الامير سيد احمد فانبرى له الامير يوسف وكسره بمعاونة ضاهر العمر (١٧٧٣) ووطد مركز اخيه . فكان جزاؤه منه انه خرج عليه يريد الاستقلال بالولاية من دونه. واعتصم في قلعة قب الياس. وذكر عثمان باشا ما ناله من مذلة الانكسار بسببه فنصر الامير يوسف عليه واكرهاه هو وصديقه الامير منصور شهاب صاحب راشيا على التماس العفو صاغرين

أما السلطان عبدالحميد الاول (١٧٧٤ — ١٧٨٩) فجلس على العرش والقيصرة كاترينا العظيمة تحفز لاسترجاع ما اغتصبه سلفه من املاك روسيا . فحاربها وغلب

على امره واضطر أن يعترف لها بامتلاك بلاد القرم. ثم استؤنفت الحرب بينهما (١٧٨٨) وانحازت النمسا الى جانب روسيا ومات السلطان قبل أن تضع الحرب اوزارها [١]

﴿ ولاية الجزار ﴾ انما انتاب السلطان عبد الحميد الاول من البلايا والارزاء نال الديار الشامية منه أوفر نصيب . تقلد في مفتتح خلافته زمام ولاية صيداء أحمد باشا الجزار السفاح الشهير (١٧٧٦—١٨٠٤) وأمير لبنان يومئذ الامير يوسف شهاب ولم يكن قد انقضى الحول السادس على عصيانه له . فسعى الامير لعزله وتمكن بالمال من حمل حسن باشا المفوّض العثماني في سورية على رفع سلطته عنه واقراره في ولاية لبنان بالرغم مما قام في سبيله من العقبات أثر انتقاض اقاربه عليه وفي طليعتهم أخواه الامير سيد أحمد والامير افندي . غير أن الجزار غافل المفوض العثماني واستولى على بيروت . فاكرهه هذا على الجلاء عنها . وتعرض النكدية لجنده وهم عائدون منها الى صيداء فاشفق الامير يوسف أن ينتقم الجزار منه واسترضاه بمبلغ من المال . وحاول أن يجمعه من البلاد فعارضه اللمعيون وأفضت معارضتهم الى انتقام جنود الجزار منهم ونهبهم غلال اللبنانيين في البقاع استيفاء المال وانكسار اللمعيين وانصارهم في عدة معارك . وتلا ذلك تنازع الاميرين الاخوين منصور ومحمد الشهابيين ولاية راشيا واستجار اوفهما بمحمد باشا العظم والي دمشق فخذله واغتاله . ولم يفت الامير محمد ما كان يضمر الامير يوسف لاخيه هذا من الشر فغدر بابنيه موسى وأسعد فقتل الاول وسمل عيني الثاني وهو آمن على سلامته من الامير يوسف . ثم دهم والي طرابلس أخا الامير يوسف في أهدن فاستظهر هذا عليه وطارده الى اميون حيث استمّ الامير يوسف نقمته منه ووطد سلطته في هاتيك الديار

﴿ مصير آل العمر ﴾ وفي خلال ذلك كان الجزار يسعى لتوطيد دعائم سلطانه . وأوجس شراً من الشيخ علي بن ضاهر العمر ففتك بابنيه . ثم اغتال محمد باشا العظم الشيخ علي نفسه ليوهم الدولة انه لم يكن ممالئاً لابيه . وبقتل هذا الشيخ انحط شأن آل

---

(١) منيت الدولة العثمانية في عهد هذا السلطان بخسارة جسيمة اذ قهرتها روسيا في الحرب التي نشبت بينهما على اثر اقتسامها بولونيا مع النمسا وبروسيا (١٧٧٢) وانتزعت منها بلاد القرم . ثم تذرعت باعتراف السلطان لها بحق حماية الارثوذكس في سلطنته لاثارة خواطرهم عليه . وأردفت ذلك باعلان حمايتها على بلاد الكرج . فشهر السلطان الحرب عليها وشدت النمسا ازرها . ومات وهو قائم على محاربة الدولتين

127

العمر . وبلغت بهم الحطة والمذلة الى ان تلتمس أخت الشيخ علي وبنته الرزق بالتسول والاستعطاء . وكان نظير أبيه بطلاً كبيراً وفارساً مغواراً . ثم اكتسح الجزار بلاد بشاره وأعمل السيف في رقاب اصحابها بني علي الصغير وبني منكر وبني صعب ولجأ من سلم منهم الى عكار وبذلك دانت البلاد لسلطانه

﴿ الامير يوسف ومزاحموه ﴾ اما الامير يوسف فلم يأمن شرّ مزاحميه الى اجل بعيد . فانبرى اخواه سيد احمد وافندي لمنازعته الولاية (١٧٧٨) واضطر بازاء ما رآه من تعضيد اليزبكية والجنبلاطية لهما وسعي الجزار الى توسيع شقة الخلاف بينه وبينهما الى التنازل لهما عن الولاية والاكتفاء بولاية غزير . ثم ولاه محمد باشا العظم على البقاع واصحابها يومئذٍ الامراء اللمعيون فانتزعها منهم بمعاونة امراء حاصبيَّا ورشا الجزار بالمال فخلع عليه ونصره على اخويه فاخلدا الى السكون . ثم عادا فقلبا له ظهر المجن على اثر ارجاعه خصمهما الشيخ كليب النكدي من منفاه وتآمرا سرًّا مع النكدية والجنبلاطية على خلعه . ففضح الشيخ كليب أمرهم واطبق رجال الامير يوسف فجأة على المتامرين وقبضوا على الامير افندي وساقوه الى دار الحكم فقتله اخوه بيده . وفرّ الامير سيد احمد الى المختاره فاجتمع عليه آل جنبلاط وآل عماد وانصارهم . واستجار الامير يوسف بالجزار فمدّه بجيش كبير وانضوى تحت رايته اخواه الاميران حسن وقاسم وآل تلحوق وعبد الملك ودارت رحى الحرب في عانوت فاحرز الامير يوسف نصراً مبيناً وشدّ محمد باشا العظم ازر العاصي فاستولى على وادي التيم . غير ان الامير يوسف حمل عليهما حملة صادقة وكال لاخيه في معركة المغيثة الشهيرة ضربة شديدة كان لها صدى عظيم في البلاد السورية

﴿ مظالم الجزار ودسائسه ﴾ لما رأى الجزار ان سياسة التفريق التي جرى عليها في معاملة الامير يوسف واخويه انالته مآربه منهم عمد الى اخلافه مع خاله الامير اسماعيل . فالحق بولايته مرج عيون وهي في عهدة خاله هذا . فشق ذلك عليه واستمال الجزار بالمال بتحريض الشيخ قاسم جنبلاط فعهد اليه في ولاية لبنان . ولما كان هذا الامير من وادي التيم والعادة ألا يتولى امارة لبنان من كان غريباً عنه اشرك معه في الولاية ابن اخته الامير سيد احمد ومدَّهما بعساكره لطرد الامير يوسف من البلاد . فالتقاها الشيخ سعد الخوري بجيش الامير يوسف عند جزين وكسرهما . وغزا بنو علي الصغير بلاد بشاره شدًّا لازر الامير يوسف وطردوا عمال الجزار منها .

فعظم الامر على الجزار ومدّ الواليين الجديدين بجيش ضخم فاكتسحا البلاد وطاردا عدوّهما الى بسكنتا . فاوغل في الفرار الى بلاد عكار وبعث فاسترضى الجزار بمبلغ طائل من المال لخلع عليه ومدّه بعساكره . فانقضّ الامير على دير القمر فجأة وقبض على خاله الامير اسماعيل وزجه في السجن حيث قضى نحبه (١٧٨٩) . ثم اغتال خاله الثاني الامير بشير نجم وسمل عيني اخيه الامير سيد احمد (١٧٨٧) ونكب انصارهم ولا سيما الجنبلاطية نكبة عظيمة واستعاد هيبته وسطوته . فاشفق الجزار ان ينتهز فرصة تغيبه في دمشق حيث كان قد عُهد اليه في ولايتها ليقلب له ظهر المجن . فعمد الى تقليم اظافره احتياطاً للطوارئ واوعز الى نائبه في عكاء بالفتك ببني علي الصغير فصدع بالامر . وكان ذلك ضربة شديدة على الامير لان هؤلاء المشايخ كانوا من خيرة انصاره . وجاء موت مدبره الشيخ سعد الخوري اثر مرض اعتراه وهو معتقل في قلعة دمشق (١٧٨٦) ضربة عظيمة اشد من الاولى . وحدث ان المماليك ثاروا على الجزار وحصروه في عكاء وشد الامير يوسف ازرهم فحنق الجزار عليه وحرّض الامير علي الشهابي على الثأر لابيه الامير اسماعيل منه ومدّه بكتيبة من جنده . فحشد الامير يوسف جيشه بقيادة الامير بشير قاسم الشهابي «الكبير» والشيخ قاسم جنبلاط ومعهما زعماء المماليك واحرز في الحرب التي دارت رحاها بينه وبين عدوّه في البقاع نصراً عظيماً . ثم استأنف الامير علي القتال بجيش جديد مدّه به الجزار فعقد النصر لالويته . ونكث الجنبلاطية عهد الامير يوسف واخذوا يدسون له الدسائس . فسئمت نفسه النزاع وصحت عزيمته على اعتزال الحكم

﴿ ولاية الامير بشير الشهابي الكبير ﴾ تخلى الامير يوسف عن الولاية وليس بين الامراء من هو أصلح لها من الامير بشير قاسم . وكان اهل البلاد يحبونه ويتوسمون فيه الخير والجزار معجب ببسالته وجرأته . فقلده زمام الولاية على الشوف وكسروان وهو يرجو أن يكون اكثر انقياداً له من سلفه . واوعز اليه بطرد الامير يوسف من البلاد — والعهد قريب بتخلي سلفه هذا له عن الولاية بمحض اختياره وليس بينهما مايقضي عليه بالاساءة اليه — فطارده مكرهاً الى الحفد وهو يتفادى من الحاق الاذى به . ثم ارغمه الجزار على التشديد في مطاردته وانجده بفرقة من جيشه . فكان ذلك فاتحة العداء بين الاميرين . وشد الحمادية ومشايخ جبة بشري ازر الامير يوسف فاستظهر على خصمه . ثم حمل عليه الامير بشير حملة صادقة ودحره

128

فانهزم الى اهدن . وتألبت عليه عساكر الجزار من كل صوب . فامعن في الفرار الى بعلبك وتصدى له صاحبها الامير جهجاه الحرفوش فطرده منها . واتفق واليا دمشق وطرابلس على تقليده ولاية جبيل (١٧٨٩) . فحال تعرض الجزار والامير بشير له دون توطيد سلطته فيها واضطر ان يفر الى حوران

أما السلطان سليم الثالث فتبوأ العرش (١٧٨٩ — ١٨٠٧) والحرب ناشبة بين الدولة وعدوتيها روسيا والنمسا . فحاول تنظيم الجيش وبث روح النخوة فيه . ففشل واكتسحت الجيوش الروسية والنمساوية املاك الدولة في البلقان واكرهتها على توقيع عهدتي صلح (١٧٩١ و١٧٩٢) مجحفتين في مجمل شروطهما بحقوقها . وفي عهد هذا السلطان استولى نابوليون بونابرت على مصر (١٧٩٨) واكتسح فلسطين (١٧٩٩) . الا انه عجز عن فتح عكاء لتفشي الطاعون في عسكره فعاد الى مصر (١٨٠٠) . وفي السنة التالية جلت عساكره عن وادي النيل [1]. وكان السلطان

---

(١) حمل نابوليون على مصر وحجته الظاهرة القضاء على سلطة المماليك وغرضه الحقيقي أن يتسلط على ارض الفراعنة لاستخراج كنوزها الطبيعية والاثرية واتخاذها قاعدة لاعماله الحربية في الشرق الادنى . وقد جاءت اعمال البعثة العلمية التي استصحبها الى مصر ممهدة للعلماء الذين نسجوا على منوالها فيما بعد سبيل النهوض بهذه البلاد وتحطيم قيودها والسير بها في مضمار الرقي الادبي والمادي شوطاً بعيداً لا نظير له في تاريخ الشرق . اما الفتح الحربي فكان دون هذا الفتح الادبي العظيم فائدة وشأناً . ذلك ان نابوليون حمل على مصر واوربا على وشك النهوض لتمزيق البرقع الكثيف الذي حجب به نور الشمس عن بصرها . فلم يكد يقضي على سطوة المماليك في معركة الاهرام الشهيرة التي خاطب فيها جيشه بكلمته المأثورة : « من أعلى هذه الاهرام اربعون قرناً تشهد فعالكم » حتى انبرت له انكلترا وسحقت اسطوله في معركة ابي قير واقتفت اثرها روسيا واتفقتا مع الدولة العثمانية على محاربته وحالت اساطيلهن دون اتصاله بفرنسا . وحشدت الدولة جيوشها في دمشق تحفزاً للزحف على مصر . فرأى البطل الكورسكي أن يعاجلها بضربة قاضية قبل أن تستكمل عدتها . وزحف على سوريا بقسم من جيشه فاكتسح فلسطين وقهر الجنرال كليبر جيش دمشق عند جبل طابور . الا أنه تعذر على نابوليون فتح عكاء لتألب الاعداء عليه من كل صوب ولاسيما ان الطاعون تفشى في جيشه فقفل راجعاً الى القاهرة . وكان الجيش العثماني وصل اليها بطريق رودس فقهره واسر قائده ثم اضطر ان يعود الى فرنسا فعهد في قيادة جيش مصر الى الجنرال كليبر وقد هلك نصفه بالاوبئة والحروب . فاستأنف هذا الحرب وبطش بالجيش العثماني وقهر المماليك فدانت البلاد له . غير ان صعلوكاً يسمى سليمان الحلبي اغتاله فتطرق الضعف الى الجيش الفرنساوي وفقد قوته المعنوية فسلم قائده بعد ان منيا بخسارة جسيمة في ما تلا ذلك من المعارك التي خاضا غمارها ضد

شديد الاعجاب بنابليون ولذلك لما انتخب هذا القائد العظيم رئيساً للجمهورية الفرنساوية لم يتردد السلطان في توقيع عهدة الصلح التي ابرمها معه (١٨٠١) وقضت بتوسيع امتيازات فرنسا في السلطنة العثمانيـة وانقلبت عداوتهما الى صداقة وثيقة العرى . فغضبت روسيا وانكلترا لذلك وشهرتا الحرب على الدولة واقتحم الاسطول الانكليزي مضيق الدردنيل فاضطره الجنرال سبستياني مندوب نابوليون لدى السلطان بما بذله من الجهد في تحصين الاستانة الى رفع الحصار عنهـا والخروج الى البحر المتوسط (١٨٠٧) وابحر الى الاسكندرية فاحتلها وعجز دون رشيد لوقوف محمد علي باشا في وجهه [1] . وانصرف السلطان الى اصلاح شؤون الدولة لاقالتها من عثرتها . وعني خاصة بالجندية فوضع لهـا نظاماً مماثلاً للانظمة الاوربية توطئة لالغاء وجاقات الانكشارية . فعارضـه هؤلاء واضرموا نار الفتن في السلطنة (١٨٠٥) وخلعوه بفتوى من شيخ الاسلام موقظ هذه الفتن (١٨٠٧) جاء فيها « ان السلطان الذي يجري على انظمة الافرنج وعاداتهم لا يصلح للملك » ونودي بالسلطان مصطفى الرابع

﴿ خاتمة حياة الامير يوسف ﴾ كانت سورية في عهد السلطان سليم مرسحاً للفتن والحروب واهلها يتفانون ويتطاحنون في تأييد الحكام وخذلانهم . وكانت فاتحة ملكه شؤماً على الامير يوسف حيث ظفر فيها برضى الجزار (١٧٨٩) . فكان ما علقه على ذلك من الرجاء بالفوز سراباً لامعاً . ذلك انه انتهز فرصة انصراف الامير بشير الى شؤون الحرافشة اصحاب بعلبك لانتزاع الولاية منه (١٧٩٠). فاحبط هذا مسعاه ورشا الجزار بالمـال فاقره في ولاية لبنان وزج الامير يوسف في السجن . وجار الامير بشير على انصاره فتآمر اعيان المتن على خلعه ونادوا بالامير حيدر بن ملحم شهاب وابن أخيه الامير قعدان وانبروا لقتاله . فكسرهم ووشى بالامير يوسف

الجيشين الانكليزي والعثماني . وابحر القائدان الفرنسويان ببقية الجيش على الاسطول الانكليزي الى فرنسا واستعادت الدولة ولايتها على مصر (١٨٠١)

(١) نشأ محمد علي في مدينـة قوله بمقدونيا وتطوع في الجيش العثماني الذي حارب نابوليون في مصر وابلى في معركة ابي قير بلاء حسناً فتعاظم أمره وقهر الانكشارية في القاهرة وقضى على سطوة خسرو باشا في دمياط (١٨٠٤) ثم قهر البرديسي واحمد بك الالفي وهم أكبر أقطاب المماليك فافضت الولاية اليه واقره الباب العالي فيها (١٨٠٥) ثم حاول نقله الى سلانيك باغراء الانكليز فعارضه علماء مصر . واجهز محمد علي على بقية المماليك في حادثة القلعة الشهيرة (١٨١١) وقرضهم فامن شر مزاحيه ومعارضيه ودانت البلاد لسلطانه

١٢٩

الى الجزار بانه موقد نار هذه الثورة . وكان الجزار في طريق الحج فامر نائبه في عكاء بشنق الامير يوسف ومدبره الشيخ غندور الخوري . ثم بعث ينهاه عن شنقهما فتجاهل نهيه باشارة ابن السكروج ونفـذ فيهما الامر . وقد حكم الامير يوسف ٢٧ سنة صرفها في مقارعة الخطوب ومعالجة عبر الدهر وعظاته . ومع انه احرز من السطوة وعظم الشان شأو الامراء العظام فانه لم يبلغ شأو سعيدي الطالع منهم . وكان مسيحياً كما يؤخذ من المكاتبات التي دارت بينه وبين البابا بيوس السادس في شأن البطريرك يوسف اسطفان

﴿ الامير بشير وابناء الامير يوسف ﴾ واثار قتل الامير يوسف سخط المتنيين على الامير بشير فازدادوا هياجاً . وغضب الجزار على ابن السكروج وشنقه . فاشفق الامير بشير ان يلحقه به وتظاهر بالحزن على ضحيته . فجازت حيلته على الجزار ونصره على الثوار . ونشبت بينه وبينهم في صحراء الشويفات معركة شديدة اسفرت عن اندحارهم ولكنهم ثبتوا على مقاومته ومحاربته الى السنة التالية (١٧٩١) . كل ذلك وزمام الحكم في يد الامير حيدر والامير قعدان والثوار يؤيدونهما . وشعر الجزار بعجزه عن اكراه اللبنانيين على الانقياد الى الامير بشير فاخرجه مع اخيه الامير حسن من لبنان واقر الاميرين الواليين في منصبهما ارضاء لاعيان البلاد . فعظم شأنهما وتخلى لهما خليل باشا العظم حاكم طرابلس عن ولاية جبيل . ثم عهد فيها الى ابناء الامير يوسف (١٧٩٢) فاحسنوا سياستها واستمال مدبرهم جرجس باز بحذقه وحكمته اعيان البلاد اليهم فعظم شأنهم . وفي اثناء ذلك كان نفوذ الاميرين الواليين آخذاً في التقلص فتنازلا لهم بموافقة الجزار عن الولاية لئلا تفضي الى الامير بشير عدوها الالد (١٧٩٣) . فنقم الامير عليهم واضرم محازبوه وعلى الاخص اللمعيون والجنبلاطية نار الثورة في المتن والشوف فقمعها ابنـاء الامير يوسف بمعاونة عساكر الجزار ونـفي الامير بشير الى الناصرة . ثم لمّ انصاره شعثهم واستجمعوا قواتهم فتهيبهم الجزار واعاده الى الولاية ومده بكتيبة من الجند فطرد ابناء الامير يوسف من الشوف وبطش بانصارهم في شر العبادية فدانت البلاد لسلطانه . ثم عاد الجزار فاعتقله في عكاء وخلع على اعدائه الامراء (١٧٩٤) فانزلوا بانصاره الويلات وصبوا جام نقمتهم على الجنبلاطية والعمادية فنادى هؤلاء بالثورة وشد ازرهم الامير عباس شهاب ولكنهم فشلوا واستتم الجزار والامراء نقمتهم منهم . ثم قوي حزب الامير بشير

فافرج الجزار عنه وخلع عليه لقاء مبلغ كبير من المال ومده بفرقة من جنده (١٧٩٥) فزحف على لبنان ودارت رحى الحرب في قب الياس فاستظهر على ابناء الامير يوسف وطاردهم اخوه الامير حسن الى بلاد عكار فتصدى له والي طرابلس وولى أحدهم الامير سليم على جبيل فقاتله الامير حسن في عمشيت واستظهر عليه (١٧٩٦) وهزم



الامير بشير الشهابي

عساكر طرابلس . وحاول هؤلاء الامراء الثبات للامير بشير بالنجدة الكبيرة التي مدهم بها عبد الله باشا العظم والي دمشق اجابة لطلب ابنه والي طرابلس فاخفقوا وكسرهم الامير في قب الياس شر كسرة وهزمهم الى دمشق ونكب انصارهم النكدية بعد ان اغتال كبارهم . ثم استرضوا الجزار فاطلق لهم الامان . وفي اثناء ذلك استولى نابوليون على مصر وبلغ الجزار ان الامير بشير مهد له السبيل لفتح سورية فانتزع الولاية منه (١٧٩٨) وعهد فيها الى اعدائه الامراء . ثم تنصّل الامير من التهمة فاعاد الحكم اليه ولكنه ظل في ريب من امره

﴿ الامير بشير ونابوليون ﴾ لما اكتسح نابوليون بونابرت فلسطين وحصر عكاء (١٧٩٩) وقف الامير بشير متردداً بين الانحياز اليه او الى الجزار . وعاتب نابوليون امير لبنان على اعراضه عنه . فجاء هذا العتاب مؤيداً لحجته لدى الجزار في عدم ممالئته لقائد الفرنسيس . ووقع ذلك من نفس الاميرال سميث قائد الاسطول

الانكليزي أحسن وقع فعاهد الامير على كف أذى الجزار عنه . غير أن الجزار أصر على إسناد الولاية الى اولاد الامير يوسف فحال وصول الصدر الاعظم بجيشهِ الى دمشق دون بغيته اذ استماله الامير بشير بالهدايا النفيسة فانعم عليه بولاية لبنان لمدى العمر وألحق بها وادي التيم وبلاد بعلبك وبلاد بشاره وأطلق يده في شؤونها كما كانت الحال في عهد المعنيين . ولكن الجزار لم يعبأ بامر الصدر الاعظم وحاول بمعاونة اليزبكية وأنصارهم كسر شوكة الامير . فتصدى له عبد الله باشا العظم ونصر الامير عليه . فغضب لفشله هذا وخلع على ابناء الامير يوسف وعزز جيشهم بعشرة آلاف مقاتل . فيئس الامير بشير من النجاح ولاسيما انه استنجد اللمعيين وغيرهم من أعيان البلاد فخذلوهُ ولاذ بالفرار واستتب الامر لاعدائه . ثم أقبل على غزة برفقة صديقه الاميرال سميث والصدر الاعظم فيها فرحب الصدر به وعرض عليه أن يمده بقسم من جيشهِ لاسترجاع ولايته والانتقام من الجزار فابى حذراً من الفشل وابحر الى قبرص ثم الى مصر وهو يرجو أن يعود الى سورية في معية الصدر الاعظم فخاب رجاؤه لان الجنرال كليبر كان قد كسر الصدر الاعظم كسرة عظيمة وتقهقر هذا بفلول جيشهِ الى يافا . فعاد الامير على الاسطول الانكليزي الى لبنان واعتصم بحصن عكار

وحدث في ذلك الحين ان ابناء الامير يوسف جاروا على اللبنانيين وأثقلوا كواهلهم بالضرائب اشباعاً لمطامع الجزار فثار المتنيون عليهم ونادوا بالامير بشير وتأهب الامراء وانصارهم للقتال فوفق أعيان البلاد بين الفريقين على ان يتولى ابناء الامير يوسف بلاد جبيل والامير بشير بقية البلاد . غير ان هذا الصلح جاء مبتسراً بازاء دسائس الجزار ومعارضة جرجس باز فاقره سيف الامير بشير في معركة الشويفات حيث قضى على جيشهما واكره الجزار على الاذعان لمشيئة اللبنانيين صاغراً . وكان ذلك خاتمة حوادث القرن الثامن عشر في الديار السورية

سورية في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين

دخل القرن التاسع عشر وسورة الاضطراب في سورية على أشدها . واظهر عوامل التفريق المبيدة القارضة التي تجلت فيها انما بدت باتم مظاهرها في لبنان حيث كان الانقسام قد فعل في الشعب اللبناني فعل النار في الهشيم . فكان فرقاً واحزاباً لا رابط لها ولا صلة بين اجزائها المتعددة المتنابذة الاصلة المنفعة الذاتية التي تضيع في جنبها المصلحة المشتركة وتكون عرضة للتفكك والتلاشي لاول حادث يطرأ عليها . كل ذلك والسلطة في الجبل لمن كان من امرائه اوفر ثروة واقوى شكيمة من سواه فيستهوي رجال الدولة بماله فيركنون اليه ويتزاحمون على خطب مودته أو يرهبهم بسطوته فيتجنبون اغضابه حتى اذا ما انسوا منه غفلة بطشوا به وظفروا ببغيتهم منه

﴿ انقضاء ولاية الجزار ومصير ابناء الامير يوسف وبني باز ﴾ ذلك كان شأن السوريين واللبنانيين مع من عهدت الدولة اليه من رجالها في سياسة بلادهم وصيانة ارواحهم وارزاقهم وهو ما نجد له في تاريخ لبنان وسورية من الامثلة الحية المحسوسة ما لا يقع تحت حصر ولاسيما في عهد الجزار السفاح الشهير

تذرع الجزار بانقسام كلمة اللبنانيين وتعدد احزابهم في مفتتح هذا القرن لقضاء لباناته منهم . وقد تقدم لنا انه كان ناقماً على الامير بشير يتحين الفرص للايقاع به . وكان الامير عباس شهاب طامعاً في الولاية والمشايخ العمادية يؤيدونه . وقام من جهة اخرى الامير سلمان سيد احمد يلتمسها لنفسه ومن ورائه الشيخ بشير جنبلاط . فجاء خذل الشهابيين وانصارهم لعميدهم الاكبر على هذا النحو ممهداً للجزار سبيل الانتقام منه . فأيد الامير عباس وزحف هذا على دير القمر فانبرى له الامير بشير ومعه ابناء الامير يوسف والامير سلمان وهزموه الى المتن (١٨٠٢) وانحاز النميون وآل تلحوق الى الامير بشير فاستكتبهم على يد الشيخ بشير جنبلاط وثيقة بانهم لا يقبلون سواه اميراً عليهم . فاضطر الجزار أن يعيده الى الولاية بعد ان اوعز اليه بهدم جونيه . وكان ذلك آخر العهد بحكم الجزار فقضى نحبه سنة ١٨٠٤ . واغتصب ولاية عكاء اسماعيل باشا فلم يعترف الامير بشير به . ووقع ذلك وقعاً حسناً لدى الباب العالي فالحق بولايته دمشق وصيدا وطرابلس وولى على عكاء ابراهيم باشا ففتحها بمعاونة الامير وفتك باسماعيل باشا . وأعجب هذا الوالي بما أبداه جرجس باز في

حصار هذا الحصن المنيع من آيات البسالة والدهاء فقربه منه . وهاج ذلك سخط الامير بشير على ابن باز ولا سيما انه كان يحفظ الغلّ له ولاخيه عبد الاحد لما أتياه من الاعمال المنافية لمصلحته تأييداً لابناء الامير يوسف فعقد العزيمة على التخلص منهما وقد ظفر ببغيته فاغتالهما على يد اليزبكية وقبض على الاميرين حسين وسعد الدين ابني الامير يوسف وسمل عيونهما (١٨٠٧)

نودي بالسلطان مصطفى الرابع (١٨٠٧ — ١٨٠٨) وسطوة الانكشارية آخذة في الازدياد وسرت روح الثورة في الجيش وهو قائم على محاربة الروس فاختل نظامه وكاد الروس يقهرونه لو لم يغلبوا على أمرهم أزاء حملات نابوليون الصادقة في بلاد البلدان ويضطرهم الظافر الى مصالحته على شروط في مصلحة الترك (١٨٠٧) . على أن ذلك لم يحل دون تمادي الثوار في طغيانهم ففتك السلطان بسلفه السلطان سليم وطرح لهم جثته فازدادوا هياجاً وخلعوه ونودي بالسلطان محمود الثاني

طالت خلافة السلطان محمود (١٨٠٨ — ١٨٣٩) الا انها كانت حافلة بالقلاقل والحروب . عهد في الصدارة الى البيرقدار أحد زعماء الثوار وهو يرجو ان يتمكن بواسطته من تنظيم وجاقات الانكشارية فعارضوه . وأراد ارهابهم بقتله السلطان مصطفى والقاء جثته اليهم ففشل واكرهوه على الاذعان لمشيئتهم . ثم انصرف الى تأمين السلطنة من الخارج فصالح الانكليز(١٨٠٩) . اما الروس فابوا الصلح وظلت الحرب سجالاً بينه وبينهم الى سنة ١٨١٢ اذ صالحوه على شروط في مصلحته . غير ان هذا الصلح افقده صداقة نابوليون لان الروس تفرغوا لمحاربته وارغموه على الجلاء عن بلادهم بعد أن هلك معظم جيشه . ثم ثار السربيون على الدولة فقهرتهم (١٨١٧) وتلا ذلك ظهور الوهابيين في بلاد العرب فقهرهم محمد علي والي مصر وردهم الى طاعة الدولة على يد ابنيه طوسن باشا وابراهيم باشا (١٨١١ — ١٨١٩) ثم قام اليونان بثورتهم الشهيرة (١٨٢٢) التي افضت الى استقلالهم (١٨٣٠) بعد حروب هائلة أشترك فيها محمد علي في جانب الدولة وفرنسا وروسيا وانكلترا في جانب اليونان . ثم احتلت فرنسا جزائر الغرب . واستولى محمد علي على سورية والاناضول (١٨٣١—١٨٣٣) . ومات السلطان محمود والازمة السياسية التي نشأت عن المسألة المصرية على أشدّها وخلفه السلطان عبد المجيد (١)

---

(١) كان الصلح الذي ابرمه السلطان محمود مع الروس وبالاً على الدولة لانه مهد للروس

وقد توالت في عهد السلطان محمود على البلاد العثمانية محن شديدة تضاءل دونها ما منيت به في عهد سلفائه من الخطوب المدلهمة . فتك الامير بشير بابني باز ونكب ابناء الامير يوسف . فاطمأن على سلامته وسلطانه الى حين اذ عهد اليه سليمان باشا والي صيداء بولايتي الشوف وكسروان على مدى الحياة (١٨٠٩). ثم نقل هذا الوالي الى دمشق فانتهز فرصة انصراف وزيرها يوسف باشا الكنج الى محاربة الوهابيين في حوران لانتزاع الحكم منه . وقد ظفر بمراده بمعاونة الامير بشير فصادقه وآخاه وولى ابنه الامير قاسم على جبيل وابنه الثاني الامير خليل على البقاع . ونصر الامير دروز جبل الشيخ على أعدائهم فانقادوا اليه وتهيبه أهل البلاد

﴿ عامية انطلياس ﴾ وفي سنة ١٨١٩ مات سليمان باشا وبموته انقضى عهد الراحة النسبية التي تمتع بها الشعب السوري في الفترة القصيرة التي عقبت موت الجزار اذ تولى زمام الحكم في صيداء عبد الله باشا الخازندار وتحرش بالامير بشير فاسترضاه هذا بمليون قرش . واراد الاميران يجمع المبلغ من البلاد فعارضه اللبنانيون في المتن وكسروان . وآنسوا من المطران يوسف اسطفان ميلاً الى تعضيدهم فازدادوا هياجاً وعقدوا في انطلياس برئاسة الشيخ فضل الخازن اجتماعاً عظيماً قرروا فيه عدم دفع الضرائب مرتين . واكرهوا الخازندار على مجاراتهم وخلع الامير بشير وتولية

سبيل الانتصار على نابوليون فتخلى هذا القائد العظيم عنها في حروبها ضد السربيين (١٨١٢ — ١٨١٧) ومنيت بخسائر فادحة اقعدتها عن كسر شوكة الوهابيين بنفسها يوم انتقضوا عليها واستولوا على المدينة ومكة ودانت لهم البلاد العربية فاضطرت ان تلجأ الى سيف محمد علي لاخضاعهم وهي غافلة عما كان يمني النفس به من التوسع في الملك حتى خرج عليها وأوغلت جيوشه في بلادها وكسرتها في معركة نصيبين تلك الكسرة العظيمة التي تصدعت لها اركان العرش العثماني . ووقفت فرنسا في المسألة المصرية في جانب محمد علي وقفة كادت تفضي الى حرب اوربية عظيمة وتقضي على استقلال الدولة العثمانية لولا تصدي انكلترا لها وابرامها مع روسيا وبروسيا والنمسا معاهدة سنة ١٨٤٠ التي ضمنت سلامة الدولة . واعراض هذا السلطان عن فرنسا كان له نتيجة اخرى سيئة بدت على اتمها في حرب اليونان حيث غلبت الدولة على امرها واطبقت روسيا على ولاياتها البلقانية . ولولا توسط اوربا وارغامها السلطان على الاعتراف باستقلال اليونان والفلاخ والبغدان وبحق المرور لسفن روسيا في مضيق الاستانة لاستولى الروس على عاصمة السلطنة (١٨٢٩) . على ان قضاء السلطان محمود على سطوة الانكشارية وافنائه لهم على بكرة ابيهم اثر معارضتهم له في تنظيم الجيش (١٨٢٦) وانقاذه السلطنة من شرهم انما هو مأثرة جليلة من المآثر الغراء التي عجز اسلافه دونها

132

الاميرين حسن علي وسلمان سيد احمد الشهابيين بعد ان تظاهرا بالاسلام . فانصرف الواليان الجديدان الى مطاردة الامير بشير وأرغماه على الفرار الى حوران مع من انحاز اليه من اللمعيين واستتب لهما الامر . غير انهما جارا على اهل البلاد فقلبوا لهما ظهر المجن واكرهوهما على التخلي لخصمهما عن الولاية . واضطر الخازندار الى الاذعان لهم

﴿ عامية لحفد ﴾ على ان اتفاق كلمة اللبنانيين على طاعة الامير بشير لم يثن الاميرين العاصيين عن عزمهما . فتذرعا بما فرض على البلاد من الضرائب الاضافية لاهاجة الخواطر عليه ولا سيما في بلاد جبيل حيث حشد معارضوه جماً غفيراً من أنصارهم في قرية لحفد ونادوا بالثورة . فزحف بجيشه عليها كالسيل الجارف . الا انه اضطر بازاء ما شاهده من تكاثر عددهم وتكاتفهم ان يخفف من وطأته عليهم . فطمعوا بحلمه وناوشوه في غرفين . فحمل عليهم حملة صادقة وهزمهم . وتعرض الاميران العاصيان بشوار المتن والقاطع للشيخ بشير جنبلاط في طريقه الى جبيل حيث كان الامير بشير ينتظره فاستظهر عليهما . وخذلهما الخوازنة وأعيان جبة بشرى فلاذا بالفرار . ودخل أعيان البلاد في طاعة الامير بشير فعفا عنهم بعد ان تقاضى منهم جزية باهظة توسل بها لاستمالة الخازندار واكتساب مودته

﴿ درويش باشا والامير بشير ﴾ لم يكد الامير بشير يفرغ من قمع ثورة اللبنانيين حتى وقع بينه وبين درويش باشا والي دمشق خلاف أفضى الى امتشاق الحسام . فتراوحت كفة النصر بين الجانبين على رغم انحياز عبد الله باشا والي صيداء الى جانب الامير وحسن بلاء ابنه الامير خليل . ثم شد ابنه هذا على جيش دمشق وقهره . فعظم الامر على درويش باشا وأعاد الكرة عليه ففشل . وكال الامير له ولحلفائه الامراء منصور وفارس وسلمان سيد احمد الشهابيين ضربة أشدّ من الاولى . وطرب عبد الله باشا لهذا النصر المبين فنفح الامير بخلعة نفيسة وسيف مرصع بالجواهر الكريمة . ثم حاول درويش باشا استمالة الامير بشير فخذله الامير وقاتله في معركة المزّة الشهيرة ومزق جيشه تمزيقاً ولاذ الامراء بالفرار . فشق على الباب العالي انكسار جيشه وولى درويش باشا على صيداء ومدّه بنجدة عظيمة بقيادة والي حلب . فاشتد ساعده واضطر الامير بشير ان يتخلى عن الحكم ويغادر البلاد الى مصر ومعه ابناه الامير خليل والامير امين . فعهد الوزيران في ولاية لبنان الى الامير عباس شهاب . ثم زحفا لفتح عكاء وطرد الخازندار منها (١٨٢٢)

﴿ الامير بشير ومحمد علي باشا ﴾ وصل الامير بشير الى مصر ومحمد علي يرقب الفرص لفتح سورية . وادرك بثاقب بصيرته أن بطلاً عظيماً نظير الامير بشير يبلغه المراد ان هو ظفر بعودته . فرحب به اعظم ترحيب ودعاه الى تعضيده في ما كان في النفس به من الفتح والاستعمار . فصادفت دعوته هذه هوى من نفس الامير وبعث يسأل عبد الله باشا الثبات على الحصار ريثما يصل اليه بالجيش المصري . وفي اثناء ذلك عفا الباب العالي عن الامير وعن صديقه عبد الله باشا اجابة لملتمس محمد علي . فركب الامير الى عكاء ومعه سلحدار من لدن عزيز مصر يحمل الى مصطفى باشا فرمان الدولة بالعفو عن الخازندار وكتاباً من محمد علي برفع الحصار عن المدينة . فاذعن الوزير وانصرف . واستأنف الامير بشير سيره الى لبنان ودخل بتدين ظافراً

﴿ حركة المختارة ﴾ وفي اثناء تغيب الامير بشير عن لبنان توثقت عرى المودة بين صديقه الشيخ بشير جنبلاط وبين مزاحمه الامير عباس . فنقم على ابن جنبلاط لخيانته عهده . وتآمر هذا مع الامراء اللمعيين وفريق من الشهابيين على خلعه . وحاول أن يستميل عبد الله باشا الى الامير عباس فخذله واضطر الشيخ بشير أن يفر بمحازبيه الى ايالة دمشق فحوران . ثم اشتد ساعده بمن انضم اليه من آل ارسلان ونكد والعماد وغيرهم . فجمعوا قواتهم في المختارة واطبقوا بها على بتدين . واراد الامير بشير اخذهم باللين فاصروا على المقاومة وانقض عليهم بنخبة رجاله الاشاوس وكسرهم . غير انهم ثبتوا له واعاد الكرة عليهم ولقي من اقبال وزيري دمشق وصيداء والاميرين شديد مراد وحيدر اسمعيل اللمعيين على تعضيده ما شدد عزيمته فاستظهر على العصاة ولاذوا بالفرار فتعقبهم ابنه الامير خليل ووقع فريق منهم في كمين نصبه لهم قائد جيش دمشق فقبض عليهم وبينهم الشيخ بشير جنبلاط والشيخ امين العماد فشنقهما عبدالله باشا في صيداء . وانتقم الامير بشير من الامير عباس ونسيبيه الاميرين الاخوين فارس وسلمان سيد احمد فسمل اعينهم وقطع رؤوس ألسنتهم

﴿ غزوة اليونان لبيروت وثورة النابلسيين ﴾ وفي خلال هذه الفترة كانت حرب الاستقلال في بلاد اليونان على أشدها وغزا الاسطول اليوناني بيروت (١٨٢٦) فصده اهلها المسلمون عنها . واتهم النصارى بالاتفاق مع الاروام على هذه الغزوة واراد عبد الله باشا معاقبتهم فحال توسط الامير بشير دون ذلك . وعقب هذه الغزوة انتقاض النابلسيين على عبد الله باشا واعتصموا في قلعة سانور الشهيرة (١٨٣٠) .

133

وثبتوا على الحصار ثلاثة اشهر ابدوا فيهـا من آيات البسالة ما اوقع الرعب في قلب الوزير . واخترقوا نطاق الحصار وكادوا يوقعون بجيشه لو لم يتصدَّ لهم الامير بشير وابنه الامير خليل ويقهراهم ويكرهاهم على التسليم . ودُكَّت القلعة من اساسها وعاد الامير الى لبنان وألوية الظفر تخفق فوق رأسه

﴿ حملة ابراهيم باشا على سورية ﴾ لما دانت البلاد المصرية لسلطان محمد علي تاقت نفسه الى الفتح والتبسط في الملك . وكانت سورية مطمحاً لبصره . وقد أُتيح له أن يكون رجل عظيم كالامير بشير موالياً له وممهداً له السبيل الى تحقيق امنيته . ووجد في انصراف الدولة الى حرب اليونان وفي امتناع الخازندار عن تسليمه من فر من العمال المصريين الى ايالته هرباً من السخرة احسن فرصة لاكتساح الديار السورية . فحمل عليها ابنه ابراهيم باشا الفاتح الشهير ومعه سليمان بك الفرنساوي بجيش عظيم (١٨٣١) وفتح غزَّة ويافا والقدس ونابلس وحلَّ في حيفا ملتقى الجيشين البحري والبري فجعلها قاعدة لاعماله الحربية . واستأنف الزحف على عكاء فحصرها براً وبحراً . ووافاه الامير بشير اليهـا بنخبة رجاله . وزحف عثمان باشا والي حلب بعشرين الف مقاتل لرد الغازي . فانبرى له الامير خليل ابن الامير بشير بألفي مقاتل من اللبنانيين وقهره عند طرابلس . ثم استتم نقمته منه بمعاونة مصطفى أغا بربر حاكم طرابلس . وتعقبه الفاتح المصري وقهره في جوار حمص ومزَّق جيشه . ثم عاد الى عكاء وفتحها عنوة بمعاونة الامير بشير وأسر عبد الله باشا (١٨٣٢) . وزحف الفاتحان على دمشق فدخلاها ظافرين . وكسرا حسين باشا القائد العثماني على بحيرة حمص وطارده البطل المصري الى حلب وفتحها عنوة بعد معركة هائلة بيعت فيهـا الارواح بيع السماح (يوليو ١٨٣٢) . ثم اجهز على جيش عثمان باشا في بوغاز كيليكيا . واوغل في الاناضول وكسر رشيد باشا عند قونيه كسرة عظيمة (دسمبر ١٨٣٢) ووقف عنـد مدينة بورصة . وتلا ذلك أضطرام نار الفتن في بلاد صفد وطرابلس وجبال النصيرية وبلاد عكار (١٨٣٣) فقمعها الامير بشير وابنه الامير خليل . واراد ابراهيم باشا سد الفراغ الذي وقع في صفوف جيشه فاكره دروز لبنان على الانتظام في سلك الجندية بعد ان جمع أسلحتهم وأسلحة المسيحيين (١٨٣٤) . وأراد في السنة التالية تجنيد دروز حوران ووادي التيم فابوا الاذعان وانحاز اليهم العرب وقاتلوا والي دمشق وكسروه . وشد ازرهم شبلي العريان البطل الشهير

فاستفحل أمرهم وانزلوا بالجيش المصري خسارة فادحة حتى نشط ابراهيم باشا لقتالهم بنفسه . فوفق بمعاونة الامير خليل ومن انضوى تحت رايته من نصارى لبنان الى كسر شوكتهم واكراههم على القاء السلاح . واعجب الفاتح المصري ببسالة عميدهم شبلي العريان فعهد اليه في قيادة كتيبة من الفرسان . وتلا ذلك خروج عرب الصفا عن طاعة ابراهيم باشا فكبح جماحهم الامير مسعود ابن الامير خليل (١٨٣٦)

﴿ المسألة المصرية ﴾ كان لفتوحات ابراهيم باشا صدى عظيم في اوربا . وأشفقت روسيا أن تسقط الاستانة في يده وهي طامعة فيها فمدّت الدولة العثمانية بفرقة من جيشها . وأبى محمد علي التخلي عما فتحه من بلادها لقاء اعطائها له ولاية مصر على مدى العمر وتخويله الحق في تعيين ولاة سورية (١٨٣٣) واستأنف ابراهيم باشا القتال في جوار نصيبين فاحرز نصراً عظيماً وسحق الجيش العثماني . وعقب ذلك موت السلطان محمود وتسليم الاسطول العثماني الى الاسطول المصري فازداد الشر تفاقماً . وتعذر على الدول حل المسألة المصرية على وجه يتفق مع مصالحها المتناقضة . وتفاقم الخلاف بين فرنسا وانكلترا حتى خيف من نشوب حرب اوربية . وكانت فرنسا تؤيد محمد علي وتلح في اعطائه مصر وسورية وآطنة . وعرضت انكلترا ان يعطى نصف سورية الجنوبي بعد اخراج عكا منه . وعقد مؤتمر في لندن (١٨٤٠) فلم يسفر عن نتيجة حاسمة . وأراد تيارس الوزير الفرنساوي الشهير اكراه الباب العالي على الانصياع لمشيئة دولته ففشل . واتفقت انكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا على اخراج الجيش المصري من بلاد الدولة عنوة وعهدن الى انكلترا والنمسا في تنفيذ هذا الاتفاق (١٨٤٠)

﴿ صدى المسألة المصرية في لبنان وسورية ﴾ كان لتصرف الدول في حل المسألة المصرية على الوجه المتقدم تأثير شديد في الديار الشامية . فشرع عمال انكلترا في تحريض اللبنانيين على خلع طاعة محمد علي . وخاف ابراهيم باشا والامير بشير ان يفضي ذلك الى ما لا تحمد عقباه . فعمدا الى جمع الاسلحة منهم . فقاوموها واضطرمت نار الفتن في انحاء شتى من البلاد . وتولى قيادة العصاة أبو سمرا غانم البكاسيني والشيخ فرنسيس ابو نادر الخازن وفريق من الامراء الشهابيين واللمعيين الذين كانوا ناقمين على الامير بشير وفي جملتهم الامير محمود سلمان والامير علي منصور الشهابيين . واجتاح عثمان باشا بلاد المتن واكره اهلها على تسليم اسلحتهم . ونهج نهجه الامير

خليل في كسروان فجار على اهلها وقبض على معظم زعماء الثوار ما عدا الشيخ ابو نادر الخازن حيث كان قد فرّ الى قبرص فنفاهم الامير بشير الى سنار بالسودان

﴿ جلاء ابراهيم باشا عن سورية ﴾ اما محمد علي فلم يذعن لمشيئة الدول المتحدة وطرد سفراءها من قصره يوم اتوا لتبليغه قرار المؤتمر . ولما ايقن بعد سقوط وزارة تيارس ان فرنسا مرغمة على التخلي عنه كانت بوارج الدول تطلق قنابل مدافعها على ثغور سورية وقد انزلت الى البر عشرة آلاف مقاتل من الانكليز والاتراك فوزعوا الاسلحة على العصاة فاشتد ساعدهم واستأنفوا القتال فاستظهر ابو سمرا البكاسيني على الامير مجيد شهاب ثم كسر الجيش المصري في عيناتا شرّ كسرة . ودهم الكسروانيون عثمان باشا والامير خليل شهاب في وطا الجوز . وظلت الحروب سجالا بين الفريقين الى أن وصل ابراهيم باشا بجيشه ودحر الكسروانيين وأطلق ايدي النهب في طول البلاد وعرضها وأضرم النار في القرى والمزارع وبات كثير من المعاهد الدينية طعمة للنار. ولم يسع الامير بشير القاء السلاح واولاده واحفاده بين يدي ابرهيم باشا يقاتلون في صفوف جيشه . فعزله القائد العثماني من ولاية لبنان وعهد فيها بايعاز المستر فود الانكليزي الى الامير بشير قاسم ملحم شهاب ومده بالف مقاتل . فزحف على صرود كسروان لشدّ ازر الكسروانيين . فلموا شعثهم وانقضوا على الجيش المصري وهزموه وظلوا يعملون سيوفهم في اقفيته حتى حط رحاله في البقاع ثم اوغل في الانهزام الى المتن . وهناك استتم العصاة نقمتهم منه في بحرصاف واكرهوه على الفرار . وشعر الامير بشير بحرج موقفه فسار الى صيداء للتسليم . فتطرّق اليأس الى قلب ابراهيم باشا واسودت الدنيا في عينيه . وفي اثناء ذلك كان محمد علي اذعن لمشيئة الدول المتحدة وجعل السلطان ولاية مصر ملكا له ولذريته (١٨٤١) . فبعث يستدعي ابنه من سورية وصدع هذا بالامر وجلا بفلول جيشه عنها

﴿ مصير الامير بشير ﴾ اما الامير بشير فالقى سلاحه بين يدي خالد باشا والي صيداء فبالغ في اكرامه . واباح له عزت باشا القائد العثماني العام اختيار مكان لاقامته في غير سورية وفرنسا . فاختار جزيرة مالطة وابحر اليها مع حاشية كبيرة ولهذا لقب بالمالطي . ثم انتقل الى الاستانة وتوفي فيها سنة ١٨٥٠

وكان الامير بشير بطلا مغواراً تضرب الامثال بجرأته واقدامه وبسالته وكبر نفسه . وكان مهاباً يزري منظره بمنظر الاسد ويلقي الرعب في قلب محدّثه أو الناظر



ابو سمرا غانم البكاسيني

من اكبر زعماء الثورة في حرب ابراهيم باشا مع اللبنانيين

اليه مهما كان جريئاً رابط الجأش . وكان على صلابة عوده حليماً حكيماً مدبراً يضع الاشياء في اماكنها عادلا منصفاً لا يؤخذ بهوى النفس . ومع ما كان مأثوراً عنه من شدة الوطأة على اعدائه فان السيف لم يكن عنده أول علاج يلجأ اليه لردهم الى طاعته أو لدرء شرهم عنه . وكان شديد الولاء لاصدقائه شديد العطف عليهم في ساعات محنتهم . وكثيراً ما كان يستهدف للمخاطر من أجلهم كما جرى له مع ابراهيم باشا حيث جازف بامارته وفقدها تأييداً له المحافظة على عهده معه . وعلى الجملة فان هذا الامير العظيم الشأن تسامى في اخلاقه وقوة بصيرته واطواره وأعماله الى طبقة تعجز دونها مشاهير الشرق واقطابهم . ولو نشأ في غير سورية وفي غير الظروف التي احاطت به لذكر المؤرخون اسمه بجانب اسم قيصر والاسكندر وبومبايوس وغيرهم من كبار الفاتحين

* * *

خلف السلطان عبد المجيد أباه على عرش بني عثمان (١٨٣٩ — ١٨٦١) والفاتح المصري على أبواب الاستانة . فاراد أن يخرج الدولة من نطاق الخطر المضروب حولها وأصدر فرمان الاصلاح الشهير بخط كلخانة (نوفمبر ١٨٣٩) الذي ساوى فيه بين رعاياه وهو يرجو بذلك أن يستميل الدول اليه فتنصفه في قضيته مع محمد علي. وقد ظفر ببغيته لاتفاق مصالح الدول المتحدة في المسألة المصرية مع مصلحة دولته . وفي أيامه انضم الفلاخ والبغدان الى ترنسلفانيا وألفوا بعد جهاد طويل مملكة رومانيا (١٨٤٨—١٨٥٩) . ثم نشبت حرب القرم بينه وبين الروس (١٨٥٤— ١٨٥٦) فنصرته انكلترا وفرنسا عليهم وخرجت الدولة منها ظافرة وضمن لها مؤتمر باريس استقلالها بعد ان عاهدت الدول على اجراء الاصلاح في بلادها . ثم وقعت مذابح الستين في لبنان وسورية (١٨٦٠) . فكانت للملك خاتمة محزنة . لكنه أحسن التدبير في درء الخطر الذي جرته على الدولة ومات مغبوطاً قرير العين وخلفه السلطان عبد العزيز [1]

---

(١) كان الباعث على نشوب حرب القرم خلاف قام بين الروم واللاتين على الاماكن المقدسة في القدس . ولم يرق لروسيا حسم الدولة له في مصلحة اللاتين مجاراة لنابوليون الثالث. فعرضت على انكلترا الاتفاق معها على تجزئة تركيا فخذلتها وانحازت الى فرنسا . ودارت رحى الحرب فانتصر الجيش العثماني في عدة معارك . وجازت الاساطيل الانكليزية والفرنساوية

﴿ الحرب الاهلية الاولى بين المسيحيين والدروز ﴾ استوى الامير بشير قاسم الشهابي الصغير على منصة الامارة اللبنانيـة والبلاد خارجة من حرب ابراهيم باشا واهنة العزيمة منهوكة القوى وفي قلوب الدروز شيء من الغل للمسيحيين يرجع عهده الى ما كان لهؤلاء من الشأن في ردهم على يد الامير خليل شهاب الى طاعة القائم المصري . فلم يستطع الامير بشير — وهذا شأن اللبنانيين من التخاذل والاضطراب — أن يرأب صدعهم ويلم شعثهم . ووقعت بينه وبين أعيـان الدروز نفرة أدت بهم الى محاصرتهم له في دير القمر . وافضى ذلك الى فتنة كبرى بينهم وبين النصارى تعرف بالحركة الاولى (١٨٤١) . وقد تطايرت شظاياها الى اقاصي جنوب لبنان وذهبت بارواح كثيرة . ووصل مصطفى نوري باشا الى الجبل موفداً من الباب العـالي لتنظيم شؤونه . فعزل الامير بشير وعرض على اللبنانيين قبول والٍ عليهم من رجال الدولة . فاذعن الدروز لنصيحته . أما النصارى فخيبوا أمله واحتجوا الى الباب العالي وسفراء الدول على محاولته خرق نظام الحكم في جبلهم على هذا الوجه المنكر المجحف بحقوقهم القديمة والمغاير لتقاليدهم الموروثة

وفي السنة التالية عهد في ولاية لبنان الى عمر باشا النمساوي العثماني . وسعى لاسترضاء الدروز والنصارى فخبط مسعاه لانه اقتصر في ارضاء الدروز على جعل أحد مدبريه منهم واعتقل اعيانهم فنقموا عليه . وولى الحمادية على جبيل والبترون والكورة وأصحابها يومئذ بنو الخازن فشق ذلك عليهم . وعدَّ النصارى اسناد قيادة الجند اللبناني الى أبي سمرا البكاسيني ويوسف أغا الشنتيري المسيحيين غير كاف لارضائهم وانصافهم . وبلتوا والدروز سواء في الاستياء منه . واتفقوا على أن يولوا عليهم أميراً شهابياً يعاونه امير من اللمعيين ويدير شؤون ولايته اربعة مدبرين اثنان مسيحيان واثنان درزيان . وشرعوا في مناوشة عسكر عمر باشا لطرده من البلاد . وفي أثناء ذلك وقعت بين آل حبيش وآل الدحداح في غزير مشاجرة عنيفة أسفرت عن قتل اربعة من أبناء الشيخ حمزة

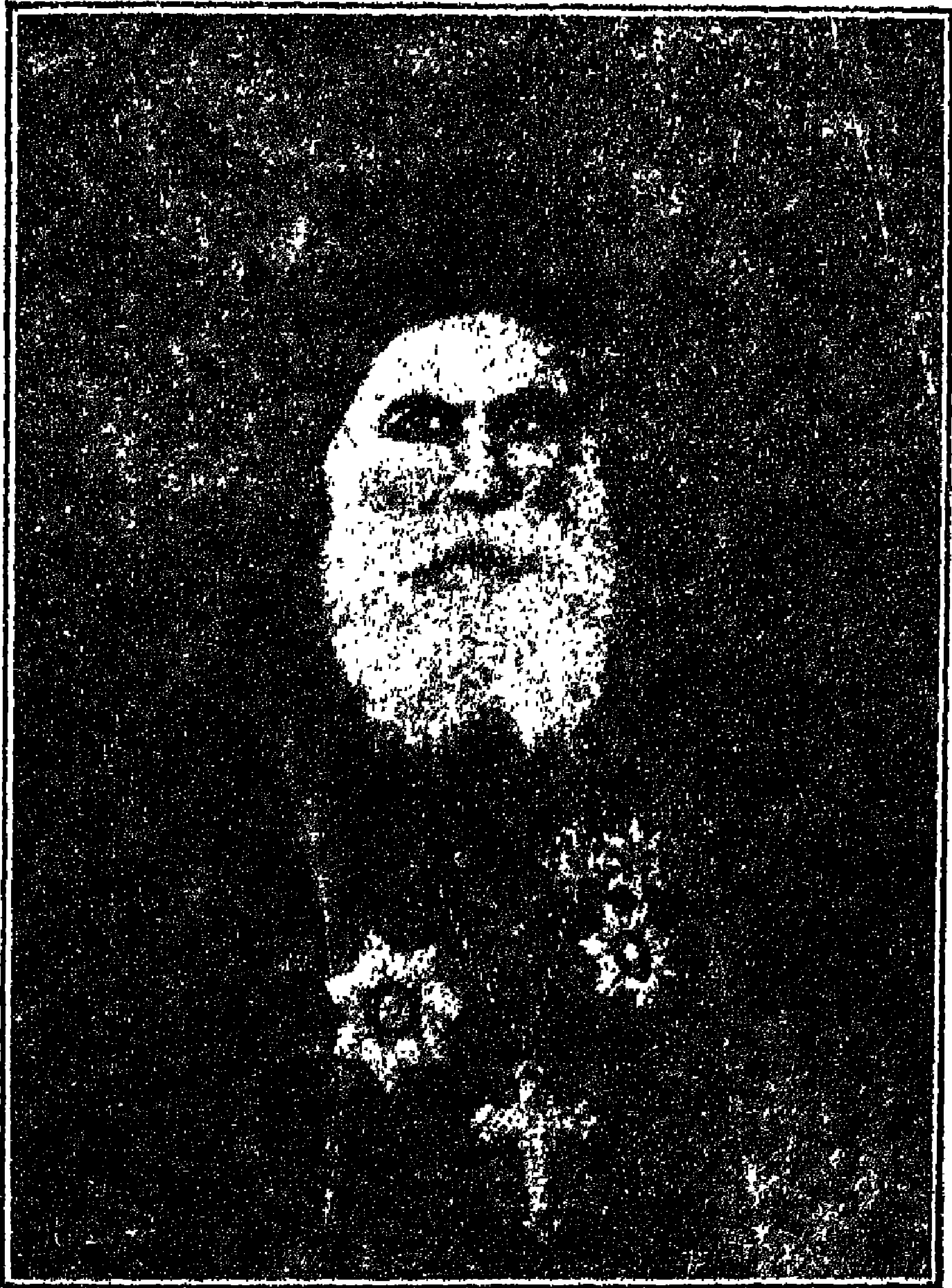
البوسفور الى البحر الاسود وضربت ثغور روسيا . واحتلت النمسا امارتي الفلاخ والبغدان . ثم اشتبكت جيوش الدول المتحدة مع الروس في معركة هائلة أسفرت عن انتصارها عليهم . ثم هاجمت قلعة سبستوبول الشهيرة ووالت هجماتها عليها الى ان فتح الجنرال مكماهون الشهير حصن ملاكوف وسقطت القلعة في أيدي الحلفاء بعد ان استبسل حماتها في الدفاع . وأوغلت جيوشهم في املاك روسيا واكرهت القيصر على الصلح

حبيش . فاجتاح الجند العثماني فتوح كسروان لمعاقبة الدحادحة وطاردتهم فرقة الى جبة بشري فتصدى لها رجال اهدن وكسروها . وهبّ منيب باشا للانتقام منهم . ولما اتضح له ان الجنود هم المعتدون جلا بعساكره عن البلاد

﴿ القائمقاميتان اللبنانيتان وحكم الامراء اللمعيين ﴾ ثم وصل اسعد باشا والي صيدا الجديد الى سورية . ورأى ان ما هو واقع بين النصارى والدروز من روح التنابذ والتنافس يقضي بمراعاة جانب الفريقين والا عجز عن اصلاح الحال ودرء الخطر الذي يتهدد البلاد . فقسم لبنان الى قائمقاميتين : قائمقامية النصارى واختار لها بعد استشارة بطريرك الموارنة الامير حيدر اسماعيل اللمعي . وقائمقامية الدروز واختار لها الامير احمد عباس ارسلان . وولى على جبيل وملحقاتها حاكماً مسلماً . وأحصى المسلوبات وقسطها على الدولة والدروز . ثم قام بين الحاكمين اللبنانيين خلاف أفضى الى جعل طريق دمشق حداً فاصلاً بين القائمقاميتين وألحقت جبيل بقائمقامية النصارى (١٨٤٤)

﴿ الحرب الاهلية الثانية بين المسيحيين والدروز ﴾ قبل ان يقسم الحكم في لبنان على هذا النمط كان اللبنانيون أحزاباً سياسية ليس للفوارق المذهبية شأن خطير عندها الا في ما يتعلق بالمسائل الدينية البحتة . فايقظ هذا التقسيم النعرة الدينية في نفوسهم . وأنشأ بين طائفتيهم الكبيرتين المسيحية والدرزية روحاً جديداً قل من كان يعيره التفاتاً قبل ذلك العهد . وما برحت النفرة تتزايد بينهما حتى تعاظم أمرها وأفضت الى الفتنة الاهلية المعروفة بالحركة الثانية (١٨٤٥) . وقد سفكت فيها دماء غزيرة ولا سيما في المتن والشوف وساحل بيروت . ولولا توسط وجيهي باشا والي صيدا الجديد بالصلح بين الفريقين لجل الخطب وحلت بالبلاد نكبة عظيمة . ثم وصل شكيب افندي من الاستانة ومهمته اصلاح شؤون لبنان . فعقد في بتدين مجلساً حافلا دعا اليه وجهاء البلاد وأصحاب الاقطاعات . وبث الجنود في أنحاء البلاد لجمع الاسلحة . فاشتدت وطأتهم على اللبنانيين وخصوصاً على رجال الدين . واجتاح نميق باشا سر عسكر دمشق جبة بشري . فانبرى له اهلها وناوشوا عسكره عند تنورين . ثم ألقوا سلاحهم بين يدي بطريرك الموارنة فجلا عن بلادهم . وجدد شكيب افندي قسمة البلاد بين الامير حيدر والامير أمين أرسلان ولم ينصف بينهما فاحتج الامير حيدر . ثم تكرر الخلاف وحسم على يد قناصل الدول

وصرف الامير حيدر آخر سني حكمه منبوطاً طيّب النفس . ووافته منيته سنة ١٨٥٤ ولا ذكر له فتقلد الولاية موقتاً ابن أخيه الامير بشير عساف الى ان صدر الامر العالي بتولية الامير بشير احمد اللمعي . وكان الامير حيدر ورعاً حازماً حليماً عادلا عالي الهمة صادق العزيمة مقداماً تجلى هيبة الامراء على محياه باجمل مظاهرها .



البطريرك بولس مسعد
(١٨٥٤ — ١٨٩٠)

وقد تحلى باطيب المناقب وأسمى الفضائل ولهذا كان عهده في لبنان مباركاً ميموناً . وهو من اكبر أمراء لبنان ومن أجلهم قدراً واكثرهم فضلا . وقد عزز شأن النصرانية في لبنان وجعل معاهدها ورجالها في مقام دونه كل مقام .

﴿ نكبة الخوازنة وانقضاء حكم الاقطاعات ﴾ تقلد الامير بشير اللمعي زمام الحكم والسكينة النسبية سائدة جبل لبنان . غير ان البلاد كانت يومئذ في دور التطور وقد دب روح التمرد على الحكام الوطنيين في صدور العامة ففعل فيها فعل النار في الهشيم . فنال الامير اللمعي من غائلة هذه الروح ما نال سواه من الحكام حيث أثار الكولونيل شرشريك الانكليزي خواطر اللبنانيين عليه . وتجلى هياجهم على أشده في المتن وجبة بشرى وصرود كسروان وغزير . وما برح الخلاف بينه وبين خصومه يتفاقم حتى باتت البلاد في حال من الفوضى لا تحمد عقباها واضطر الباب العالي ان يقيله من منصبه (١٨٥٩)

على ان عزل الامير اللمعي لم يحل دون انتقامه من خصومه ولا سيما الخوازنة حكام كسروان . فتذرع بما آنسه من جنوح فريق منهم الى تعضيده لحمل هذا الفريق على ايغار صدور العامة عليهم والتآمر على انتزاع السلطة منهم . وفضى جواب والي بيروت لمن انتدبه الثوار من زعمائهم لرفع ظلامتهم اليه على البقية الباقية في نفوسهم من روح المسالمة وحوّل سورة الافكار الى فتنة كبرى حيث حمل الثوار على الخوازنه حملة شعواء بقيادة طانيوس شاهين الريفوني (١٨٥٩) وطردوهم من البلاد بعد ان فتكوا بجماعة منهم وأضرموا النار في دورهم . واستغاث كبراؤهم بيطريرك الموارنة — وهو يومئذ البطريرك بولس مسعد — وقنصل فرنسا فاتفقا على قمع الثورة واكراه الثوار على الكف عن مطاردتهم وردّ مسلوباتهم اليهم . ولولا توسطهما لتفاقم الخطب وعظم البلاء لان يداً قوية كانت تدس الدسائس طي الخفاء للجانبين حتى اذا أضناهم القتال وتولاهم العجز ملكت رقابهم وتحكمت فيهم تحكم السيد بعبيده طبقاً لما تقضي به مصلحة الدولة وسياستها التقليدية الخرقاء في الديار الشامية

﴿ الحرب الاهلية الثالثة بين النصارى والدروز ﴾ لم تكد تخمد جذوة الفتن في كسروان حتى عقبتها مذابح الستين الشهيرة (١٨٦٠) . تطايرت شرارتها الاولى من وادي شحرور حيث قتل الامير عباس قاسم الشهابي وأخيه الامير بشير آخر من تولى الامارة اللبنانية من بني شهاب . وعلى أثر ذلك نشبت في بيت مري فتنة شديدة أثارت النعرة الدينية في صدور اللبنانيين . فاضطرمت نار الثورة في جنوب لبنان وسورية ولا سيما في دمشق وحاصبيا وراشيا وزحلة . وتجلى الهياج على أشده في دير القمر حيث انحاز جنود الدولة الى الثوار وذبحوا من المسيحيين الف وخمسمائة نفس بعد

ان جردوا عنهم أسلحتهم غدراً وحيلة . وكان يوسف بك كرم أول من هب لدرء الخطر عن المنكوبين فزحف بنحو الفي مقاتل كالسيل الجارف على بلاد الشوف . وأشرف على زحلة وقد طوقها الدروز وأضرموا النار فيها فقفل راجعاً الى جونية عملا باشارة قنصل فرنسا وانصرف الى اعالة المنكوبين وكان قد اجتمع منهم هناك زهاء ثلاثين الف نفس . وقد هلك من النصارى في هذه المذابح أحد عشر الفاً



يوسف بك كرم

وعلى أثر ذلك أنفذ السلطان عبد المجيد فؤاد باشا الصدر الاعظم الى سورية لمعاقبة مثيري هذه الفتنة الهائلة . فشنق ونفى عدداً من أعيان دمشق وبيروت . وعرف بما كان ليوسف بك كرم من الشأن في اغاثة الذين سلموا من المذابح فعهد اليه في وكالة قائمقامية النصارى . وأرسلت الدولة الفرنساوية الى سورية باسم دول أوربا حملة عسكرية قوامها سبعة آلاف جندي بقيادة الجنرال بوفور والجنرال ديكور لاعادة الامن الى نصابه . واتبعتها الدول الخمس الكبرى فرنسا وأنكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا بلجنة دولية مؤلفة من خمسة مندوبين للمداولة في ما ينبغي لها ان تجريه حقناً للدماء ومنعاً لتجديد الفتن في لبنان . فاتفقوا بعد مناقشات طويلة لا محل لها هنا على سن

النظام اللبناني الحديث (١٨٦١) الذي قضى على نظام الاقطاعات وكان من حسنات الزمان وان اعتوره من النقص والابهام ما سوّغ للدولة التذرع بالقيود الاستبدادية التي تنطوي تحته للتحكم باللبنانيين على ما تشاء وتهوى

***

جلس السلطان عبد العزيز على العرش (١٨٦١ — ١٨٧٦) والدولة قائمة على محاربة الجبل الاسود . فواصل الحرب الى ان فتحه (١٨٥٨ — ١٨٦٤) . وقد زار القطر المصري (١٨٦٣) وباريس (١٨٦٧) . وتلا ذلك خروج السربيين عن طاعة الدولة وظفرهم بالاستقلال (١٨٦٧ — ١٨٧٧) . وفي عهده ثار أهل كريت على الدولة واكرهوها على منحهم عدة امتيازات أهمها اعفاؤهم من الجندية (١٨٦٩) . وخلع بمؤامرة والمشهور انه اغتيل في سراي طوبقبو (١٨٧٦) (١)

وخلف عبد العزيز السلطان مراد الخامس (١٨٧٦) فلم يملك الا أياماً معدودة حيث تولاه اضطراب عصبي أفضى به الى الجنون . فخلع ونودي باخيه عبد الحميد

تبوأ السلطان عبد الحميد عرش أجداده (١٨٧٦ — ١٩٠٩) والسلطنة محفوفة بالمخاطر والدول الاوربية تلح على الباب العالي في طلب الاصلاح . فرأى ان يضع لها نظاماً دستورياً شورويًا يحول دون تعرض أوربا لشؤونها الداخلية . لكنه ما كاد يطمئن على عرشه حتى عبث بالدستور واغتال منشئه مدحت باشا أبا الاحرار المصلح الشهير وحل مجلس النواب الذي كان ألفه وقتئذ . فانبرت له روسيا واقترحت عليه اجراء الاصلاح على قاعدة عدها محطة بشأن الدولة ورفضها . فشهرت عليه الحرب

(١) مما يستدعي الانظار من تاريخ هذا السلطان انه لم يدرك في الحروب التي خاض غمارها غرضاً واحداً من اغراضه . قهر اولا الجبل الاسود فحال توسط روسيا وفرنسا دون اجهازه عليه . وظفر بقمع ثورة السربيين ولكن الدول الاوربية اكرهته على الاعتراف باستقلالهم . وشق عليه ضياع امارة السرب من يده فانتحل عذراً لاستئناف الحرب فقاومه الامير ميلان (١٨٧٦ — ١٨٧٧) وقضى مؤتمر برلين بتوسيع حدودها (ثم جعلت مملكة وسمي الامير ميلان ملكا عليها ثم اعتزل الملك وزار سوريا ولبنان وخلفه ابنه اسكندر وهو الذي قتل سنة ١٩٠٣ وافضى عرش السرب الى الملك بطرس الاول) وحاول هذا السلطان القضاء على الكريتيين فاخفق . ثم خلع ومات قتلا . فكان ملكه سلسلة مكاره وبلايا وضعته في طبقة دون طبقة السلاطين العظام وان يكن في سيرته ما يعد في حكم الحسنات كخروجه عن تقاليد السلطنة بزيارته اوربا وتجاوزه في معاملة المسيحيين ورؤسائهم الدينيين حدود المجاملة المألوفة عند سلاطين آل عثمان

(١٨٧٧) وقهرته واكرهته على توقيع معاهدتي ادرنة وسان استفانو اللتين مهدتا السبيل لعقد مؤتمر في فينا (١٨٧٨) انتزع جانباً عظيماً من سلطة الدولة واستقلالها السياسي وجعل اوربا بمنزلة المشرفة عليها . وفي عهده نشبت في جزيرة كريت ثورة عظيمة افضت الى وقوع الحرب بين الدولة واليونان (١٨٩٧) وأوشك الترك ان يقضوا على استقلالهم لولا تصدي الدول الحامية لمملكة اليونان للغزاة ووقوفها في سبيلهم . وفي السنة التالية ظهرت المسألة المقدونية وتلتها ثورة اليمن (١٨٩٨—١٩٠٥) فعجزت الدولة عن قمعها واضطرت الى مصالحة الامام يحيي قبل ان يتاح لها اتمام سكة الحديد الحجازية التي مدتها لهذا الغرض (١٩٠٠ — ١٩٠٨) وقد ختم ملكه بانضمام كريت الى اليونان (١٩٠٦) واستقلال بلغاريا والروملي الشرقية استقلالاً تاماً وضم النمسا مقاطعتي البوسنة والهرسك الى املاكها (اكتوبر سنة ١٩٠٨) ففقدت الدولة بذلك بلاداً مساحتها ٥١ الف كيلو متر مربع وجزيرة مساحتها ٨٦١٨ كيلومتراً مربعاً . وقد اشتهر عبد الحميد بذكاء الفؤاد والدهاء النادر . ولكنه صرف ذكاءه ودهاءه في التفريق بين رعاياه فكانت القاعدة المرعية في الدول الاستبدادية : « فرق تسد » شعار دولته . وتفنن في اضطهاد المفكرين والمصلحين وقتل الانفس البريئة صيانة لحياته وعرشه . وارتكب في هذا السبيل من المنكرات ما ترتعد له الفرائص . ولولا ما صادفته جمعية الاتحاد والترقي من التوفيق في خلعه وزجه في السجن لظل مالكا رقاب رعاياه الى اليوم[1]

---

(١) كانت الحرب التي استفتح عبد الحميد بها ملكه وبالا على الدولة حيث قهرها الروس برغم استبسال جيوشها ولا سيما في معارك بلفنا وقارص الشهيرة . وقضت معاهدة ادرنة التي تلتها بترقية البلغار الى امارة ممتازة وبمنح رومانيا الاستقلال السياسي . ثم جاءت معاهدة سان استفانو معززة لمطالب الروس المتعلقة باصلاح السلطنة العثمانية . وقضى مؤتمر فينا بانشاء ولاية الروملي الشرقية . وباحتلال النمسا للبوسنة والهرسك . وتخلي الدولة عن اردهان وقارص وباطوم لروسيا . وتأمينها الارمن على ارواحهم وارزاقهم ! ! ! . وتأييد حق فرنسا في حماية المسيحيين في السلطنة العثمانية . وغير ذلك مما لم ينسخه هذا المؤتمر من الشروط التي اقرها مؤتمرا باريس ولندن (١٨٥٦ و١٨٧١) وعلى الجملة فان هذا المؤتمر جعل الدولة العثمانية تحت وصاية اوربا. غير ان عبد الحميد اتعظ بالعبر التي مرت به فاوقع الخلاف بين الدول الاوربية وأمن بطشها فانصرف الى تعزيز سلطانه . وحال خلافهن دون معاقبته على ما ارتكبه من الفظائع ولا سيما مذابح الارمن (١٨٨٨ و١٨٩٤) حيث اهلك منهم زهاء نصف مليون نفس وهو آمن على حياته وعرشه. ولولا توغله في اضطهاد المصلحين من رجال دولته واضطرار

وبعد خلع عبد الحميد نودي بأخيه السلطان محمد رشاد (١٩٠٩). فاستسلم الى مشيئة الاتحاديين لضعفه ولانه صنيعتهم. فاستأثروا بالسلطة من دونه وجاروا وبغوا. فانقسم حزبهم على بعضه وخرج منه رجال الاصلاح الحقيقيين وألفوا حزب الائتلافيين. وشبت نار الفتن في اليمن والعسير وحوران والكرك وفي شمال سورية ولاسيما في اللاذقية والبقاع المجاورة لها وفي ولاية آطنه حيث ذبح الارمن ذبح الانعام. واقتهزت ايطاليا هذه الفرصة فحاربت الدولة وانتزعت منها جزر بحر ايجه وطرابلس الغرب (١٩١٢) ففقدت الدولة بذلك بلاداً مساحتها مليون كيلو متر مربع ما عدا الجزر المتقدمة. وهبت الدول البلقانية لمحاربة الدولة وانتزعت منها معظم املاكها في اوربا ولم يتركن لها فيها الا بقعة صغيرة حول الاستانة (١٩١٣) أما الائتلافيون فجعلوا غرضهم الاعتراف للعناصر العثمانيــة بحقوقها الطبيعية الموروثة واحترام لغاتها وأديانها وعاداتها فايدتهم وكثر أنصارهم خلافاً للاتحاديين فانهـم جعلوا شعارهم تتريك هـذه العناصر وابادة ما لا يستطاع تتريكه منها كما هو شأنهم مع العنصر العربي الذي تجلت نواياهم الخبيثة نحوه في الحرب الاوربيــة العظمى الناشبة اليوم بافظع أشكالها حيث قرروا ابادته بالسيف والجوع كما أبادوا من قبله العنصر الارمني (١٩١٥ — ١٩١٦) فدلوا بذلك على انهـم ارتقوا في الجهل والهمجية على نسبة ارتقاء الامم الاخرى في العلم والمدنية

لبنان بعد نظام الحديث

﴿ بين داود باشا ويوسف كرم ﴾ كان من حسنات نظام لبنان الحديث انه تعاقب على عرش بني عثمان في الحقبة التي تلت حوادث سنة ١٨٦٠ أربعة سلاطين وسورية في منزلة من الرخاء وخفضة العيش تغبطها عليها سائر الولايات العثمانية. وما تخلل هذه الحقبة من الاضطراب انمــا هو صفة ملازمة لــكل تطور كالتطوّر الذي

رجال السياسة في فرنسا وانكلترا الى تأييدهم في بث دعوتهم لما استطاع هؤلاء المصلحون ان يرغموه على بعث دستور مدحت باشا من قبره (١٩٠٨) ويقبضوا على زمام السلطة بيد من حديد ويتاح لهم في ما بعد ان يخلعوه ويستبدوا بشؤون الدولة استبداداً قبيحاً منكراً كان استبداد هذا السلطان وأثرته دونه شدة وفظاعة

مرّ بها على اثر تلك الحوادث المشئومة

أول من تولى أمارة لبنان بمقتضى النظام الحديث داود باشا الارمني (١٨٦١ — ١٨٦٨) . تقلد زمامها وهو غريب عنها يجهل طبائع اللبنانيين وأحوالهم . وأراد مخالفة أحكام النظام بمضاعفة مال الجبل لا بلاغه الى سبعة آلاف كيس « ٣٥ الف ليرة » وهوما لا يجيزه هـذا النظام الا عند الضرورة القصوى « البند ١٦ » فكان عمله هذا مهمازاً في جنب لبنان وهو خارج من فتنة الستين دامي القلب مقصوم الظهر يئن من فداحة الخسائر التي مني بها فيها . فهب اللبنانيون لمعارضته . وكان يوسف بك كرم ناقماً على داود لاصراره على تنفيذ خطته الاستبدادية على رغم النصائح التي بذلها له . فشد ازر المعارضين لخطته وانبرى لمنازلته . فقامت بينهما حرب عوان رأى هذا الحاكم فيها من بسالة خصمه وصلابة عوده وثباته في مواطن الصدام والطعان وعظم سطوته وسعة جاهه ونفوذه ما حمله على السعي لاسترضائه . ولـكنه أخفق في مسعاه وذكر ما للوشايات من الشأن في قضاء الحاجات — وهو درس كان قد حذقه في الاستانة — فوشى به الى الجنرال بوفور بانه ممالئ لفؤاد باشا ضد الدولة الفرنساوية . وكاد الخصام الذي قام على اثر هذه الوشاية بين بطل لبنان وبين هذا القائد يفضي الى مالا تحمد عقباه لولا توسط بطريرك الموارنة . وأراد البطريرك حسم الخلاف بين كرم وخصمه فحال عناد داود وكبرياؤه دون ذلك واستأنف ابن كرم محاربته . وفي أثناء ذلك كان فؤاد باشا أتم مهمته في سورية . وخاف ان يفضي استرسال كرم في المقاومة الى تجدد الفتن في البلاد فاستصحبه الى الاستانة (١٨٦١) . ولما جُـدّدت ولاية داود باشا (١٨٦٤) عاد كرم الى لبنان ودخل اليـه دخول الظافر . فابحر داود الى الاستانة في التماس معونة الدولة . وأدرك ابن كرم ما وراء الاكمة فعمد الى المسالمة لئلا يتهم بعصيانها . غير ان داود أبى الا القضاء على سطوته . فاستأنف بطل لبنان القتال وكسره في كثير من المعارك التي نشبت بينهما حتى اضطر داود أن يعرض عليه ولاية شمال لبنان الى نهر الـكلب . فاباها وأصر على طرده من البلاد ودارت رحى الحرب . فاستظهر كرم على عساكر الدولة واستفحل أمره . وشعرت الدولة بعجزها عن كسر شوكته فاستغاثت بفرنسا واتفقت الدولتان على اخراجه من لبنان . فالقى سلاحه بين يدي البطريرك الماروني وابحر الى فرنسا حيث انزله نابوليون الثالث في ضيافته ورتب له جعلا سنوياً (١٨٦٧) وصرف بقية حياته في نابولي . وكان بطلا



سمعان آغا عقل

احد رجال يوسف بك الكرم المشهورين

عظيماً يشغل المقام الاول بين رجال السيف الذين نشأوا تحت سماء لبنان (١)
واذ خلا الجو لداود باشا جنح الى الاستقلال بولاية لبنان. وأدرك الباب العالي

(١) يوسف بك كرم هو ابن الشيخ بطرس كرم حاكم اهدن وملحقاتها . ولد سنة ١٨٢٥ ودرس علم السلاح على الشيخ حماد الهاشم البطل العاقوري الشهير . وخلف أباه في ولاية أهدن . ثم تولى قائمقامية النصارى بعد مذابح سنة ١٨٦٠ . ولما جعل داود باشا متصرفاً على لبنان اعتزل الحكم وأثار عليه خواطر اللبنانيين لمخالفته نظام لبنان والقى عليه في رفضه قائمقامية جزين درساً في علم الوطنية زاده رسوخاً في نفس هذا الحاكم ثبات ابن كرم في معارضته ومقاومته له ولا سيما بعد ان كثر انصاره وانضوى تحت رايته مئات من ابطال لبنان حتى اضطره الى التماس الصلح على يد البطريرك بولس مسعد . غير ان وساطة البطريرك ذهبت بازاء عجرفة داود ومكابرته ضياعاً. وشق عليه فشله في ما كان يرجوه من تأييد البطريرك له فنقم عليه . وبلغ به الغرور الى اثارة الرأي العام ضده . وطاف لهذه الغاية في صرود كسروان وفي يده صولجان وعلى صدره صليب ذهبي امتهاناً لسلطة البطريرك . على ان تعاظم سطوة كرم بعد عوده الى لبنان اثاب هذا الحاكم الغبي الى رشده فعمد الى محاسنة خصمه وعرض عليه نصف ولاية لبنان . فأبت عليه وطنيته الاغضاء على القذى بهذا الثمن البخس وأصر على اخراجه من البلاد . ومما يسترعي الابصار من سيرة هذا البطل العظيم ان الدولة جردت عليه عشرة آلاف مقاتل بقيادة أمين باشا الاشقر . وهال هذا القائد ما كان من بطش بطل لبنان بمن ساقته الدولة لقتاله من الكتائب فاستدرجه الى اجتماع عقده في احدى قرى الجبة بحجة النظر في مطاليبه وهو يريد الغدر به . غير ان كرم ادرك سر المكيدة فشهر حسامه وشق لنفسه طريقاً في قلب الجيش وانقض رجاله انقضاض الاسد على اعدائهم واعملوا السيف في رقابهم . ثم اجتمع على قتاله جيش آخر قوامه ١٨ الف مقاتل فلم يظفروا منه بطائل ودحرهم الى طرابلس ببضع مئات من رجاله . وجعلت العساكر تتأثره من مكان الى مكان فيباغتها ويبطش بها . وقد جرى له معها نوادر تعد في حكم المعجزات . من ذلك ما يروى من بطشه — وعدد رجاله لا يجاوز السبعة — بالف مقاتل من جنود بعلبك في وادي النسور على حدود بعلبك . وأحدق به الف جندي آخر على نبع جوعيت فانتضى حسامه واخترق صفوفهم فانحسروا من طريقه كالذباب ونجا على قلة رجاله من الكمين الذي كانوا نصبوه له هناك . وعلى هذا المنوال كان ينازل جيوش الدولة فيكسرها واحداً بعد آخر وعدد رجاله لا يربى في أعظم المعارك التي خاض غمارها على أربعمئة مقاتل حتى جرى ذكر بسالته وبطشه مجرى الامثال . وما زال بين كر وفر حتى استفحل أمره واستجار الباب العالي بالدولة الفرنساوية . وكان قنصلها في بيروت يعد وجود كرم في لبنان خطراً على النفوذ الفرنساوي في سورية فسأله موافاته الى بكركي . وبلغه رسول القنصل ورحى الحرب دائرة بينه وبين عساكر الدولة في الوادي الفاصل بين القاطع وكسروان وعدد رجاله لايجاوز اربعمئة وقد ابلوا في تلك الحرب بلاء عظيماً. فأبى دعوة القنصل ولا سيما انه كان للبطريرك يد في الامر . فايقن في الاجتماع العظيم الذي

والدول الاوربية حقيقة غرضه من محاربة ابن كرم فاقيل من منصبه قبل أن يظفر بامنيته

﴿ ولاية فرنقو باشا ﴾ وخلف داود باشا على ولاية جبل لبنان فرنقو باشا الحلبي (١٨٦٨ — ١٨٧٢) . فسلخ سهل البقاع المشهور بخصبه عن لبنان وألحقه بولاية سورية . فحرم اللبنانيين بذلك مورداً من اعظم موارد ثروتهم . وسُدَّت أبواب الرزق في وجه السواد الاعظم منهم . فالتمسوه في الخارج . وازداد تيار المهاجرة . وكان متديناً صالحاً مستقيماً يحترم رجال الدين ويحافظ على كرامة العشائر اللبنانية . ولذلك كان عهده في لبنان عهد راحة وسكون . فلم ينازعه السلطة منازع ولم يقم في سبيله ما قام في سبيل سلفه من العقبات التي عجز عن تذليلها (١)

عقد في المقر البطريركي ان في القائه السلاح بين ايدي ممثل فرنسا ورئيس طائفته ضماناً كافياً لصيانة كرامته واحرازه ثقة نابوليون وعطفه . فسلم وصرف رجاله مرغماً وخرج من المقام البطريركي في موكب عظيم لم يشهد لبنان موكباً اكثر منه ابهة وفخامة . وابحر الى فرنسا على مركب حربي . فرحب به نابوليون اعظم ترحيب واعجب بابائه وبسالته ووطنيته . ثم انتقل الى جزائر الغرب حيث صرف مدة . وعاد الى باريس وهو يمني النفس بصرف بقية حياته فيها . فحال ما وقع بينه وبين وزير خارجية فرنسا من سوء التفاهم دون هذا الامر . وغادرها الى البلجيك فرومية فجزيرة كورفو . ثم أم نابولي واستقر فيها وعرض عليه وهو هناك ان يتجنس بالجنسية الايتالية فابى الا الاستمساك بجنسيته العثمانية . وأراد كامل باشا الصدر الاعظم مكافأته على هذا الولاء بمنصب سام يسند اليه في الدولة (١٨٨٧) . فاعتذر عن القبول لانه لم يكن يروق له الا خدمة وطنه لبنان الذي ضحى حياته في سبيله . وتوفي في نابولي (١٨٨٨) وعمره ٦٣ سنة ونقلت جثته الى اهدن في جبل لبنان . وكان كرم شجاعاً باسلاً عالي الهمة ماضي العزيمة . وقد اشتهر بورعه وصدق وطنيته . وبلغ به الزهد الى انه عقد العزيمة سنة ١٨٥٨ على انشاء رهبانية من علماء الدين وحبس املاكه عليها . فحالت حوادث سنة ١٨٥٩ و١٨٦٠ دون امنيته هذه . وقد صرف في أوربا زهاء عشرين سنة كان فيها مثال التقي والزهد والعفاف حتى اعجب الاوربيون بصفاته الممتازة وفضائله الرائعة

(١) لما زار البطريرك بولس مسعد عاصمة السلطنة كان في جملة ما فعله السلطان عبد العزيز لاكرامه انه عين فرنقو باشا مهمنداراً له . ورأى البطريرك من صفات مهمنداره هذا ما يؤهله للحكم فالتمس من السلطان تعيينه حاكماً للبنان وأجيب الى طلبه . وكان فرنقو يذكر الى منتهى ايامه هذا الفضل للبطريرك ويجل قدره كثيراً . وهذا ما زاده تديناً واحتراماً لرجال الدين . فاحرزوا في عهده من النفوذ ما لم يحرزوه على عهد غيره من المتصرفين الذين حكموا لبنان

﴿ ولاية رستم باشا ﴾ ثم جاء رستم باشا الايتالي (١٨٧٣ — ١٨٨٢). فاجرى العدل بين الناس وضرب على أيدي المقلقين. غير أنه ضحى مصلحة لبنان خدمة للدولة. ذلك انه لما نشبت الحرب بينها وبين روسيا (١٨٧٧ — ١٨٧٨) اقتصد في مرتبات الموظفين ووضع رسوماً اضافية ليستغني بذلك عن المال الذي كانت تتقاضاه حكومة الجبل من صندوق النافعة سداً لعجز الميزانية. فعارضه رجال الدين وزعماء الشعب اللبناني وعصفت ريح الفتن في انحاء شتى من لبنان ولا سيما في الجنوب. فانبرى لاضطهاد الاكليروس ورماهم بالتهم الشائنة. وكتب الى الاستانة يعزو اليهم تحريض الشعب على الثورة. وخص بالذكر منهم المطران بطرس البستاني. فاوهم القنصل الفرنساوي انه في مقدمة المحرضين وانه يعمل على احباط مساعي فرنسا في لبنان. وأفضى تآمرهما عليه الى حمل الباب العالي على نفيه الى القدس بموافقة الدولة الفرنساوية (٣١ يوليو ١٨٧٨). فعظم الامر على البطريرك والاعيان وازدادت سورة الاضطرب شدة حتى كادت تفضي الى فتنة عظيمة لولا ارجاع الدولتين له الى لبنان على مدرعة فرنساوية مكرماً محترماً. واستمر رستم باشا على معاداة الاكليروس الى نهاية حكمه. فلم يكن يستر لهم هفوة ولا سيما للرهبان حيث شهر عليهم حرباً عواناً. ولهم معه نوادر وحكايات لا يسمح المقام بذكرها. وكان على عدله واستقامته عنيداً صعب المراس. فكان عهده في لبنان حافلا بالفتن والقلاقل. وبعد انهاء مدته عينته الدولة سفيراً لها في لندن مكافأة له على خرقه نظام لبنان في سبيل مصلحتها

﴿ ولاية واصه باشا ﴾ وخلفه واصه باشا الالباني (١٨٨٢ — ١٨٩١). وفي عهده شاعت الرشوة شيوعاً عظيماً. فاختلت الاحكام. وتطرق الفساد الى سائر دوائر الحكومة. وسادت الفوضى انحاء لبنان. فساءت احوال اللبنانيين وهجروا اوطانهم بالمئات والالوف الى حيث يأمنون شظف العيش وشر الاستبداد. ويُعرف حكمه بالحكم الكوبلياني نسبة الى صهره كوبليان الذي كان ملازماً له ملازمة الظل لصاحبه. واليه ينسب معظم الفساد الذي منيت به الحكومة اللبنانية في عهد هذا الحاكم

﴿ ولاية نعوم باشا ﴾ ثم تولى نعوم باشا الحلبي (١٨٩٢ — ١٩٠٢) نسيب

143

فرنقو باشا . فجاء لبنان والرشوة تقرض قلب حكومته . فجرى مع تيارها الجارف مع ما كان لديه من الوسائل لاستئصالها من جذورها . وحذا حذو سلفه في مضاعفة أيراد الحكومة من رسوم المحاكم . والضرر الذي ينشأ عادة عن مثل هذه الرسوم انما هو ضرر نسبي . ولهذا لم يلقَ في معارضة اللبنانيين له من الصعاب ما لاقاه سواه من الحكام لدى محاولتهم مضاعفة ايراد الحكومة من الضرائب . وفي أيامه نشبت فتنة في كسروان بين المسيحيين والمتاولة . فتصرف في حلها تصرفاً ممدوحاً لولاه اعظم الخطب وساءت العاقبة . وكان حليماً متأنقاً متصفاً بالدهاء لطيف المعشر خبيراً باساليب السياسة . ولذلك عين بعد انتهاء مدته سفيراً للدولة في باريس ومات هنالك

﴿ ولاية مظفر باشا ﴾ وخلفه مظفر باشا البولوني (١٩٠٢ — ١٩٠٧) . فاستوى على منصة الحكم وفي نفسه من حسن الاستعداد للسير بلبنان في سبيل الاصلاح ما جعل اللبنانيين يمنون النفس باطيب الاماني واحسن الامال . فافسدت حاشيته الامر عليه وأوقعته بدسائسها ومطامعها في ارتباك شديد احرج موقفه تجاه رؤساء الدين واعيان البلاد وقناصل الدول . وحاول الخروج من هذا المأزق الحرج ففشل وازداد قلقاً وارتباكاً . وجاء اتفاقه مع الجمعيات اللبنانية لمناهضة الاكليروس والاعيان ضغثاً على ابالة . ونشأ بين الفئتين كثير من الفتن التي خيف معها من نشوب حرب أهلية عظيمة لو لم تعاجله منيته قبل انتهاء مدة ولايته . وكان هذا الحاكم عادلا حر الضمير نزيهاً . لكنه كان كثير التقلب سريع الحكم قليل التروي في الامور . فكان من أولئك الرجال الذين على نزاهتهم وعدلهم واستقامة ضمائرهم لا يصلحون للحكم في بلاد كلبنان لا بد لمن يتولى أمره أن يكون ادارياً بارعاً وسياسياً محنكاً حاذقاً اكثر منه نزيهاً عادلاً كما كان شأن هذا الحاكم

﴿ ولاية يوسف باشا فرنقو ﴾ ثم تولى يوسف باشا فرنقو الحلبي (١٩٠٨ — ١٩١٢) وهو ابن فرنقو باشا . فكان ضعيف الارادة غير انه كان نزيهاً حليماً . وفي مفتتح حكمه أعلن الدستور العثماني فاعترف به مرغماً . وخيّل الى فئة قليلة من اللبنانيين ان الولايات ستنسبق لبنان بفضل دستور الترك شوطاً بعيداً في مضمار الاصلاح قسعت الى تمثيله في مجلس المبعوثان . ولكنها لم تكد تشهد فصلاً من المأساة الدموية

التي قام غلاة الترك بتمثيلها في عاصمة ملكهم حتى ثابت الى رشدها واذعنت لمن لم يبهر انظارهم سراب هذا الدستور اللامع الخلاب من قادة الرأي العام اللبناني « طالع كتاب لبنان والدستور العثماني . وفي عهده نشأت عشرات من الجمعيات اللبنانية للمطالبة بالاصلاح فايدها واظهر رغبة صادقة في تحقيق امانيها وانالتها ما التئم مع مصلحة البلاد من اغراضها

﴿ ولاية قيومجيان باشا ﴾ وخلفه قيومجيان باشا الارمني (١٩١٢ — ١٩١٤). فجاء الى لبنان والجمعيات اللبنانية في الداخل وفي الخارج تسعى سعياً حثيثاً في طلب الاصلاح وفي مقدمتها جمعية الاتحاد اللبناني في مصر وفروعها في أوربا واميركا . فمال الى تعضيدها . وبذلك أحرز ثقة اللبنانيين فايدوه والتفوا حوله ولا سيما بعد ان زجت الدولة نفسها في الحرب الاوربية الحاضرة بجانب الدولتين الجرمانيتين حيث ابدى في كثير من المواقف الحرجة من الحزم والاخلاص في الدفاع عن نظام لبنان ما أجمع كلمة اللبنانيين على حبه والقاء أمرهم بين يديه . ولكنه أوغر بذلك صدور الاتحاديين حقداً عليه فاكرهوه على اعتزال الحكم وعهدوا في ولاية لبنان الى علي منيف بك أحد رجالهم المعروفين ثم الى اسمعيل حقي بك وهو حاكمه الحالي

﴿ الخلاصة ﴾ تلك خلاصة موجزة لتاريخ لبنان بعد تطوره الحديث يؤخذ منها أن هذه البلاد لم تنتفع بحكم المتصرفين الذين تعاقبوا على ولايتها على مقدار استحقاقها وقابليتها للاصلاح . وما توفر لمعشر اللبنانيين في هذه الحقبة من اليسر والرخاء انما كان بفضل النظام اللبناني الحديث حيث أمنوا معه شر الفتن والحروب فانصرفوا الى الاخذ باسباب العمران . وكان لهم من ذكائهم الفطري وقابليتهم لسرعة الاقتباس ومضاء عزائمهم واخلاصهم في العمل وصدق وطنيتهم ما مكن المدارس الاجنبية التي انشأتها الرسالات الدينية في ربوع لبنان وسورية من تلقينهم تعاليم الاوربيين وبث مدنيتهم في بلادهم بسرعة مدهشة مهدت لهم سبيل النهوض بها الى مستوى البلدان الراقية من الوجهتين الادبية والمادية . وكان للمهاجرة التي طغى تيارها في الربع الاخير من القرن الماضي نصيب وفير في هذا النهوض السريع حيث اتسع لهم المجال لاظهار مواهبهم الفطرية والمكتسبة في ما قاموا به في خارج بلادهم من الاعمال الخطيرة التي في كل فرع من فروعها المختلفة ما يكفي للدلالة على ان لهم من المقدرة

الذاتية ما لو قرن بصدق العمل وانتظامه وبشيء من القوة الخارجية أدبية كانت أو مادية لبلغوا ببلادهم الغاية القصوى من النجاح الذي ينشدونه لها ولجعلوا حالتها السياسية في مستوى حالتها الادبية التي أحرزت بها من عظم الشأن ما يغبطها عليه اكثر اصقاع الشرق رقياً وحضارة

سورية بعد نظام لبنان الحديث

اما سورية فقسمت بعد فتنة الستين الى ثلاث ولايات : ولاية بيروت . وولاية سورية وقاعدتها دمشق . وولاية حلب . وجعلت رتب ولاتها دون رتبة حاكم لبنان ايذاناً برفع سلطتهم عنه . وحلّ محلهم في السيطرة على اعماله ومراقبة شؤون الجبل قناصل الدول الاوربية الموقعة لنظامه الحديث . فكانت وطأتهم عليه دون وطأة اولئك الولاة . فلم ينله على يدهم عشر معشار ما كان يناله من الضيم والاذى على يد رجال الدولة وعمّالها

وقد كان دستور لبنان نعمة لسورية لانه غلّ ايدي الولاة عن ارتكاب المنكرات فيها . وحال دون ما كانوا يتذرعون به من القلاقل التي كانت تقع في لبنان لاجتياحه والاستطراد الى اجتياح انحاء سورية وانزال الويلات باهلها ولا سيما ما كان داخلا منها في حكم أمراء الجبل . وكان لانتشار المدارس الاوربية بعد سن هذا النظام شأن خطير في ايقاظ شعور السوريين فاقبلوا عليها اقبالا عظيماً . وكانت المدارس الوطنية الى بدء تلك النهضة ابتدائية قاصرة على جهة دون أخرى . فاخذ الاهلون يتبارون في الاكثار منها وجروا فيها على لوائح المدارس الاجنبية فازداد الطلبة اقبالا على اقتباس الآداب الغربية ونشأ الجيل الجديد راقياً متنوراً ميالا الى انتهاج خطة الغربيين في ترقية البلاد واصلاح شأنها . وبدت هذه النهضة الادبية على أتمها في بيروت حتى باتت كعبة القصّاد من طلاب العلم ومنتجعي المعارف كما كان شأنها في عهد الرومان حيث كانت تلقب بمدينة العلوم والشرائع . وبرزت من ذلك اللسان الارضي الذي يقف عنده بحر الروم في الشرق كمنارة عظيمة تبعث أشعة العلم والعرفان الى ما وراء البحار ولا سيما الى أرض الفراعنة فكان للقبس الذي جاء هذه الارض منها شأن عظيم في تأسيس نهضتها الحديثة . ولولا سيف عبد الحميد الذي كان مصلتاً فوق رقاب المتنورين من رعاياه في الربع الاخير من القرن الماضي لدخل القرن

المشرون على سورية وهي سيدة الممالك الشرقية

ولقد حسب رجال جمعية الاتحاد والترقي لنهضة السوريين حساباً كبيراً ولا سيما بعد ان انشق عنهم حزب الائتلافيين وجاهر مندوبوه في المؤتمر العربي الذي عقد في باريس قبيل الحرب الاوربية باستمساكهم بحقوق العنصر العربي • فوضع الاتحاديون خطة منظمة للقضاء على الفكرة العربية في مهدها ولكنهم تسرعوا في اظهار نواياهم الخبيثة ومقاصدهم الملتوية . فافضت سياستهم الخرقاء الى اتحاد العرب والسوريين على اختلاف مذاهبهم الدينية ونزعاتهم السياسية واجماع كلمتهم على مناهضتهم واحباط مساعيهم . وبدا في الحرب العظمى الناشبة اليوم تعصّب هذه الطغمة الضالة الطاغية للجنسية التركية بافظع اشكاله حيث اعلنت حكم الارهاب في الديار الشامية وحكّمت في قضية السوريين السيف الذي حكمته في قضية الارمن ولكن على اسلوب جديد تأمن معه عاقبة بغيها . على انه لا يزال في العنصر العربي السوري من القوات الكامنة ما يكفي لتلقين هؤلاء الطغاة السفاحين درساً مفيداً يذكرهم بخاتمة ملك بايزيد وسليم الثالث ومصطفى الرابع ويريهم على وميض سيف النقمة المصلت فوق رؤوسهم في حلك الدور المظلم الذي يجتازونه تلك اليد الازلية التي تتحكّم في مصير الامم تكتب لهم في لوح القدر ما كتبته على قصر بيلشاصر الملك « مَنَا مَنَا تَقِيل وفَرْسين » قبيل مصرعه وانقراض ملك الكلدان وقيام مملكتي فارس ومادي على انقاضه (١)

وما بطش الشريف حسين بن علي في الامس بجيش الطورانيين وقيام دولة بني هاشم على انقاض دولتهم في الحجاز وتمثيله معهم دور عمر بن الخطاب مع هرقل الملك يوم بطش هذا الخليفة بجيش الروم على يد بن الوليد وابن الجراح واقام دولة بني قريش على انقاض دولة بيزنطية — ما ذلك الا مظهر من مظاهر الانقلاب العظيم الذي نتوقع حدوثه قريباً في الشرق الادنى . وقد جاء ايغال الاسد البريطاني في ارض الكلدان مذكراً اعقاب الكلدانيين بدور مادي وفارس مع بيلشاصر الملك . وجاء دخوله عاصمة العباسيين مجدداً مجد العرب ومبدّداً لذكرى الدور الفظيع الذي لعبه

---

(١) « نبوءة دانيال ص ٥ » وتفسير الآية : « منا : احصى الله ملكك وانهاه . تقيل : وزنت فوجدت ناقصاً . فرسين : قسمت مملكتك وأعطيت لمادي وفارس » . وفي ليلة ظهور هذه الآية قتل بيلشاصر ملك الكلدان واستولى داريوس المادي على مملكته

هولاكو المغولي في المستعصم العباسي (١٢٥٨) ومتمماً لهذا الانقلاب الذي سيكون فيه القضاء المبرم على سلطة الطورانيين في بلاد بني قحطان . ونحن اليوم نشهد هذا الصراع عن كثب ولنا في العبر التي تجلت لابصارنا فيه على طريق بيت المقدس ما يكفي للدلالة على ان جهاد الحلفاء واستسلام العرب والسوريين الى مشيئتهم سيسفرا عن تحرير تلك الارض المقدسة من ربقة الحكم التركي الذي ابهظ عاتقها اربعة قرون كاملة ودخولها في عصر جديد اذا توافرت لها فيه اسباب العمران كان اسعد عصر مرَّ بها منذ انبثاق فجر التاريخ الى الان

« المسعودي »

مصر يوليو سنة ١٩١٧





المدالية التذكارية السوّرية للحرب العظمى الاوربية

سنة ١٩١٧

فهرس الكتاب

146

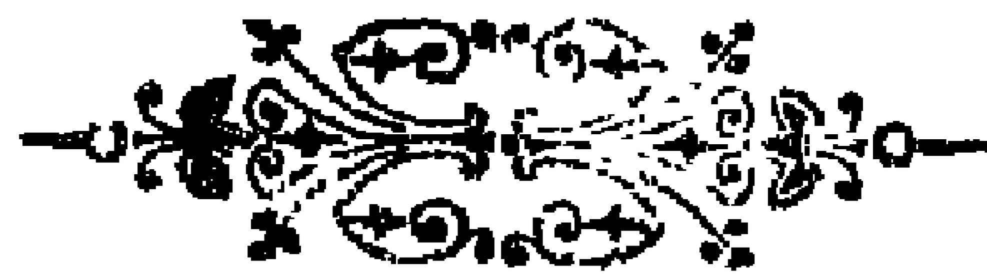
سورية في القرن الثامن عشر

صفحة

سورية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

لبنان بعد نظامهِ الحديث

صفحة



(اصلاح خطأ)

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	٢٠	وزادت	وازدادت
٨	٢٦	في الجراكسة	الجراكسة في
١١	١١	سليمان الاول	سليمان الاول (١٥٢٠ — ١٥٦٦)
١٢	٢١	وتكاثر	وتكاثر
١٢	٣٢	بونس	يونس
١٣	١٩	١٥٦٤	١٥٦٦
١٦	٢٧	منصب	مناصب
١٧	٢٤	الرصطوني	الرمطوني
١٨	٩	حكمو	حكموا
١٨	١٨	١٥٩٤	١٥٩٥
٢٣	٢	وشيخ	والشيخ
٢٦	٧	وغزير فلم	وغزير — وكان بنوسيفا اغتصبوها منهم — فلم
٣١	١٨	استأنف	استأنف
٣١	٢٠	بن	عن
٣١	٢١	عيه عطش	عليه بطش
٣١	٢٣	ملن	من
٣٤	٢٨	اغتيال السلطان	السلطان اغتيال
٣٥	١٢	وتخلى له من	وتخلى له عن
٤٨	١٥	تعويضاً عن	تعويضاً من
٥٦	٥	المسنيين	المغنّيين
٦٣	٢٥	الامواء	الامراء
٦٥	٦	تأييداً له للمحافظة:	تأييداً له ومحافظة
٦٥	٢٦	قانتصر	فانتصر
٦٥	٢٦	الاساطبل	الاساطيل
٦٩	٥	شرشريك	شرشر بك